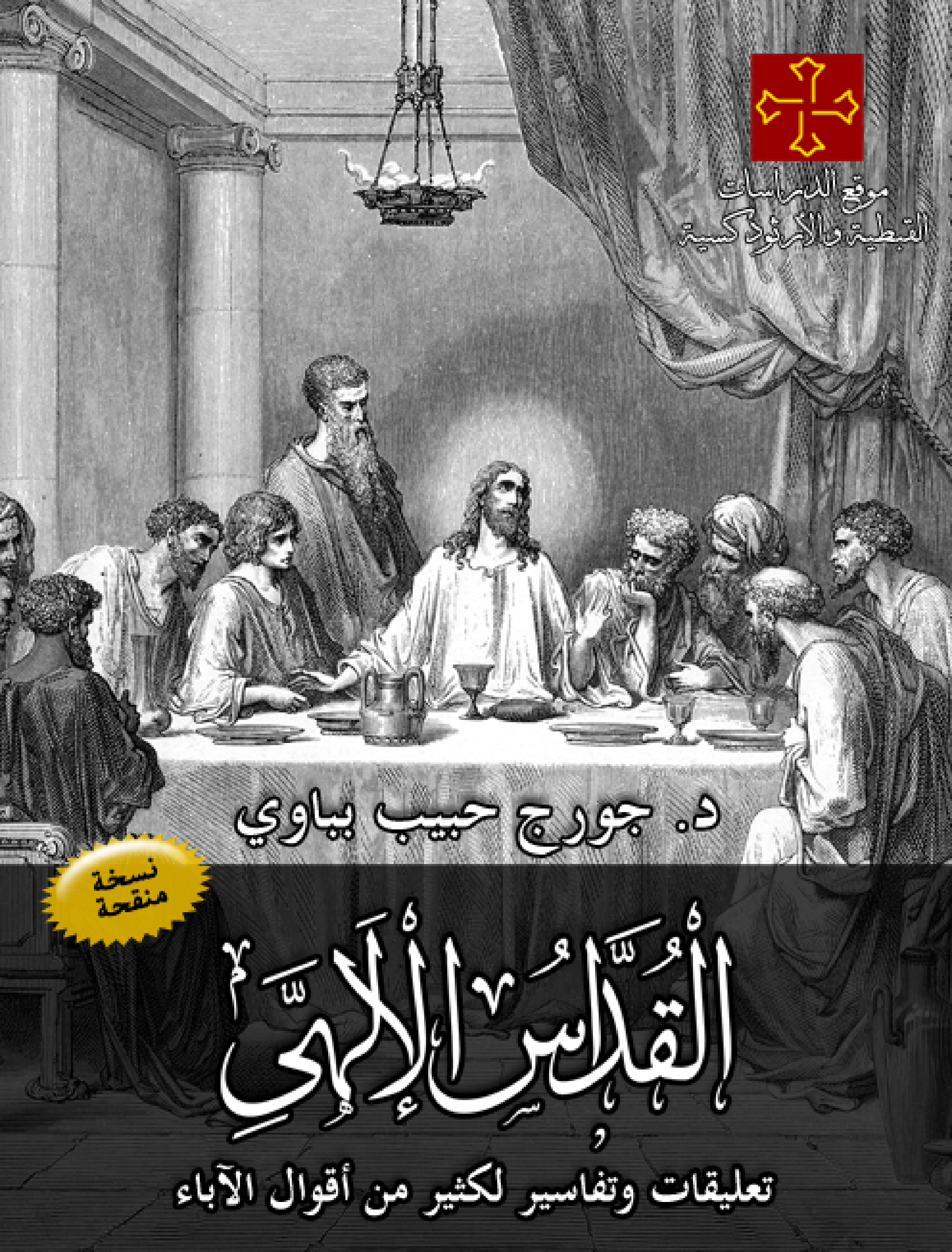


موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية
د. جورج حبيب بباوي
نسخة
منقحة
القداس الإلهي
تعليقات وتفاسير لكثير من أقوال الآباء
www.coptology.com





تعليقات وتفاسير لكثير من أقوال الآباء

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠١٣
www.coptology.org

جدول المحتويات

القسم الأول

مقدمة عامة ١١

القسم الأول

الشرح اللاهوتي **١٤**

المسيح والكاهن في الصلوات السرية **١٥**

الصلوات السرية أثناء القراءات في الكتاب المقدس ٢٠

الصلوات السرية، نظرة تاريخية موجزة.. ٢٣

دورة الحمل **٢٧**

الاتجاه الأول.. ٢٨

الاتجاه الثاني ٣١

أمَّا الاتجاه الثالث.. ٣٣

ماذا نقدم؟ ولماذا الذبيحة؟ ٣٧

شذرة موجزة من الآباء: ٤٣

سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة **٤٩**

الكنيسة الجسد الواحد.. ٥٢

من أين جاء تعبير "جسد المسيح" كوصف لحقيقة اختبار إيماني تعيشه الكنيسة؟ . ٥٣
الجسد الواحد في الصلاة والطقس... ٥٧
كيف يُعبِّر الطقس عن هذه الحقيقة؟ ٥٩
اختيار الحمل ووساطة المسيح.. ٦٠
الجسد الواحد والقربانة كخلاصة الخبرة الروحية القبطية ٦٧
هذا اصنعوه لذكري ٧٠
العهد والذكرى ٧٤
المسيحُ حاضرٌ وليس بغائبٍ: ٧٤
أول أركان العهد: الله يعلن عن نفسه ٧٨
إعلان الله عن ذاته في القداس ٨٢
الخلق والخلاص استمرارٌ للعهد: ٨٥
فشل الهرطقات في فهم وحدة الخلق والخلاص ٨٩
ثاني أركان العهد: الدوام والاستمرار ٩٤
كيف تأسس العهد؟ ٩٧
الدم والعهد:... ٩٨
المصطلحات اليونانية عند الآباء، وهل تعني الاستحالة الجوهرية؟!!............ ١٠٠
الخلاصة:... ١١٠
الاستحالة ومعنى كلمة "جسد"، وكلمة "دم":................................. ١١٣
الذِّكرىَ.. ١١٦
الذكرى ليست عقلية، وإنما اشتراك في الخلاص:............................... ١١٧

القسم الثاني

الترتيب الطقسي ١١٩

الترتيب الطقسي وعلاقته بالعقيدة ١٢٠

التقسيم التاريخي: ١٢٠

السِّر وكيف يُعلَن؟ ١٢١

مكان الرشومات في الطقس، ومعناه ١٢٦

الرشومات الأولى في دورة الحمل: ١٢٦

الرشومات الثانية قبل التقديس: ١٢٧

رشومات التقديس، ورشومات ما قبل القسمة وما بعدها: ١٢٩

الاسباديقون: ١٣١

القسم الثالث

شرح القداس الإلهي لجرجس أسقف العرب ١٣٦

١– التقدمة: ١٣٦

٢– قبلة السلام: ١٣٧

٣– الشمامسة: ١٣٧

٤– المذبح: ١٣٧

٥– السجود: ١٣٩

٦– أبانا الذي في السموات: ١٣٩

٧– القدسات للقديسين: ١٣٩

٨- تقسيم الأسرار: ١٣٩
٩- قبول الأسرار: ١٤٠
١٠- الصلاة التي تقال بعد تناول الأسرار: ١٤٠
١١- الكاهن يغسل يديه أمام المذبح: ١٤٠

شرح سرِّ القربان لموسى باركيفا ١٤١
١- الأسماء التي تُطلق على هذا السر:............................ ١٤١
٢- التفسير السري للناقوس:.................................... ١٤٢
معنى قدوس الله: ١٤٣
٤- قراءة الأسفار: ١٤٥
٥- المزامير وهليلويا:.. ١٤٥
٦- ما معنى: "قفوا حسناً": ١٤٦
٧- السلام لجميعكم:.. ١٤٦
٨- ما يقوله الشماس بعد الإنجيل: ١٤٦
٩- ماذا يعني المذبح؟ ١٤٦
١٠- لماذا نمزج الكأس؟.. ١٤٧
١١- ما هي رتبة الكاهن؟.. ١٤٧
١٢- عن الشمامسة: ١٤٧
١٣- عن البخور: ١٤٨
١٤- صلاة الصلح:.. ١٤٩

١٥- قبلة السلام: ١٤٩
١٦- غسل يد رئيس الكهنة والكاهن قبل الأسرار:........................ ١٥٠
١٧- رفع الابروسفارين: ١٥٠
١٨- رحمة السلام وذبيحة التسبيح:.. ١٥١
١٩- محبة الله الآب: ١٥١
٢٠- ارفعوا إلى فوق قلوبكم: ١٥٢
٢١- السارافيم الذين لهم ستة أجنحة: ١٥٣
٢٢- التقديس للثالوث:.. ١٥٦
٢٣- "هذا اصنعوه لذكري": ١٥٩
٢٤- استدعاء الروح القدس: ١٦٠
٢٥- قرع الصدر: ١٦١
٢٦- تذكار الراقدين: ١٦١
٢٧- القسمة:.. ١٦٢
٢٨- رشم الجسد بالدم: ١٦٣

شرح القداس الإلهي لآباء الكنيسة القبطية المنسوب لسمعان بن كليل ١٦٥
العشية، وهي بداية اليوم الجديد.. ١٦٦
التذاكيات ومديح والدة الإله: ١٦٨
عبور البحر الأحمر مع المسيح:.. ١٧٠
الإبصاليات:.. ١٧١

باكر، وهو سَحَر قيامة ربنا يسوع المسيح ١٧٣

الأواشي تخوم البيعة: ١٧٤

البخور رائحة حياة الابن الوحيد ١٧٦

كيف تقدِّس طقوس البيعة حواس الجسد؟ ١٨٢

درجات الارتفاع العقلي نحو الرؤية السماوية ١٩٠

القيام بكلمة الله:... ١٩١

الشاكيناه (سحابة المجد الإلهي) قبل قراءة الإنجيل: ١٩١

الأواشي بعد الإنجيل ١٩٢

صلاة الصلح ١٩٣

أيها الجلوس قفوا: ١٩٤

أساس الخلاص.. ١٩٥

التقديس ١٩٦

استدعاء الروح القدس ١٩٧

ميراث المسيح ١٩٨

رتبة القسمة المقدسة ١٩٩

التسليم الذي لا يُقال جهراً ٢٠١

رسالة مار تيموثاؤس أُسقف الأشمونين عن تقسيم الجسد في القداس ٢٠٣

تقسيم جسد الرب كما سلَّمه الآباء القديسون ٢٠٧

ملاحظات على النص: ٢٠٩

حول كلمات القداس الإلهي للقديس باسيليوس: "وذاق وأعطاها أيضاً لتلاميذه ورسله القديسين"... ٢١١

هل شرب الرب من كأس الافخارستيا؟.............................. ٢١١

دم الرب الخاص به: ٢١٤

رَشُّ الماء في نهاية القداس.. ٢١٧

حزقيال ٤٧: ١ - ١١: ٢١٧

أولاً: النهر:.. ٢١٨

ثانياً: السمك الكثير:... ٢٢١

ملحق (١)

الكلمات اللاهوتية في القداس القبطي ٢٢٤

مقالات نُشرت بمجلة مرقس من ديسمبر ١٩٧٤ إلى يناير ١٩٧٦ .... ٢٢٤

الدَّالة.. ٢٢٥

المعاني المختلفة للكلمة اليونانية في العهد الجديد: ٢٢٦

معاني الكلمة في صلوات الخولاجي:.................................. ٢٢٨

هل هناك علاقة بين صلاة القسمة، وصلاة أبانا الذي في السموات؟ ٢٢٩

الحَمَل.. ٢٣١

الحَمَل وترتيب أجزاء القداس.. ٢٣٣

دورة الحَمَل.. ماذا تعني؟ ٢٣٣

الحَمَل والقربان: ٢٣٧

الذبيحة (١) ٢٣٩

الدم يعني الحياة أو الشخص نفسه: ٢٤٠

الجسد يعني الحياة أو الشخص نفسه: ٢٤١

ذبيحة الجسد والدم: ٢٤٣

الذبيحة (٢) ٢٤٥

اللاهوت الكاثوليكي في العصر الوسيط: ٢٤٧

التقليد الشرقي: ٢٤٩

الفروق الأساسية بين التقليد الأرثوذكسي، والتقليد الكاثوليكي (قبل حركة الإصلاح) في فهم الذبيحة: ٢٤٩

الذبيحة (٣) ٢٥٢

الفروق الأساسية بين التقليد الأرثوذكسي والتقليد الكاثوليكي قبل حركة الإصلاح في فهم الذبيحة (تكملة) ٢٥٢

استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء من سنة ١٥٠ حتى القرن الخامس: . ٢٥٥

الذبيحة (٤) استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء ٢٦٠

القديس ايريناوس: ٢٦٠

العلامة ترتليان (١٤٥-٢٢٠): ٢٦٥

ماذا تعني كلمة مثال *Symbols* في اللاتينية و τυπος في اليونانية؟ ٢٧١

الذبيحة (٥) استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء ٢٧٣

القديس كبريانوس الشهيد (٢٠٠ - ٢٥٨): ٢٧٣

الرسالة ٦٢: ٢٧٤

مزجُ الماء بالخمر هو علامة اتحاد المسيح بالكنيسة: ٢٧٨

القيمة اللاهوتية للنصوص: ٢٧٨

الذبيحة (٦) استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء ٢٨٢

القديس أكليمنضس السكندري (من ١٩٢ - ٢١٧) ٢٨٢

الإفخارستيا والتجسد: ٢٨٣

الإفخارستيا واللوغوس: ٢٨٥

الذبيحة (٧) القديس أكليمنضس السكندري (من ١٩٢ - ٢١٧) ٢٨٧

الإفخارستيا واللوغوس: ٢٨٧

ملحق (٢)

الكنيسة الجسد الواحد، العقيدة، والاختبار الليتورجي ... ٢٩٣

نوع الوحدة: ٢٩٤

الكنيسة كمثال للثالوث على الأرض ٢٩٦

الاختبار الليتورجي لوحدة الكنيسة: ٣٠٥

الممارسة والمعيشة: ٣٠٨

مقدمة عامة

كلمة قداس من الكلمات السريانية التي دخلت اللغة العربية، وهي تعني الصلوات التي يتقدس بها الشعب والتقدمة. وعندما نقول: "القداس الباسيلي" مثلاً، فنحن في الواقع لا نقصد مطلقاً أن هذه الصلوات كتبها القديس باسيليوس، ذلك أن القداسات، وإن كانت تحمل عدة أسماء لقديسين عظام، من معلمي الإيمان، إلَّا أن هذه الصلوات كانت معروفة في الكنيسة قبل أن يولد هؤلاء.

وإذا ألقينا نظرة على أسماء القداسات وجدنا أنها تحمل أسماء آباء القرن الرابع والخامس مثل باسيليوس – ذهبي الفم – كيرلس – غريغوريوس الثيؤلوغوس... الخ. وهذه الظاهرة هامة جداً، فهذا العصر بالذات هو عصر البدع والهرطقات لا سيما تلك الهرطقة المزعجة المسماة بالأريوسية، ولذلك أقتضى الأمر أن يُراجع هؤلاء الآباء الذين اشتهروا بالأرثوذكسية، الصلوات التي ورثتها الكنيسة الجامعة، وأن يشهدوا لصحتها. فحملت هذه القداسات أسماء هؤلاء الآباء دون أن يكون لهم فضل كتاباتها، وإنما فضل التأكد من سلامتها، ومن أنها تُعبِّر عن الإيمان الأرثوذكسي القويم الذي أخذته الكنيسة من المسيح ومن الرسل.

وهكذا، فإن الاسم "القداس الباسيلي"، هو شهادة التقليد، وهي شهادة مرتبطة بالمعلم العظيم، ولا مجال للدراسات النقدية والتاريخية هنا؛ لأن هذه الدراسات لا تجوز قبل تذوق معاني القداس نفسه وجماله وفهم الترتيب والعقيدة وطريق اتحادنا بالله عبر الصلوات فيه، والتعرف على ما يمتاز به القداس الباسيلي من سهولة ووضوح وبساطة عميقة لا مثيل لها. وسوف نكشف في دراستنا كيف يعكس القداس لغة الكتاب المقدس، بعهديه بما فيها من قوة ووضوح، وكيف يربط بين العقيدة والحياة. وعندما نتذوق جمال القداس الإلهي وعمقه فسوف نتمكن حينئذ من الاقتراب من الدراسات

التاريخية واللاهوتية والنقدية.

وكل ما نرجوه هو أن يتمكن القارئ من الاستعانة بطبعة الخولاجي المقدس التي أشرف على إصدارها العالم الجليل القمص عبد المسيح المسعودي[١]، وهي الطبعة التي أعاد طبعها القمص عطا الله المحرقي. وقيمة هذه الطبعة هي في الشواهد العديدة من الكتاب المقدس بعهديه. وهي شواهد ذات قيمة تساعد القارئ على تتبع معنى الكلمات وكيفية دخول نص الكتاب المقدس في الصلاة، ولعل طريقة استخدام النص الكتابي وفي مرحلة معينة من الصلاة، توضح لنا علاقة هذا النص بمنهج الاتحاد السري بالمسيح، وهو ما يحرص القداس على تأكيده وإبرازه بشكل واضح.

إن الغاية من القداس الإلهي هي أن تصبح الكنيسة والمسيح جسداً واحداً. هذه الوحدة السرية، هي دخول الكنيسة إلى ما وراء الحجاب (عب ٦: ٩)، حيث دخل يسوع، ولذلك عندما يبدأ الكاهن: "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس، الآب والابن والروح القدس"، فهو يؤكد أننا في السماء، وفي حضرة الثالوث.

هذا الجانب ذو أهمية بالغة من الناحية الروحية والعقائدية؛ لأنه لولا وجودنا في حضرة الثالوث ووجود الثالوث في وسطنا لَمَا استطعنا أن نقوم بكل هذه الطقوس، وما استطعنا أن نقول هذه الكلمات المملوءة بكل جسارة وثقة، وهو ما نصل إليه في النهاية، عندما تمهد الصلاة المعروفة باسم صلاة القسمة لهذه الجسارة: "لكي نجسر أن ندعوك بدالةٍ يا الله ونقول: يا أبانا الذي في السموات". هنا تصل الجسارة إلى قوتها، ليس في نداء الآب فقط، بل بالاتحاد بالابن في الروح القدس.

ولقد وضعنا هذا المبدأ الأساسي في بداية هذه الدراسة؛ لكي يدرك كل من

---

(١) صدرت الطبعة الثانية لهذا الخولاجي عن دير السيدة العذراء (برموس) في عام ٢٠٠٢.

يدرس القدَّاس، إلى أين نسير، ولماذا نتصرف بهذا الشكل، ولماذا ننطق بهذه الكلمات؟

هذا الكتاب، إذ يغوص بطريقةٍ أكاديميةٍ في أعماق الفكر اللاهوتي لآباء الكنيسة الشرقية، فإنه يقف على كثير من الفروق اللاهوتية بين الفكر اللاهوتي الشرقي القائم على الإيمان والنسك، والفكر اللاهوتي الغربي – بكافة تطوراته – القائم على البحث العقلي المجرد.

وقد تضمن هذا الكتاب شروحات كثيرة جُمِعَت من خولاجيات قبطية وعربية تزيد على ألف خولاجي في المتحف القبطي، والمتحف البريطاني، والمكتبة الأهلية بباريس، ومكتبات جامعة أكسفورد وكامبريدج والفاتيكان، والأديرة القبطية بوادي النطرون.

هذه الدراسة هي مجموعة محاضرات ألقيت بالكلية الإكليريكية في طنطا على طلبة وطالبات السنة الثانية في عام ١٩٧٧م. ولست أزعم أنني قد شرحت أو درست كل شيء، وإنما أقرر أن كل دراسة، ليست سوى بداية، وعلامة يجب أن يتجاوزها الكاتب والقارئ.

دكتور

جورج حبيب بباوي

القسم الأول

الشرح اللاهوتي

الفصل الأول

المسيح والكاهن في الصلوات السرية

المقدمة القصيرة التي نراها في الخولاجيات القديمة تطلب من الكاهن أن يكون "نقياً داخلاً وخارجاً". وتقول عن هذا النقاء الداخلي: "أن يكون الخادم في سلام مع الله والناس بلا خصام أو عقل مشوش أو قلب منقسم". هذا هو النقاء الذي تطلبه الكنيسة من الرأس (الأسقف)، لكي يسري في باقي أعضاء الجسد؛ إنه السلام الذي وهبه المسيح للذين يخدمونه.

تقول صلاة الاستعداد: "أيها الرب العارف قلب كل أحد. القدوس المستريح في قديسيه". هكذا تبدأ الخدمة، وبشكل خاص، تؤكد لنا مَن هو الكاهن، وما هو دوره في الخدمة، وما هو سلطانه. استمع إليه وهو يقول بعد ذلك: "أنت يا سيدي تعلم أني غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدسة التي لك"، وهكذا يتكلم هذا الإنسان المختار من الله، إن هذه الخدمة، ليست له وإنما هي خدمة المسيح. وقد وردت كلمة الخدمة مرتين: "**الخدمة** المقدسة التي لك.. لكي أبتدئ وأهيئ وأكمل **خدمتك** المقدسة كما يرضيك..". وخدمة المسيح هذه هي التي يطلب الكاهن كمالها: "أرسل لي قوة من العلاء.."، ولكن علينا ألَّا نركز نظرنا على احتياج الكاهن (الأسقف أو القس)، بقدر ما ننتبه إلى كلمة متكررة ومعروفة في القداسات، لا ننتبه إليها كثيراً، وهي كلمة "**أُكَمِّل**". لاحظ أنه بعد صلاة الاستعداد يطلب الكاهن: "اجعلنا يا سيدنا مستوجبين بقوة روحك القدوس أن نكمل هذه الخدمة". فالذي أسَّس الخدمة هو المسيح، وكذلك

فإن تقديم القرابين والصلاة، هو إكمالٌ لعمل المسيح.

وقد تطرح علينا هذه الصلاة موضوعاً من أهم الموضوعات في اللاهوت الأرثوذكسي، ألا وهو علاقة المسيح بالكاهن، وهنا وبكل وضوح يظهر الكاهن أنه يُكمل عمل المسيح، وإكمال عمل المسيح، لا يعني أن عمل المسيح ناقص يحتاج إلى الكاهن لكي يكمله، وإنما إكمال عمل المسيح يعني بشكل خاص تحقيق ما سبق فوعد به المسيح. وكلمة "كمال – يكمل" من أكثر الكلمات استخداماً في الرسالة إلى العبرانيين، فقد وُصِفَ المسيح بأنه "كُمِّلَ بالألم"، وواضح من سياق الكلام أن الفداء كَمُلَ بالألم، أي أنه تحقق، ولم يكن ممكناً أن يتحقق بغير الألم (راجع عب ٥: ٩).

من هذا ندرك أن الكاهن لا يُكمِّل عملاً ناقصاً تركه المسيح، بل يحقق ما وضعه المسيح نفسه. هنا تظهر هذه العلاقة بشكل بارز عندما يطلب الكاهن من المسيح: "نعم يا سيدنا كن معنا. اشترك في العمل (الخدمة) معنا".

ومن نص الصلاة نرى أن البداية تخص الكاهن، فهي بصيغة المفرد ولكنها تنتقل بعد ذلك إلى صيغة الجمع؛ لأن الشعب واقفٌ يشترك في الخدمة، فلا قداس بدون الشعب، وليست هذه الصلوات – حتى السرية منها – خاصة بالكاهن وحده، بل هي صلاة الكل، أي الكنيسة. والذين يعرفون القوانين الكنسية، يدركون أن عدم وجود علمانيين أثناء تقديم الحمل يعني أن لا يُقدَّم الحمل مطلقاً. فالشماس لا يُحسب من الشعب، فهو من الإكليروس – حتى وإن كان في رتبة القارئ – بشهادة صلوات القداس نفسه. (راجع أوشية الآباء – الأساقفة – القمامصة – القسوس – الشمامسة – ثم راجع أيضاً أوشية الآباء بعد استدعاء الروح القدس حيث تظهر رتب الكنيسة: القمامصة والقسوس والشمامسة والأيبوذياكونيين والطغمات السبعة لكنيسة الله). ومن صلاة التجنيز يظهر أن لرتب الشمامسة صلاة خاصة بكل رتبة. ولذلك فإن وجود الشماس لا يعني اكتمال عناصر الجماعة الأساسية للخدمة، وهي الثلاثة: الكاهن – الشماس – والعلماني، فهم كما يقول القديس كيرلس السكندري: "جسم الشهادة"

طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس: "على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة" (تثنية ١٧: ٦). وكما نعرف أيضاً أن جسم الشهادة هذا هو الذي نال الوعد الخاص من المسيح بالحضور: "إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة فهناك أكون في وسطهم" (متى ١٨: ٢٠). وعندما يتلو الكاهن صلاة الاستعداد، فهو يؤكد حضور الشعب واشتراكه في الصلوات. ونعرف من كتابات الآباء لا سيما آباء القرن الرابع والخامس، وبشكل خاص، ذهبي الفم وأبيفانيوس وباسيليوس، أن الشعب يردد كل صلوات القداس في قلبه. ولهذا السبب لا نجد صلاة واحدة بصيغة المفرد إلَّا تلك التي يعترف فيها الكاهن بأنه خاطيء. فهو يعترف عن نفسه، وليس عن الشعب. أما كل الصلوات الأخرى فهي بصيغة الجمع لأنها صلاة الكنيسة التي بقلب واحد تطلب وتسعى للاتحاد بالمسيح.

وهكذا منذ البداية نلمح بشكل واضح ما هو القداس: إنه عمل المسيح وخدمته، وهو وجود الشعب والاكليروس في الكنيسة من أجل رحلة الاتحاد بالمسيح. ولكن البداية اعتراف، حيث يذكر الكاهن خطاياه، أمَّا عن الشعب فيقول: "جهالات شعبك"، والفرق بين الخطية والجهل واضح جداً؛ لأن الكاهن الذي يعرف الشريعة والذي تُطلب من فمه الشريعة، عندما يُخطئ فهو يُخطئ عن معرفة وعن فهمٍ وإدراك لحقيقة ما يفعله، أمَّا الشعب الذي يُؤدَّب بالشريعة فهو يُخطئ عن جهل.

القداس هنا يؤكد فداحة خطية الكاهن، ولكن لا يدفع الشعب إلى الشك في الكاهن، بل العكس هو الصحيح. وكما سنرى في كل مراحل القداس لا سيما عندما نقترب من النار الإلهية، أي الجسد والدم، يصرخ الكاهن معترفاً بخطاياه سائلاً الصفح عن آثام وجهالات الشعب (راجع الصلوات السرية بعد القسمة: أذكر يا رب ضعفي... وأغفر لي خطاياي الكثيرة، من أجل خطاياي خاصة ونجاسات قلبي لا تمنع شعبك نعمة روحك القدوس). وهنا بشكل خاص ندرك أن الكاهن في حضرة المسيح هو بلا سلطان خاص به، وإنما هو خادم أسرار المسيح.

وإذا أردنا أن نكمل فهمنا لعلاقة المسيح بالكاهن علينا أن ندرس الصلاة

السرية، بعد وضع الخبز والخمر على المذبح والتي تُسمى بأوشية التقدمة. ومرةً أخرى تعلن الصلاة بشكل ظاهر جداً أن المسيح "هو الخبز الحي الذي نزل من السماء"، هذا هو سبب وجودنا في الهيكل. لقد جاء المسيح إلينا، ولكننا نقول عنه: "سبقتَ أن تجعل ذاتك حملاً بلا عيب عن حياة العالم". لقد جاء وقدَّم نفسه، ولذلك نحن لا نقدِّمه من جديد، وإنما نضع التقدمة لكي يكون لنا اشتراك حقيقي فيما فعله المسيح، وعلينا أن نلاحظ، ليس فقط صيغة الجمع في هذه الصلاة، وهي هامة، ولكن ذلك النص الجميل الذي يؤكد أن الكل اجتمع لكي يضع الخبز والخمر "على هذه المائدة الكهنوتية التي لك"، إنها مائدة المسيح، وليست مائدة أي شخص آخر، والكهنوت هو كهنوت المسيح. ويعبِّر القداس الكيرلسي عن هذه الحقيقة في أوشية الكهنوت: "أذكر يا رب هذا الكهنوت المقدس الذي لك". لا يوجد لدينا كهنة مثل كهنة العهد القديم، ولا يوجد لدينا وسطاء بين الله والناس، وإنما لدينا كاهن واحد يسوع المسيح الذي يعطي كهنوته الواحد بعينه إلى مَن يختارهم هو لكي يكمِّلوا عمله الإلهي الكهنوتي[١]، ولذلك يتضرع الكاهن منذ البداية في أوشية التقدمة: "باركهما، قدسهما، طهرهما"، فالذي يطهِّر، ويقدِّس، ويبارك، هو المسيح، لكن الذي يرشم هو الكاهن. الكاهن يكمِّل عمل المسيح، كما يظهر بجلاء أننا لا نذبح المسيح في القداس، بل المسيح هو الذي يُعطِي، هو الذي يُقدِّس ما يوضع على المائدة الكهنوتية التي له.

الكاهن يقف مثله مثل الشعب تماماً في حضرة الله، ولذلك عندما تبدأ صلاة التحليل يقول الكاهن: "عبيدك خدام هذا اليوم القمامصة.. كل الشعب وضعفي"، فذلك الواقف في حضرة الله، مثل كل الخطاة، يطلب التحليل لنفسه، يعود ويقول بعد ذلك: "ومن فم حقارتي"، فهل يوجد تناقض؟ بكل تأكيد لا. يتحدث الكاهن مع الله مثل أي إنسان: "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر عن عبيدك آبائي وإخوتي

---

(١) إنكار الكهنوت في الكنيسة هو بالضرورة، انكار لكهنوت المسيح نفسه. فنحن نشترك في بنوة المسيح للآب، وفي حياته وموته وقيامته، وتشترك فئة خاصة بكهنوته، تماماً، كما اشتركت فئة خاصة في الرسولية والاستشهاد ومواهب التعليم.

وضعفي". ومثل أي خاطئ يقول: "أنعم علينا بغفران خطايانا"، ولكن لأنه يكمِّل عمل المسيح، أو المسيح هو الذي يكمِّل عمله من خلال الكاهن: "أنت الآن يا سيدي.. أنعمتَ على الذين يعملون في الكهنوت كل زمان في كنيستك المقدسة أن يغفروا"، أو بشكل آخر واضح: "فليكن يا سيدنا عبيدك آبائي وإخوتي وحقارتي محاللين من فمي بروحك القدوس". فالكاهن هنا يطلب الحِل لنفسه كواحد من شعب الكنيسة، ولكنه لا يقف عند مستوى أي واحد من شعب الكنيسة؛ لأنه يحمل كهنوت المسيح، ولذلك فمن فمه ينال الكل المغفرة.

وفي تحليل الخدام نرى الكنيسة الجامعة بشكلها الكامل: الثالوث، فالرسل الاثنى عشر، ثم المعلِّمين من الآباء. ولعلنا نلاحظ هنا بشكل خاص أن الأسماء التي وردت في صلاة تحليل الخدام أُختيرت بعناية؛ لأن هذه الأسماء هي أسماء شهود الأرثوذكسية. هؤلاء تذكرهم الكنيسة في صلاة تحليل الخدام لتؤكد سلامة وصدق إيمان الذين اجتمعوا في الكنيسة. وعلينا أن نلاحظ أن اسم البطريرك وأسقف الإيبارشية ثم القس هو خاتمة أسماء تحليل الخدام. هذا يؤكد وحدة الإيمان والشركة الواحدة التي تربط الثالوث القدوس بالآباء، ثم بالبطريرك والأسقف، ثم القس ثم بالشعب. هذه هي الصورة الواضحة للكنيسة الجامعة. وعندما يصلي الكاهن تحليل الخدام، فهو يتحدث كعضو في الجسد الواحد / الكنيسة الجامعة، ولذلك عندما يتحدث مع الرأس / المسيح، يطلب التحليل لنفسه. أمَّا عندما يتحدث عن الشعب، فهو يطلب لهم التحليل كإنسان، يطلب المغفرة، وككاهن يطلب لأجل غيره: "عبيدك خدام.... وكل الشعب وضعفي..."، ولكنه بعد ذلك يقول: "ومن فم حقارتي".

وتختلف الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية عن الكنيسة الكاثوليكية (الطقس اللاتيني) في نقطة جوهرية، وهي أن صيغة التحليل في كل الكنائس الأرثوذكسية توضع في شكل صلاة وطلب من الله: "اللهم حاللنا وحالل شعبك" (تحليل الآب بعد صلاة القسمة). وهي بذلك عكس صلاة التحليل اللاتينية القديمة التي تقول: "بموجب السلطان المعطى لي من الكنيسة أنا أحلُّك من خطاياك باسم الآب والابن والروح

القدس". إن روح الأرثوذكسية هي استعلان كهنوت المسيح وعمله في الكاهن، وليس تأكيد سلطة الكنيسة. وفي صيغة التحليل الكبير الذي يُستخدم في سر التوبة والاعتراف يوجِّه الكاهن كلامه للمسيح الحاضر في هذا السر: "أيها السيد الرب يسوع المسيح ابن الله الوحيد.. الذي قطع كل رباطات خطايانا من قبل آلامه المخلِّصة المحيية، الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين، ورسله الأطهار، وقال لهم اقبلوا الروح القدس مَن غفرتم خطاياهم غُفِرت لهم ومن أمسكتموها عليهم أُمسكت"[1]. الاعتراف بألوهية المسيح "ابن الله الوحيد" وهو ركيزة عهد المغفرة، ثم آلام المسيح التي أحيتنا، وعمل الروح القدس فهو القوة، الذي يفك كل الرباطات. وهكذا نرى أن المسيح يعمل كرئيس كهنة في الكنيسة ومن خلال الكهنة الذين أقامهم. ولذلك فإن "السلطان" هو نعمة الرب التي تعمل ليس باستقلال عن الرب، وإنما بعمل الرب نفسه، ولذلك عندما قال الرب لبطرس: "أعطيك مفاتيح الملكوت" (متى ١٦: ١٩)، فإن هذه المفاتيح – كما شرحها الآباء – ليست سلطة تُعطى لتمكن البشر من أن يفتحوا الملكوت بالشكل الذي يروق لهم، وإنما هي مفاتيح الملكوت حيث الله مَلِكٌ لا ينقل سلطانه إلى الناس ليكون سلطة مستقلة عن الله، إنما تظل هذه المفاتيح في الكنيسة الواحدة التي لا فصل بين رأسها وأعضائها، أي المسيح وشعبه.

الصلوات السرية أثناء القراءات في الكتاب المقدس

عندما تقرأ الكنيسة الكتاب المقدس، فهي تستقبل القراءة بالصلاة، وليست هذه الصلوات مجرد قطع للتسلية، إنما هي بكل يقين الخشوع الحقيقي لمواجهة كلمة الله. استمع إلى الكنيسة وهي تصلي: "أنعم علينا وعلى شعبك كله بعقل غير مشتغل وفهم

([1]) السلطان الكهنوتي تعبير غير معروف في الخولاجيات الشرقية ولا وجود له في كتب اللاهوت الارثوذكسية قبل القرن الرابع عشر. ويوجد فرق ضخم بين عبارة السلطان الكهنوتي وتعبير الخولاجي "**من قبل رسلك الاطهار أنعمت على الذين يعملون في الكهنوت**" حيث يظهر هنا ان النعمة هي قاعدة عمل الكهنوت وليس السلطان، بعكس الكنيسة اللاتينية، التي تؤكد السلطان بشكل بارز، دون أن تنكر النعمة.

نقي لكي نعلم ونفهم ما هي منفعة تعاليمك المقدسة التي قُرئت علينا الآن"، فهي تطلب العقل غير المشتغل والفهم النقي لكي تسمع تعاليم المسيح التي يقرأها القديس بولس علينا. وهنا ندرك حقيقة وحدة الكنيسة الجامعة، فبولس لم يمت، إنما لا يزال في وسطنا، وهذا هو سر وحدة الكنيسة العظيم الذي يفوق الإدراك.

بولس لا يزال حياً في جسد المسيح، يقرأ علينا تعاليم المسيح، ولذلك لا يمكن لمن يشعر ويرى – روحياً – وجود الرسل في الكنيسة، ويسمع صوتهم وهم يعلِّمون في الكتب المقدسة، أن ينفصل أو يثور أو يهدد وحدة الكنيسة.

من جانب آخر نلمح الخلافة الرسولية للشعب: "وكما تَشَبَّه بك أنت يا رئيس الحياة، هكذا نحن أيضاً أجعلنا مستحقين أن نكون متشبهين به في العمل والإيمان ممجدين اسمك القدوس مفتخرين بصليبك كل حين".

إن الكنيسة هي شعب الله والكل فيها خلفاء الرسل في المحبة والإيمان. البعض يدعوه راعي الرعاة لينال ميراث بولس، أو أكليل الشهداء، أو جمال عدم الفساد في الحياة النسكية. والصلاة السرية التي تقال أثناء قراءة الكاثوليكون تشهد بذلك: "أيها الرب إلهنا الذي من قِبَل رسلك القديسين أظهرت لنا سر إنجيل مجد مسيحك.. نسألك يا سيدنا اجعلنا مستحقين نصيبهم وميراثهم، وأنعم علينا كل حين أن نسلك في آثارهم ونكون متشبهين بجهادهم، ونشترك معهم في الآلام التي قبلوها مع التقوى". هذا النص يؤكد أن الخلافة الرسولية لا تورَّث، ولا ينالها الإنسان بمجرد كونه في الكنيسة، بل هي سلوك رسولي، وهي التشبُّه بجهاد الرسل. ومن الخطأ أن نظن أن هذه الصلاة تشير إلى الكهنة فقط؛ لأن التقسيم الذي ورثناه من السابقين علينا، وهو تقسيم الكنيسة إلى إكليروس وعلمانيين، هو تقسيمٌ متأخر.

فالكنيسة الواحدة، هي التي ترث الرسل، وليس الإكليروس فقط هم خلفاء الرسل. فكل الشعب هو بذار الكهنوت، والرهبنة، وهذه البذار قد ينمو بعضها يوماً ويثمر كهنة أو رهباناً.

في الكنيسة الغربية تطور وضع الإكليروس في ظل الظروف الاجتماعية والثقافية التي سادت الغرب. ذلك أن الكاهن يُختار من الصغر بواسطة الأسقف، يدخل إلى مدرسة اللاهوت أو الدير ويظل هناك إلى أن يرسله الأسقف إلى الكنيسة ليرعاها. هذا الوضع افترض الدرجة اللاهوتية، وافترض التعليم اللاهوتي كأساس للخدمة. أمَّا في الشرق، فالوضع مختلف تماماً؛ لأن الكاهن يختاره الشعب، سواء كان القس أم الأسقف أم البطريرك، وهؤلاء لا يُختارون وفقاً لدرجات علمية في اللاهوت، وإنما وفقاً للنعمة والموهبة التي يعلنها الله فيهم (راجع صلاة الكاثوليكون بدقة). وحتى الرسل الذين درسوا مع المسيح كل أسرار الملكوت أعطاهم المسيح له المجد "موهبة نعمتك العظيمة"، أي نعمة "سر إعلان انجيل مجد المسيح"، فكهنة المسيح، وشركاء الرسل في الخلافة لا يولَدون بسبب الانتماء العرقي، أو الطائفي، وإنما يُختارون من قِبَل الرب، ويراهم الشعب، وعندما يُقرر الشعب ذلك، يُعبِّر عن قدرته على التمييز بين الذين دعاهم الرب للكهنوت، والذين دعوا أنفسهم للكهنوت. هذا التمييز هو حقاً خلافة الشعب للرسل. وعلينا أن نلاحظ كيف تعبِّر أوشية الراقدين عن ذلك، فهي تصف الكنيسة: "آباؤنا رؤساء الأساقفة – آباؤنا الأساقفة – آباؤنا القمامصة – آباؤنا القسوس – إخوتنا الشمامسة – آباؤنا الرهبان – آباؤنا العلمانيين"، فروح الأبوة عطية الآب السماوي لنا ليست قاصرة على الكهنة حسب رتبهم، التي نراها في الأوشية، وإنما توهب روح الأبوة للعلمانيين، لأنهم بكل حق الذين يميزون الآباء ويختارونهم للكنيسة. وكيف يميز الشعب آباءه وهو لا يملك روح الأبوة، إن تعبير "آباؤنا العلمانيون" هو تعبير يعلن الخلافة الرسولية في شكلها العام، وهو شكل أصيل جعل من العلمانيين أصل كل شيء عندنا، فهُم رَحِم الكنيسة الذي يلد للمسيح الرعاة والرعية.

وتظهر وحدة الكنيسة بشكل خاص عندما تصلي من أجل بابا الإسكندرية: "وجميع الأساقفة الأرثوذكسيين..."، هؤلاء يصلُّون من أجل الكنيسة، ولكن الشعب الواقف في الكنيسة يقول: "وصلواتنا نحن أيضاً عنهم أقبلها على مذبحك.."، فلا يصلي الكهنة من أجل الشعب فقط، بل الشعب أيضاً من أجل الكهنة. وهنا يصبح اعتراض

البروتستانتية على الكهنوت والكهنة لا وجود له؛ لأن الشعب لا يملك أن يصلي من أجل الوسيط، فالصلاة من أجل الوسيط تجعل الوساطة تنهار، وعلينا أن ندقق النظر في ذلك اللحن الجليل الذي يقال في حضور الأسقف "بي أهموت غار". إن الكلمات ليست تشريفاً أو تكريماً لمن يجلس على كرسي الأسقفية، فليس هذا هو جوهر التسبيح في الكنيسة، وإنما اللحن كله طلبة الشعب من أجل الأسقف: "نعمة ربنا يسوع المسيح تكون مع روحك الطاهرة يا سيدي الأب المكرم رئيس الكهنة...". وعندما يطلب الشعب نعمة ربنا يسوع المسيح لمن يقول بدوره للشعب في بداية قداس المؤمنين: "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد.."، فإن وحدة الكنيسة ليست معلَنة فقط، بل هي اشتراك الكل في الصلاة، كلٌ من أجل الآخر (راجع صلاة الاستعداد في القداس الغريغوري).

الصلوات السرية، نظرة تاريخية موجزة

لا نستطيع أن نشرح كل الصلوات السرية بشكل عام، وفي فصل واحد، ذلك أنها موزعة في القداس حسب التقسيمات المعروفة منذ العصور الأولى للمسيحية.

القداس أصلاً قسمان: قداس الموعوظين – وقداس المؤمنين. وفي القسم الأول وكما نرى من الاسم "قداس الموعوظين" الاهتمام بالتعليم وقراءة الكلمة الإلهية هو الأساس والجوهر. كان الموعوظ لا يحضر قداس المؤمنين، وكانت الكنيسة لا تسمح له بذلك؛ لأنه ليس مؤهلاً لقبول الأسرار الفائقة، وبشكل خاص لم يسكن فيه الروح القدس بعد. لهذا السبب الخاص كانت الصلوات الخاصة بالتقدمة تقال سراً. ولازال حتى هذا اليوم لا يدخل الكاهن بالحمل إلّا بعد القراءات في القداس البيزنطي، أي بعد خروج الموعوظين، وهو وضع قديم جداً. أمَّا عندنا، فإننا كنا نتبع نفس الطقس كما هو ظاهر في عدة مخطوطات قديمة، ولكن حدث التغيير في وقت اختفى فيه الموعوظون تماماً. ولكن ربما كتطور في المنهج التربوي كان الموعوظ يُسمح له بحضور دورة الحمل، ثم القراءات وكان يخرج بعد ذلك؛ حتى لا يكون الكلام عن الإفخارستيا فيما بعد مفاجأة بالنسبة له، بل يتدرج في الفهم إلى أن يستوعب السر بعد نواله المعمودية، ولذلك

حرصت الكنيسة على أن لا تُقال هذه الصلوات جهراً. ولعله من الواضح أن كل الذكصولوجيات في ختام الصلوات حتى أوشية الإنجيل لا تقال جهراً، وقد علَّق على هذا العالم الجليل بولس البوشي وقال: "إن الذكصولوجية تقال سراً من أجل إتاحة فرصة الهدوء والصمت في حضرة الثالوث حتى لا يكون التمجيد من الفم دون القلب"، ولذلك يصمت الكاهن ليس استعجالاً كما يظن غير الفاهمين، ولكن لأن الصلاة الصامتة أقوى بكثير، لا سيما إذا كانت حديثاً مباشراً عن مجد الله وعظمته. وتستمر الكنيسة في الصلوات السرية حتى في قداس المؤمنين؛ لأن هذه الصلوات هي فترة الهدوء وطلبة القلب التي تخص كل واحد.

ومن الضروري أن نرى توزيع الصلوات السرية في القداس الإلهي لكي ندرك المنهج الروحي خلف هذا التوزيع:

قداس الموعوظين	قداس المؤمنين
صلاة الاستعداد – سراً	صلاة الصلح
دورة الحمل (اختيار الحمل) سراً	الرب مع جميعكم
صلاة الشكر جهراً	قدوس قدوس
أوشية التقدمة — سراً	وضع لنا هذا السر العظيم
تحليل الخدام — سراً	استدعاء الروح القدس – سراً
البولس – جهراً، سر البولس – سراً	الأواشي
الكاثوليكون — جهراً، سر الكاثوليكون – سراً	المجمع

الأبركسيس – جهراً، سر الابركسيس – سراً	أولئك يارب
الانجيل – جهراً، سر الانجيل – سراً	
العظة – جهراً	اهدنا إلى ملكوتك
الأواشي الكبار – جهراً	مقدمة القسمة
	القسمة
	ابانا الذي في السموات
	صلاة للآب – سراً
	خضوع للآب – سراً
	تحليل للآب – سراً
	طلبة خاصة بالكاهن – سراً
	الرشومات
	التوزيع
السبب وجود موعوظين	السبب إتاحة فرصة هدوء مع صلوات خاصة

وهكذا يظهر لنا من الجدول السابق أن الجانب السري يغلب على قداس الموعوظين، بينما يختفي تماماً في قداس المؤمنين، ولا يظهر إلَّا في استدعاء الروح القدس، حيث تصلي الكنيسة في صمت، ثم الصلوات التي يطلب فيها الكاهن تطهير خطاياه

وجهالات الشعب بعد أبانا الذي في السموات، وهي صلوات على قدر كبير من الأهمية لأنها استعداد للتناول، وسوف ندرسها في حينها.

ولكن وكما نرى بكل وضوح، فإن الصلوات السرية، لها قيمة عقائدية كبرى، وهي إحدى ركائز القداس الإلهي؛ لأنها مواجهة حقيقية بين الكاهن والله، أو الشعب والله. وهي مواجهة لطلب الرحمة أو لحلول الروح القدس. وقد وضعت الكنيسة هذه الصلوات – بما فيها من عمق – لأن الصمت هو فرصة الفرد لأن يطلب لأجل نفسه أو لغيره إن شاء، ولأن الفترات التي تسودها الصلوات الجهرية هي فترات لا تجوز فيها الصلوات الفردية؛ لأن ما يقال إنما هو عام يخص الجماعة كلها، ولذلك يقول ميمر لمؤلف مجهول من القرن الثالث عشر: "لا تقف بعقل منشغل ولا ترتل المزامير أو أدعية الآباء ولا يجوز أن تقرأ الكتاب المقدس، بل أن تصلي مع الشعب كما يصلي؛ لأن ما تصليه الكنيسة، فهو الأمانة المشتركة (الإيمان المشترك) التي بها تتطهر مع الجماعة الواقفة، فلا تطلب الجماعة تطهيراً وأنت منشغل بتلاوة الكتاب المقدس أو ترتيل المزامير؛ لأن سفر الأعمال يقول: "رفعوا إلى الله صلاة بقلب واحد". ويقول ذهبي الفم: "والشعب فليصل بفمٍ واحدٍ، وقلبٍ واحدٍ".

الفصل الثاني

دورة الحمل

تمهيد

منذ البداية حدد القداس معنى دورة الحمل: "أرسل لي قوة من العلاء لكي أبتدئ وأهيئ، وأكمِّل خدمتك المقدسة". وهذه الخدمة التي وضعها المسيح له المجد، والتي يكملها الكاهن، يقول عنها القداس: "نقدم لك صعيدة البركة مجداً وعظم بهاء في قدسك... أعطِ يا رب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطاياي، وجهالات شعبك لأنها طاهرة مثل موهبة روحك القدوس بالمسيح يسوع ربنا".

إن أول ما نلمحه هو ازدواجية التقديم، ذلك أن الخدمة هي خدمة المسيح كما تؤكد أوشية التقدمة: "أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، سبقت أن تجعل ذاتك حَمَلاً بلا عيب عن حياة العالم"، فقد قدَّم المسيح ذاته، وهو وحده القربان الوحيد المقبول لدى الآب، لكن ماذا نقدِّم نحن؟ أو ما هو معنى التقدمة؟

إن تقديم الرب لذاته عنا هو العمل الإلهي الدائم بكل تأثيره على الأبدية نفسها، والذين يسألون عن معنى التقدمة والذبيحة هم في الواقع يسألون من خلال تصور واحد لمعنى موت المسيح، ولكي ندرك هذا علينا أن نستعرض الاتجاهات الرئيسية في فهم عمل المسيح الخلاصي عنا في اللاهوت المسيحي:

أولاً: الفداء بموت المسيح على الصليب حيث دفع الدين وأطلق الله سراح الإنسان، وصالح العدل والرحمة.

ثانيـاً: الفداء كان صراعاً بين المسيح والشيطان، انتصر فيه المسيح على الشيطان، وحقق فيه سحق قوة الشيطان.

ثالثاً: الفداء هو احتواء المسيح للموت وهو على الصليب. لقد تركه ينفذ فيه، ولكنه بسبب الإتحاد الأقنومي بين اللاهوت والناسوت، أفرز هذا الإتحاد حياة، وقهرت الحياة الموت، فقام الناسوت من الموت.

الاتجاه الأول

هو تصور قانوني لموت المسيح يقوم فيه الصليب بسد كل احتياجات العدل الإلهي. لكن الذين يقفون عند هذه النقطة، لا يعطون أي أهمية للقيامة، ويركزون كل نظرهم على موت المسيح، وهذا نوع من عدم اكتمال إدراكنا لموت المسيح على الصليب. لقد دفع الدين عنا، لكن هذا جانب واحد من الخلاص لا يجوز أن يطغى على كل شيء. ذلك أن الخلاص شقان، الشق أو الجانب الذي يخص الله، والجانب الذي يخص الإنسان، وليست المصالحة هي إزالة العوائق بين الله والإنسان، ولكن تجديد الإنسان نفسه لكي يتمكن من الاستفادة بالمصالحة.

والاتجاه الأول غالب في اللاهوت الغربي منذ أيام أنسلم[١]، فهو الذي جعل الصليب ذا تأثير على الله وعلى نظرة الله إلى الإنسان، وأهمل تماماً تأثير الصليب على الإنسان، وقد حصر اللاهوت الغربي هذه النظرة في كلمة واحدة هي التبرير بالإيمان، فقد

---

(١) يسمى القديس "Anslem"، كان رئيس أساقفة كانتربري في انجلترا، وشاع تعليمه في اللاهوت الغربي ويرفضه الغرب الآن. ويقابله في الشرق العالم ساويروس ابن المقفع الذي أذاع نفس التفسير تقريباً في الميمر المعروف باسم العبد المملوك، ولا زال التفسير السائد عندنا.

أرضى الابن مطالب العدل الإلهي، وجعل الرحمة من نصيب الإنسان.

مات المسيح على الصليب وأعطى الإنسان التبرير بالإيمان، وهذا هو أساس العلاقة مع الله عندما تغيَّرت نظرته للإنسان، وحسبه باراً بسبب موت المسيح. وطبعاً موت المسيح الواحد على الصليب يصبح هو الحدث الأكبر في الخلاص. وهو الحدث الذي يطغى على كل شيء آخر. لقد مات المسيح وتحقق كل شيء بموته. وهنا يأخذ هذا الاتجاه كلمة موت المسيح "مرة" (عبرانيين ٧: ٢٧ - ٢٨)، كمفتاح أساسي لتفسير الفداء.

ومع أن الرسول بولس استخدم هذا التعبير "مات مرةً واحدة" لإبراز الفرق بين ذبائح العهد القديم، وذبيحة العهد الجديد، دون أن يدخل في بحث طبيعة ذبيحة الصليب نفسها، إلَّا أن الذين يعشقون هذا الاتجاه يشددون على أن الرسول بولس في العبرانيين كان يعارض الإفخارستيا كذبيحة، وهذا القول باطل تماماً؛ لأن محور الرسالة إلى العبرانيين هي التعارض التام بين المسيحية واليهودية.

ولا ينتبه هذا الاتجاه إلى قيامة المسيح، ولا إلى علاقة عمل الروح القدس الذي سكبه المسيح الحي والذي يرتبط بالقيامة أكثر مما يرتبط بالموت (أعمال ٢: ٣٣). والمسيح الحي هو الذي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يوحنا ١١: ٥٢)، وهو يفعل ذلك كوسيط ورئيس كهنة تقوم وساطته على الحياة التي أنعم بها علينا.

ومن الناحية العقلية المحضة، لا يدرك أصحاب هذا الاتجاه التناقض الشديد الذي يقعون فيه. فالمسيح مات لكي يوفي مطالب العدل الإلهي، ولكن قضاء الموت على آدم كان قضاءً أبدياً، وبالتالي يجب أن يكون المسيح في قبضة الموت إلى الأبد. وإذا كان مات بديلاً عن آدم، فقد كان يجب أن يكون في قبضة الموت إلى الأبد. ولكن المسيح قام من الأموات في اليوم الثالث، والقيامة تؤكد أن الموت لا يمكن أن يسود على المسيح إلى الأبد.

ومـن جانـب آخـر يبـدو التفسـير القـانوني لمـوت المسـيح هـو أضـعف تفسـير للصليب، ذلك أن أصحاب هذا الاتجاه يقولون إن المسيح ابن الله، ولذلك كان يكفي أي مـدة للمـوت، فالذبيحـة الـتي قدَّمها المسيح ذبيحـة غـير محـدودة، وهنـا خطـورة هـذا التفسير، أي عدم المحدودية، هو أحد صفات اللاهوت الذي لا يموت، والذي لم يتذوق الموت. وعندما سندرس الاتجاه الثالث عند الآباء سوف نكتشف الخطأ الشديد الذي وقع فيه أصحاب هذه النظرية[١].

ويميل أصحاب هذه النظرية، إلى اعتبار أن الآب هو العدل، وهذا مما يزيد الأمر خطورة، ذلك أن وحدة جوهر الآب والابن والروح القدس، تجعل اختصاص أي أقنوم من الأقـانيم بصـفة إلهية معينـة لا يشـاركه فيهـا الأقنـومين الآخـرين، انحرافاً يؤدي إلى هرطقـة. ومن الخطر الشديد أن نظن أن الآب يمثل العدل والابن يمثل الرحمة، فهذا أشبه بالادعاء بوجود إلهين.

ومن الأخطار الأخرى الفادحة التي تجعل هذا الاتجاه بمثابة اقتلاع لكل أسرار الكنيسة، هو الكلام عن كمال الخلاص بموت المسيح على الصليب وتصوير الأمر على أن المسيح دفع الدين وحقق إطلاق سراح آدم أو الخطاة جميعاً. ولكـن الإنسـان الـذي وقـع في الـدين يمكـن أن يسـتدين بعـد ذلـك بمجـرد خروجـه مـن المحكمـة. وقـد حـاول أصحاب هذه النظرية سد هذه الثغرة بالكلام عن التقديس وهو عمل الروح القدس بعد التبرير. لكـن هـذا أيضـاً أشبه باختصـاص الآب بالعـدل والابـن بالرحمـة والـروح القـدس بالتقديس. وهذا انفصال لأقانيم الثالوث وضياع لوحدة العمل الذي قام به الآب والابن والروح القدس.

لكن الخطورة الحقة، هي عندما يحاول أصحاب هذا الاتجاه البحث عن العلاقة

---

(١) راجع فلسفة الغفران في المسيحية لعوض سمعان، حيث لا يعرف المؤلف سوى هذا التفسير الضعيف جداً والمستعار من أنسلم والذي لا وجود له في العهد الجديد نفسه.

بين الصليب والأسرار، لا سيما الإفخارستيا، فيجدون أن هذه العلاقة ضائعة وغير واضحة فإذا كان كل شيء قد أُكمل يوم الجمعة العظيمة، فلماذا الإفخارستيا؟ هذا التصور القانوني هو مأساة حقة؛ لأنه قضاءٌ على القيامة، وقضاءٌ على الأسرار، وجعل الصليب ترضية للآب فقط، وقصر عمل التقديس على الروح القدس، وكأن الرسول بولس عندما قال: "مع المسيح صلبت" (غلاطية ٢: ٢٠)، قد أخطأ خطأً جسيماً، أو كأننا نحن الذين نصلب مع المسيح ونموت وندفن ونقوم معه في المعمودية، (رومية ٦: ١ – ٨)، قد دخلنا منطقة لا يجوز لنا أن ندخلها.

إن القول بمصالحة العدل مع الرحمة يوم الجمعة العظيمة، ليس سوى نوع من التبسيط، قَصَدَ به أذكياء الناس تقريب قضية الصليب بشكل عقلي مقبول عند البسطاء، ولغرابة هذا التفسير؛ انعدم الكلام عن الصليب كتعبير عن محبة الله الآب (يوحنا ٣: ١٦)، ولا يجد الكلام عن محبة الآب أي مجال في آذان الناس التي أفسدها تذوق عمل الله من خلال التفسير القانوني.

الاتجاه الثاني

وهو أشبه برواية أو مسرحية تحدث أمام عيوننا ولا دخل لنا بها، أبطالها الله والمسيح والشيطان. ومن القائلين بهذه النظرية بكل أسف أوريجينوس وغريغوريوس النيسي وأوغسطينوس.

هؤلاء يتصورون الأمر على أن الشيطان بسبب سقوط الإنسان صارت له السيادة على الجنس البشري، واستطاع أن يكون بيده سلطان الموت. ولذلك جاء المسيح وأخفى لاهوته تماماً، وتنكَّر في قناع الجسد، وصُلب. وعلى الصليب جاء الشيطان لكي يقبض على روح المسيح الإنسانية ويأخذها إلى الجحيم، وهنا حدث الاعتداء على الابن، وصار الشيطان بذلك مديوناً للابن، فطلب الابن منه الفدية، ونزل إلى الجحيم وأطلق سراح الناس. ثم حبس الشيطان في الجحيم.

عنصرٌ واحدٌ رهيبٌ جداً دافع عنه أوريجينوس بالذات، وعنه أخذ الباقون بدون تمييز، وهو الكلام عن الفدية التي دفعها المسيح. يكتب أوريجينوس عن الفدية ويقول: "لقد اشتُرينا بثمن" كما يقول بولس، وبدون شك، لقد اشترينا بثمن من الذي كنا له عبيداً، وهو الذي حدد الثمن المطلوب لكي يطلق سراحنا، ولما كان الشيطان هو الذي أسرنا، لأننا أخذنا جانبه عندما أخطأنا، فقد سئل عن ثمن إطلاق سراحنا، وكان الثمن هو دم المسيح. وحتى الوقت الذي دفع فيه دم يسوع وهو ثمن باهظ جداً، وكان هو وحده الذي يكفي لخلاصنا، لم يكن لنا بالمرة فرصة الحرية" (تفسير رومية ٢: ١٣). وليست هذه فقرة وحيدة شاردة، بل يعود أوريجينوس ويقول في تفسير إنجيل متى: "لمن قدم حياته فديةً عن كثيرين، ليس لله، فهذا مستحيل. ألم تكن هذه الفدية للشيطان؟ لقد كان هو سيدنا حتى دُفعت له الفدية، أي روح يسوع، وقد خُدع الشيطان وظن أنه يمكن أن يكون سيداً لهذه الروح، ولم يُقَدِّر أنه كان يعجز عن أن يحتمل عذاب الاحتفاظ بها"[١] (مت ١٦: ٨).

بلا شك كان الشيطان يجهل حقيقة التجسد، ذلك أن الكبرياء لا يمكنها أن تقبل اتضاع الله. ولكن لماذا هذه المسرحية الفاشلة؟ والله هو الذي له السيادة المطلقة، وهو ضابط الكل. ومن زاوية أساسية، أليس هو المسئول عن خلاص الإنسان؟ وأليس هو الصالح محب البشر؟ وماذا يتعلم الإنسان عن هذه الخدعة؟ أصلاح الله ومحبته، أم قدرته على الخداع؟ لقد هاجم القديس غريغوريوس النزينزي هذا التفسير وكتب: "هل حقاً أن الشيطان أخذ الفدية؟ هذه فكرة شيطانية، أن يأخذ الشيطان فدية من الله" (مقالة ٤٥: ٢٢).

ومع أن هذا التفسير الغريب موجود عند النيسي (عظات الموعوظين: ٢٢، ٢٣،

---

(١) راجع مناقشة عن خلفية هذه الفكرة في الكتاب الممتاز:

Bigg, Christion Platonists of Alexandria, p255.

٢٤، ٢٦)، ثم روفينوس (شرح قانون الإيمان ١٥، ١٦)، وغريغوريوس الكبير (التعليم الأخلاقي ٣٣: ٧)، وأوغسطينوس (كتاب الثالوث ٤: ٣ - ١٣: ١٢ - ١٣: ١٤)، ويوحنا الدمشقي (الإيمان الأرثوذكسي ٣: ١ - ١٣: ١٨ - ٣: ٢٧)، إلَّا أنه غير معروف بالمرة عند الآباء العظام، وعلى رأسهم أثناسيوس الرسولي، كيرلس الكبير، باسيليوس، غريغوريوس النزينزي. هؤلاء اتبعوا طريقاً آخر هو التعليم السليم الذي لا أثر فيه لهذا الخيال البشري المغرم بالقصص.

وعلينا أن نؤكد أن كل القصص الشعبية المعروفة بالأناجيل الأبوكريفا، وهي ليست سوى قصص خرافية شوَّهت في الأوساط غير المتعلمة حقائق الإيمان، هي دون غيرها التي اختارت أن تفسر الفداء على هذا النحو الطريف (راجع انجيل برثلماوس القبطي - وسفر أعمال بيلاطس - إنجيل بطرس... الخ).

ومثل الاتجاه الأول، لا نرى في هذه المسرحية الإنسان، إلَّا متفرجاً، ولا نرى أي علاقة بين هذه المسرحية والأسرار، لا سيما المعمودية والإفخارستيا.

هذان الاتجاهان يقلعان بشدة أسرار الكنيسة من جذورها.

أمَّا الاتجاه الثالث

وهو التعليم السليم، فهو يؤكد أن موت المسيح، هو احتواءٌ لموت الإنسانية. هو لقاءٌ مع الموت في ناسوت المسيح نفسه. وهو صراعٌ يحدث في داخل المسيح وليس خارج المسيح، صراعٌ بين ما هو في الطبيعة الإنسانية، وما يمكن أن تعطيه الطبيعة الإلهية. صراع يدور على أرض الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح الواحد.

وهنا نرى قيمة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، وقيمة عقيدتنا في المسيح كإله متجسد، هذه الحقيقة الهامة في حد ذاتها هي ما يؤكدها القداس نفسه حينما ينتهي الكاهن من كل الصلوات، وقبل توزيع الذبيحة يكون الاعتراف الأخير، الذي يؤكد اتحاد

اللاهوت بالناسوت: "وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط..."، ولكنه يؤكد أبدية هذا الاتحاد: "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين".

وعلينا أن ندرك أن هذه الخاتمة هي في الواقع أساس، وسبب كل ما يحدث في الخدمة الإلهية.

ولكي نتأكد من أننا نُعَبِّر عن الحق ونشرح التعليم السليم الذي أخذناه من الآباء، علينا أن نُدرك – في اختصار شديد – ما جاء عن الفداء في كتاب "تجسد الكلمة"[١] لمعلم الكنيسة الجامعة القديس أثناسيوس الرسولي، يقول أثناسيوس عن موت المسيح وقيامته: "وإذ كان الجميع تحت قصاص فساد الموت، فقد بذل جسده للموت عوضاً عن الجميع وقدَّمه للآب، كل هذا فعله شفقةً منه علينا وذلك:

أولاً: لكي يبطل الناموس الذي كان يقضي بهلاك البشر إذ مات الكل فيه لأن سلطانه (ناموس الموت) قد أُكْمِلَ (أستُنْفِذَ أو أستُهْلِكَ) في جسد الرب ولا يعود ينشب أظفاره في البشر الذين ناب عنهم.

ثانياً: لكي يعيد البشر إلى عدم الفساد بعد أن عادوا إلى الفساد، ويحييهم من الموت بجسده وبنعمة القيامة وينقذهم من الموت كإنقاذ القش من النار" (تجسد الكلمة ٨: ٤ ترجمة القس مرقس داود).

وكما هو واضح أن الموت قد تم أو أُكمِل في جسد الرب، وهو ما عبَّرنا عنه بكلمة مناسبة جداً ليست غريبة على أثناسيوس، وهي "احتواء الموت". ولكن احتواء الموت يعني الانتصار عليه بالقيامة، ثم يعود أثناسيوس ويلمس القاعدة الأساسية في الخلاص، وهي الاتحاد الحقيقي للاهوت بالناسوت في المسيح: "وإذ رأى الكلمة أن

---

(١) يوجد سبب واحد فقط لاختيار كتاب "تجسد الكلمة"، فهو أكثر النصوص الآبائية المتوفرة باللغة العربية، وهو أيضاً شرح واضح لا يغلب عليه الجدل، بل الدخول المباشر في شرح العقيدة.

ناموس فساد البشرية لا يمكن إبطاله إلَّا بالموت كشرط لازم وأنه مستحيل أن يتحمل "الكلمة" الموت لأنه غير مائت ولأنه ابن الآب؛ لهذا أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت حتى باتحاده بالكلمة الذي هو فوق الكل يكون جديراً أن يموت نيابة عن الكل وحتى يبقى في عدم فساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه، وحتى يتحرر الجميع من الفساد فيما بعد بنعمة القيامة من الأموات. وإذ قدم للموت ذات الجسد الذي أخذه لنفسه كمحرقة وذبيحة خالية من كل شائبة، فقد رفع حكم الموت فوراً عن الجميع، الذين ناب عنهم؛ إذ قدم عوضاً عنهم جسداً مماثلاً لأجسادهم..." (تجسد الكلمة ٩: ١).

وبعدها يقول أثناسيوس: "إذ اتحد ابن الله عديم الفساد بالجميع بطبيعة مماثلة، فقد ألبس الجميع عدم الفساد، بطبيعة الحال، بوعد القيامة من الأموات. لأنه لم يعد ممكناً أن ينشب فساد الموت الفعلي أظفاره في البشر، وذلك بسبب (الكلمة) الذي جاء وحل بينهم بجسده الواحد" (تجسد الكلمة ٩: ٢).

اتحاد اللاهوت بالناسوت إذن هو قاعدة الفداء، هذا الاتحاد جعل الناسوت عديم الفساد. يقول أثناسيوس: "ولذلك كان لائقاً بطبيعة الحال أن يأخذ جسداً قابلاً للموت حتى إذا ما أباد الموت فيه (في جسده) نهائياً أمكن تجديد البشر" (تجسد الكلمة ١٣: ٩).

وقد شرح أثناسيوس الاتحاد بشكل آخر: "لم يكن ممكناً أن يُلبِس المائت عدم الموت إلَّا ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة" (تجسد الكلمة ٢٠: ١)، فقد حدث هذا التحول في الرب نفسه، أي أن الطبيعة التي لبسها لم تعد طبيعة مائتة "القضاء على الموت والفساد كلية بفضل اتحاد (الكلمة) بالجسد لأنه كان لابد من الموت، وكان لابد أن يتم الموت نيابةً عن الجميع لكي يوفي الدين المستحق على الجميع ولما كان مستحيلاً أن يموت (الكلمة) لأنه غير قابل للموت فقد أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى يمكن أن يقدمه كجسده نيابةً عن الجميع وحتى إذا ما تألم نيابةً عن الجميع باتحاده بالجسد، يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت" (تجسد الكلمة ٢٠: ٥ – ٦).

إذن، لقد داس الموت بالموت، كان جسده قابلاً للموت ولذلك مات، ولكن بسبب اتحاده (بالكلمة) كان من المستحيل أن يظل في قبضة الموت، ولذلك سَرَتْ الحياةُ إلى الجسد وأقامته إلى عدم فساد، أو بكلمات أثناسيوس "بَطُلَ الفساد وأبيد بنعمة القيامة" (تجسد الكلمة ٢١: ١).

ومرةً أخرى يعود أثناسيوس ليؤكد: "ماذا يمكن أن تكون نهاية الجسد إذا حل (الكلمة) فيه؟ لأنه لم يكن ممكناً إلَّا أن يموت، إذ هو جسد قابل للموت، ويُقَدَّم إلى الموت عن الجميع، ولأجل هذه الغاية صوره المخلص لنفسه. على أنه كان مستحيلاً أن يبقى مائتاً إذ صار هيكلاً للحياة. لهذا فإذا مات كجسد مائتٍ، عاد إلى الحياة بفضل الحياة التي فيه" (تجسد الكلمة ٣١: ٤).

لقد كان من الضروري أن نقتبس هذه النصوص، لا لكي ينتاب القارئ الشعور بالملل، وإنما لكي يتعمق في الفكر والشعور، ولكي ندرك أن القداس مستحيل تماماً بدون إرساء هذه القاعدة؛ لأن المسيح حاضرٌ بيننا يقدِّم لنا حياة عدم الفساد، وينقل إلينا الروح القدس كل هبات الصليب والقيامة. ولذلك من الخطر الشديد حتى على الحياة الروحية نفسها أن نكتفي بالجانب الأول وهو إرضاء مطالب العدل الإلهي، ذلك أن هذه النظرة هي في الواقع نصف الخلاص إذا جاز هذا التعبير.

ولكن المسيح الحي معنا "ها أنا معكم كل الأيام" لا لكي يُذبَح من جديد، فهذا مستحيل عملياً؛ لأن الرب بعد القيامة لم يعد خاضعاً للألم والموت، بل صار رئيس الحياة (أعمال ٣: ١٥)، الذي لا يسود عليه الموت (رومية ٦: ٤). ولكن علينا أن نفهم هذه الحقيقة، وهي أن الرب الحاضر معنا في القداس، والذي نحن ضيوفه في هذه الوليمة السمائية، هو المسيح الذي وُلِدَ واعتمد وصُلِبَ وقام، إنه بنفسه معنا يحمل إلينا – كرأس الإنسانية الجديد أو آدم الثاني – الحياة لا الموت (١ كورنثوس ١٥: ٤٧)، وكما انتقلت إلينا اللعنة والموت، هكذا تنتقل إلينا الحياة والبركة. نحن لا نقف عند الصليب أو القيامة، وإنما معنا المسيح كله ينقل إلينا من ذاته الحياة.

ماذا نقدم؟ ولماذا الذبيحة؟

لقد تأكدنا أننا لا نذبح المسيح، فهو غير قابل للذبح لا سيما بعد أن دخل مجده (لوقا ٢٤: ٢٦).

وعلينا الآن بشكلٍ واضح، أن ندرك أن الذبيحة التي أمامنا ليست ذبيحة دموية، إنها ليست تكراراً للصليب، ولا هي امتداد للصليب، وإنما هي المسيح الحاضر بيننا. ولذلك تستخدم الصلوات الطقسية عدة كلمات هامة تشرح معنى الذبيحة.

يصف القداس الذبيحةَ بما يلي: "ليس دم الناموس حولها .. أمَّا الخروف (الحمل) فَروحيٌ وأمَّا السكين فَنطقيةٌ (عقلية) وغير جسدية (مادية)". (صلاة صلح ليوحنا مثلث الطوبى).

"هذه الصعيدة المقدسة الناطقة (العاقلة) الروحانية غير الدموية.. هذه الذبيحة العقلية والحقيقية غير الدموية" (قسمة للآب سنوي رقم ١٦).

هذه التعبيرات على قدر كبير من الأهمية؛ لأن تعبير "غير الدموية" ليس فقط تعبيراً مضاداً لذبائح العهد القديم الدموية، بل هو تأكيد على أن المسيح لا يُذبح مطلقاً على المذبح. وهذا ظاهر جداً رغم ادعاءات أعداء الأرثوذكسية الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة قراءة صلوات الكنيسة القبطية. ومما يؤكد أننا لا نخطئ في تفسير كلمة "غير الدموية" أن الصلوات تستخدم عادةً تعبير "الناطقة"، وهي كلمة يونانية الأصل دخلت اللغة القبطية – راجع النص القبطي ⲛ̀ⲗⲟⲅⲓⲕⲟⲛ وتعني "العاقلة". وعند القدماء الناطق عاقل ولا فرق، ولذلك عندما تُرجم الخولاجي في القرن العاشر إلى العربية، وأعاد أولاد العسال ترجمته إلى العربية في القرن الثالث عشر استخدموا أحياناً كلمة "العقلية"، بدلاً من الناطقة. وقيمة هذه الكلمة هي أنها تؤكد انسكاب حياة المسيح في الإفخارستيا، فهي ليست ذبيحة دموية، بل هي ذبيحة عقلية قائمة على الحياة التي تُوهب فيها.

ولعل أفضل شرح لمعنى كلمة "غير الدموية والناطقة"، يأتي من نص قسمة القديس كيرلس السكندري حيث يظهر معنى التناول من الذبيحة: "عند إصعاد الذبيحة على مذبحك تضمحل الخطية من أعضائنا بنعمتك، عند نزول مجدك على أسرارك، تُرفع عقولنا لمشاهدة جلالك". هذا هو العمل العقلي – أي غير المادي أو الروحي، أي غير المنظور. وهذا التفسير تحكمه المعاني الواضحة لكلمات الصلاة: "عند استحالة الخبز والخمر إلى جسدك ودمك، تتحول نفوسنا إلى مشاركة مجدك وتتحد نفوسنا بألوهيتك ... من كأس دمك نشرب، أعطنا مذاقةً روحية لكي نتذوق حلاوة أسرارك المحيية ... وأنت تحل فينا بالمحبة ... لكي بذوق لحمك نُؤهَّل لذوق نعمتك، وبشرب دمك نُؤهَّل لحلاوة محبتك. وهبتَ لنا أن نأكل لحمك علانيةً، أهِّلنا للاتحاد بك خفية ...". وهكذا، الأكل والشرب هما تذوق الأسرار بشكلٍ روحيٍ خفيٍ، وليس هذا طبعاً نفياً لوجود لحم المسيح ودمه على المذبح، ولكنه تأكيدٌ على أن هذا هو شركة الحياة في المسيح. والفرق الواضح بين البروتستانتية على اختلاف مذاهبها، وبين الأرثوذكسية، هو اليقين في أن ما على المذبح هو فعلاً وحقاً جسد ودم عمانوئيل وليس مجرد رمز أو علامة أو ... الخ. فكل هذه الكلمات مرفوضة؛ لأنها تحاول أن تقلل من حضور المسيح على المذبح، وتحاول أيضاً أن تستغل كلمة "الروحي" للقضاء على السر المقدس. ولكننا ندرك من كلمات القسمة لأبينا القديس كيرلس أن حضور المسيح في الإفخارستيا، ليس حضوراً روحياً بالمعنى البروتستانتي، بل حضورٌ حقيقيٌ سريٌ بالمعنى الأرثوذكسي، وأنه حيث يوجد المسيح، توجد عطايا الخلاص والحياة الأبدية، وأنه لا مجال مطلقاً لفصل ما هو روحاني عما هو جسدي.

المسيح كله، ليس جسده بدون روحه ولا روحه بدون جسده، بل حسب كلمات القداس الغريغوري: "مبارك أنت أيها المسيح إلهنا ضابط الكل مخلص كنيستك أيها الكلمة المتجسد الذي من قِبَل تجسدك غير المدرك أعددت لنا خبزاً سمائياً جسدك المقدس ... مزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية التي هي جنبك الإلهي غير الدنس ...". (صلاة القسمة).

فالتجسد هو أساس الاحتفال بالسر المجيد، والمسيح الحاضر بيننا وعندنا على المذبح هو الذي جعل جسده خبزاً سمائياً يُؤكَل.. وهو الذي فَتَحَ جنبه ليمزج لنا منها كأساً ... المسيح كله.

فالمسيح الحاضر هو الذي يقول عنه الكاهن في صلاة الحجاب في القداس الكيرلسي: "لكي أُكمِّل هذا القربان الموضوع الذي هو سر الأسرار كلها بصحبة وشركة مسيحك"، وهذا يؤكد لنا معنى الكلمات التي تقال في الصلوات مثل: "الطعام غير المائت السمائي". كل هذه التعبيرات تنقل السر المجيد إلى درجة من الوضوح الفائق، فهو تذوق حقيقي للمسيح وهو تذوق للحياة التي قدَّمها المسيح.

إذا تأكدنا من هذا المعنى، أصبح الكلام عن الذبيحة سهلاً ميسوراً، فالمسيح يسوع ربنا حاضر معنا: "هوذا كائنٌ معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله".

ولكن علينا أن نفهم، لماذا تقدم القرابين؟ والجواب واضح: إنه عهدٌ بيننا وبين الرب "هذا اصنعوه لذكري"، فقد طلب منا الرب أن نصنع هذا. ولذلك، فإن تقديم القرابين معناه بكل تأكيد رغبتنا في الحصول على ما وعد به الرب. ويعبِّر الأنبا بولس البوشي عن هذا بقوله: "إن تقدمة الصعيدة الغافرة على مذبح الغفران هو طلب المغفرة من ذاك الذي قال: "يُعطى لمغفرة الخطايا"، فالكنيسة تطلب وفي طلبها تسعى للاتحاد بالمسيح. ويعبِّر القداس الغريغوري عن هذا بشكل واضح: "أعطيتني إصعاد جسدك بخبزٍ وخمرٍ".

والكلمة اليونانية القبطية "إصعاد" يختفي خلفها فعل يوناني يعني "يحصل على – يرفع – يحمل – to load"، وهو فعلٌ معروف في الترجمة السبعينية للعهد القديم ويعني بشكل واضح رفع القلب إلى الله في الصلاة (مراثي أرميا ٣: ٤١). واستُخدِمَ في العهد الجديد بعدة معان؛ فهو أصلاً يعني "ارتفع" (أعمال ١٠: ١٦). ويعني أيضاً "يأخذ" (أعمال ٢٣: ٣١، ٢ تيموثاوس ٤: ١١)، بل يستخدمه الرسول بولس بمعنى أن يلبس

الإنسان درع الحرب الروحية (أفسس ٦: ١٣)، ومما لا شك فيه أن استعمال الفعل هنا هو استعمال مجازي.

ويُستخدم الفعل كما هو واضح من معناه لوصف صعود المسيح بعد قيامته (أعمال ١: ٣ - مرقس ١٦: ٩)، وهو أيضاً يعني taking up و receiving وفي ضوء هذه المعاني المتعددة يمكننا أن نرى أن المسيح الذي صعد إلى السماء، هو الذي أعطانا خدمة هذا السر العظيم: أن نرفع، ونُصعِدَ جسده، بواسطة الخبز والخمر، والمعنى الواضح هو أننا نحن الذين نرتفع ونصعد عندما نقدِّم، ذلك أن صيغة القداس لم تستخدم الفعل، بل "المصدر". وطبعاً الأسرار هنا لا تتم على الأرض، ولا في الزمان وحسب مقاييس العقل وإدراكه؛ هي تتم في السماء وفي الدهر الآخر الجديد، وحسب عمل الروح القدس، وهذا ما يمهِّد له القداس بشكل واضح: "الذي أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية". وطبعاً، فإن الربط بين معرفة الروح القدس وظهور هذا السر العظيم الذي للحياة هو كلام مزدوج يحمل الإشارة إلى التجسد وإلى الإفخارستيا بشكل لا يمكن إنكاره، ويعتمد على نص الرسول بولس: "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١ تيموثاوس ٣: ١٦).

ويعكس القداس الباسيلي ذات الكلمات: "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى"، وعبارات أخرى كثيرة تجعلنا نقف في دهشةٍ واستغراب من هذا السر العظيم الذي ظهر والذي نأخذه أو نرتفع إليه أو نمسك به عندما نصعد إلى ذات السماء، حيث يسوع رب المجد.

ولعل كل مَن يدرس القداسات شرقاً وغرباً يعرف أن الكلمات الخاصة بالسر المجيد تأتي بعد الاعتراف بالتجسد والصليب والقيامة والصعود والمجيء الثاني للدينونة. وهذا الترتيب المحكَم، دقيق جداً وليس مجرد صدفة، بل اتفاق معرفة دقيقة بالسر المجيد؛ لأن ربنا يسوع المسيح الذي أعطانا حياته، قد أظهر عطاء حياته، في كل مراحل وجوده على الأرض من بيت لحم حتى الصعود، وهو لا يتوقف عن العطاء بعد صعوده إلى

السماوات، بل هو الذي أدخلنا إلى خدمة السماويات عينها، وأعطانا أن ننال، ليس قوة الخلاص كما أسَّسها أثناء حياته على الأرض، بل معاينة المصير النهائي في السماء التي أصعدنا إليها. ولعل القداس الغريغوري وهو يتكلم عن إصعاد الإنسانية: "أصعدت باكورتي إلى السماء"، يؤكد بعد ذلك أننا ننال هنا خيرات الدهر الآتي. وما تحرص أن تسجله بوضوح صلاة القسمة للقديس كيرلس هو علاقة التناول بالاتحاد بالآب وبالروح القدس، حيث تقول: "وهبت لنا أن نشرب كأس دمك ظاهراً لكي نؤهَّل لأن نمتزج بطهارتك سراً، وكما أنك واحدٌ في أبيك وروحك القدوس نتحد نحن بك، وأنت فينا، ويكمُل قولك، ويكون الجميع واحداً فينا". وكما أننا نتذوق بشكل ظاهر الكأس، ننال طهارة الابن الوحيد، ونَعْبُر بطهارته من انقسام الخطية إلى الوحدة مع الآب والروح القدس، وبذلك يصبح خطأً أن نقع في فخ التعبير الذي يحصر عمل ذبيحة الإفخارستيا في الصليب وحده، وسوف نرى كيف فتح هذا التعليم الباب أمام الشك في الإفخارستيا وقذف الكنيسة إلى أعماقِ محيطٍ من الجدل الذي لا فائدة منه[١].

وعلينا – لمجرد التأمل السريع – أن نستعرض الفرق بين ذبيحة الصليب، وذبيحة القداس كما يلخصها كتاب الأسرار الكنسية المجلد الثاني للأسقف "*Joseph Pohle*" أستاذ اللاهوت بالجامعة الكاثوليكية في أمريكا – الطبعة الثالثة ١٩١٩م ص ١٣٣٩. هذه الفروق لا وجود لها بالمرة في لاهوت الكنيسة الشرقية.

ويمكننا أن نرى من هذه المقارنة، أنها مقارنة مصطنعة غير حقيقية:

أ– في المقام الأول ذبيحة الصليب، ذبيحة عامة، بينما ذبيحة القداس نسبية.

---

(١) من المعروف تاريخياً أن مجمع ترنت في القرن السادس عشر وفي الجلسة ٢٢: ١ المعروفة باسم " Isigitur Deus.." قد حدد بشكل قاطع ولأول مرة أن الافخارستيا هي ذبيحة الصليب، وبهذا الشكل القاطع الذي لا يعرفه آباء الكنيسة يقول هذا المجمع: "لكي يترك لعروسه المحبوبة الكنيسة الذبيحة المنظورة.. حيث أن الذبيحة الدموية التي تمت على الصليب تصبح حاضرة وتبقى الذكرى إلى نهاية العالم" راجع التعليم الروماني P/IIo.4,9u68.

ب– ذبيحة الصليب قُدِّمت مرة واحدة فقط، بينما ذبيحة القداس تعاد حتى مجيء الرب.

ج– ذبيحة الصليب أتمت فداء البشر، بينما ذبيحة القداس تعطي ثمار ذبيحة الصليب للمؤمنين فقط.

د– على الصليب كان المسيح وحده هو الكاهن، بينما في القداس يستخدم كهنةً وخداماً من البشر.

هـ– على الصليب قدَّم المسيح نفسه بشكلٍ ظاهرٍ، وفي القداس يقدِّم نفسه تحت شكل الخبز والخمر.

وهذه المقارنة تقود بشكل واضح إلى التعليم بوجود مناسبتين قدَّم المسيح فيهما نفسه، أو إلى ذبيحتين. وهذه الروح اللاتينية التي تجاهد الكنيسة الكاثوليكية للخلاص منها الآن، والعودة إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، هي التي تجعلنا على قدر كبير من الحذر في استعمال المصطلحات اللاهوتية، وفي شرح القداس بعيداً عن كل تأثيرات الفكر الغربي العقيم، يكفي أن نستعيد كلمات القداس الغريغوري التي تعلن بوضوح وجود المسيح بيننا: "يا الذي قدَّس في ذلك الزمان الآن قدِّس.. يا الذي أعطَى الآن أيضاً أعطنا"، فالفعل واحد، والكاهن واحد، والذبيحة واحدة؛ لأن الذي بيننا هو صاحب الذبيحة، وهو الذي يعطي كما أعطى جسده ودمه أي حياته التي تمتد من بيت لحم إلى جبل الزيتون، والتي تفتح لنا حضن الآب نفسه. ويكفي أن نسمع كلمات القداس الغريغوري: "أيها الإله وحيد الجنس الذي في حضن أبيه يا رب بارك". فنحن لا نقف عند الجلجثة ولا عند القبر، نحن لا نقف عند مرحلة معينة من حياة المسيح، بل كل المراحل حاضرة بما فيها السماء. ولنا أن نسأل: لماذا تسبق تسبحة الشاروبيم الكلام عن السر المجيد، وكيف يجوز لنا أن نقول: "نصرخ بما يرسله أولئك بأصوات لا تسكت ..."؟ إن الكلام عن الرُّتب الملائكية هو تأكيدٌ على حقيقة حضورنا في السماء، ولذلك نحن لا نعود إلى الوراء، إلى الصليب، بل نحن بكل يقين نبدأ من الخليقة إلى السقوط إلى

التجسد إلى الصعود إلى المجيء الثاني، ثم دخولنا السماء.

ونحن في السماء، نسبِّح، ونمجِّد، ونحتفل، بما أعطاه لنا الله، وهوذا الآن المسيحُ حاضرٌ معنا: "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا، حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله. الجالس على كرسي مجده، الذي يقف أمامه جميع الطغمات السمائية" (القسمة). أمَّا بقية الكلام، فهو – بشكلٍ واضحٍ – المنظر الموجود في سفر الرؤيا، ذلك أن المسيح هو الكاهن الحاضر دائماً الذي أدخلنا إلى حضرة الآب. وفي القداس لا نراه مذبوحاً فقط، بل ممجداً أيضاً، هو الحمل الذي يجلس على كرسيه أو عرشه وقائمٌ كأنه مذبوح.

شذرة موجزة من الآباء:

لكي نتأكد من صحة وسلامة ما نقول، ولكي ندرك أننا نتبع طريق الآباء، علينا أن ندرس هذه النصوص الموجزة حيث أن المجال لا يسمح بدراسة الإفخارستيا في كتابات آباء الكنيسة الجامعة.

إن أول ما يسترعي الانتباه هو تشديد الآباء على الذبيحة الواحدة، وهو جانبٌ هام في فهم الذبيحة؛ لأن الذبيحة الواحدة هي نقيضٌ كاملٌ للذبائح المتعددة في اليهودية. ولكن الذبيحة الواحدة هي أيضاً المسيح الذي لا يتغيَّر، والذي هو في الواقع يحمل في ذاته الميلاد والصليب والقيامة ورئاسة الكهنوت وجلوسه عن يمين الآب في الأعالي في المجد.

يقول غريغوريوس الثيئولوغوس:

> "إن اليهود يمنعوننا من مذابحهم، وحسناً يفعلون؛ لأنني أعرف مذبحاً آخر. كانت الذبائح القديمة التي تقدَّم على مذابح اليهود رمزاً له، ولكن هذا المذبح الآخر الجديد لا تقدَّم عليه ثيران، ولم يُنحت بواسطة المعاول أو سُمِعَ

صوت الحديد وهو يقطعه، بل الكل يتم في العقل والصعود إليه يتم بواسطة التأمل.

عند هذا المذبح سأقف لكي أخدم وعليه سوف أقرب الذبيحة الناطقة المقبولة لأن الحقيقة تفوق الرمز ...

وعندما نشترك في الفصح، فنحن لا نشترك في الفصح القديم حسب رموز الناموس، بل علينا أن نرفع أيدينا ليس إلى أورشليم الأرضية، بل أورشليم السمائية، التي لا تقدر جيوش الأعداء أن تطأها لأنها ممجدة من الملائكة. وعلينا أن نقدِّم ليس ذبائح من الحملان والغنم والبقر التي بلا حياة وبلا فكر، بل علينا أن نقدم ذبيحة التسبيح لله على المذبح السمائي.

علينا أن نذبح أنفسنا كل يوم، وأن نكون ذبيحة مثل المسيح .. وبعقل مستعد لنصعد معه على الصليب لكي نحفظ عيد القيامة..

إذ هو نزل إلى الجحيم ننزل معه، وبهذا نتعلم معنى أسرار المسيح، وإذ هو صعد إلى السماء نصعد معه" (المقالة ٢٦: ١٦ – مقالة ٤٤ / ٢٣ – ٢٥).

فالحياة التي تلازمنا هي حياة المسيح، وحيثما المسيح توجد الجماعة ومعها كل ما يخص المسيح، حتى النزول إلى الهاوية، هو اختبارٌ لسر المسيح الذي نتحد به.

يقول ذهبي الفم في شرحه للرسالة إلى العبرانيين:

"ماذا نفهم؟ ألا نقدم نحن القربان كل يوم؟ حقاً إننا نقدم لأننا بهذا نصنع ذكرى موته ولكن الذبيحة واحدة وليست عدة ذبائح؛ لأنها قُدِّمت مرةً واحدةً مثل تلك التي كانت تقدَّم مرة واحدة، وتدخل إلى قدس الأقداس. كانت هذه الذبيحة اليهودية رمزاً لذبيحة المسيح..

إننا نقدم ذات الشخص وليس مثل اليهود اليوم عجلاً وغداً ثوراً، بل دائماً نفس الذبيحة، ولذلك فالذبيحة واحدة. وإذا وَضُحَ هذا البرهان، ألا يقودنا إلى سؤال: إن الذبيحة تقدَّم في عدة أماكن، فهل معنى ذلك أنه يوجد عدة مسحاء Christs؟ بكل تأكيد لا.

المسيح في كل مكان هو المسيح الواحد، هو واحد كامل هنا وفي أي مكان، وحيثما يُقَدَّم، هو هو نفسه جسد واحد وليس عدة أجساد، وهكذا الذبيحة واحدة.

ورئيس الكهنة يسوع هو الذي قدَّم الذبيحة الواحدة التي تطهِّرنا. وهكذا نحن نقدم الآن ما قدمه هو والذي لا يمكن أن يفنى. هذا تذكار لما سبق وصنعه لأنه قال: "اصنعوا هذا لذكري"، ولذلك نحن لا نقدم ذبيحة غير تلك التي تُقَدَّم كما كان رئيس الكهنة في القديم يفعل، بل نقدم نفس الذبيحة". (عظة ١٧: ٣ على الرسالة إلى العبرانيين).

ويؤكد ذهبي الفم مرةً أخرى:

"رئيس كهنتنا في السماء في مجد عظيم يفوق ما كان لدى اليهود، وليس فقط في نوع الكهنوت، بل في المكان الذي يمارس فيه الكهنوت، وفي المسكن، والشخص نفسه.

إن ذبيحتنا في السماء، وكاهننا في السماء، ولذلك فالذبيحة التي تقدَّم على المذبح ليست من الغنم أو البقر أو الدم أو الشحم، فكل هذه الأمور عبرت، وانتهت وحلت محلها الليتورجية العقلية".

ما هي هذه الليتورجية العقلية؟

هي الذبيحة التي تقدَّم إلى الله بواسطة النفس ومن خلال الروح

القدس لأنه مكتوب: "الله روح" (يوحنا ٤: ٢٤).

ها أنت تسمع أنه يجلس عن يمين العظمة في الأعالي، فلا تفترض أن رئاسة كهنوته مجرد لقب. فهو يجلس عن يمين العظمة في الأعالي وهذا تأكيد على ألوهيته، أمَّا رئاسة كهنوته فهي تأكيد على اتضاعه ومحبته للبشر واهتمامه بنا.

وهذا ما يعلنه الرسول بشكل ظاهر مؤكداً اللاهوت ورئاسة الكهنوت معاً حتى لا يغفل أحدهما، وقد وصل الرسول إلى النقطة التي يجيب فيها على السؤال الهام: إذا كان المسيح رئيس كهنة، فلماذا مات؟ وما هو مؤكد قبل أي شيء آخر أنه لا يوجد رئيس كهنة بدون ذبيحة، ولذلك كان له أيضاً ذبيحة، ولأنه قال إنه في السماء فقد أكد بشكل ظاهر أنه فعلاً كاهن بالمقارنة بملكي صادق بالقَسَم والذبيحة نفسها.

ولكن ما هي السماويات التي يتكلم عنها الرسول؟

إنها الأمور الروحية التي توهَب للكنيسة، ورغم أن هذه الأمور تتم ويحتفل بها على الأرض، إلَّا أنها أمور سمائية.

وعندما نرى الرب ذبيحةً وقرباناً مذبوحاً، وعندما يحمل الروح إلينا هذا، فالكل يتم حيث يجلس المسيح عن يمين الآب ... أي هنا حيث يولد الأولاد بالحميم ويصبحون مواطني السماء لأن مدينتنا هي السماء وحينما نُصبح غرباء بالنسبة للأمور الأرضية، فكيف لا يُعتبر هذا سماءً؟ أليست التسابيح سمائية؟ أليس حقاً أن التسابيح التي نرتلها هي بذاتها التي ترتلها فرق الملائكة التي نشترك معهم في التسابيح ... أليس المذبح سمائياً ؟ وكيف؟

لا يوجد عليه شيء مادي. كل التقدمات التي توضع عليه روحية،

والذبيحة لا تتحول إلى دخان ورماد يتبدد مثل ذبائح العهد القديم، بل تصبح في بهاء ومجد لا يقارَن بما كان يتم في العهد القديم. وكيف يمكن أن تكون الطقوس شيئاً آخر غير السماء، لا سيما عندما يسمع الذين يخدمون هذه الخدمة ما قيل: "ما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماء" (يوحنا ٢٠: ٢٣). وعندما يكون عندنا مفاتيح السماء، فكيف لا يكون كل ما لدينا سمائياً" (عظة ١٤: ١ – ٢ على الرسالة إلى العبرانيين).

وفي مناسبة أخرى يقول ذهبي الفم:

"عندما ترى الرب وقد ذُبِحَ على المائدة قرباناً، والكاهن يقف عند الذبيحة يصلي وكل الأشياء قد صبغها الدم الكريم، فهل تظن أنك لا تزال تقف حيث يقف البشر على الأرض؟ لا، أنت قد نُقِلتَ إلى السماء لذلك أطرح كل فكر أرضي من قلبك ... لكي ترى هذه الأمور السمائية" (كتاب الكهنوت: ٤).

ويؤكد الآباء أيضاً أننا لا نتحد بالمسيح الذي عاش في أزمنة سابقة، بل بالرب الحي الحال في الكنيسة؛ لأن الإفخارستيا ليست عودة إلى الوراء، بل شركة في الحاضر:

"الذبيحة غير الدموية التي بها نشترك في المسيح في آلامه ولاهوته" (غريغوريوس الثيؤلوغوس مقاله ٤: ٥٢).

وتعكس هذه اللغة التعبيرات التي رأيناها في القداسات، وسوف نعود إلى هذه النقطة عندما نناقش: "اصنعوا هذا لذكري".

وحقيقة وحدة الذبيحة مرتبطة، بحقيقة أنها ليست دموية، وهذه بدورها مرتبطة، بأننا لسنا منفصلين تاريخياً، أو زمانياً عن المسيح الحي، بل نحن نعيش "زمان المائدة المقدسة السرية" حسب تعبير القديس كيرلس السكندري (الرسالة الفصحية ٢٣ –

٣١). وهو الزمان الذي يهب فيه حياته للكنيسة في الإفخارستيا. ووحدة ذبيحة المسيح، يؤكد عنصرها الروحي، الذي فيه تنسكب حياة الكنيسة.

الفصل الثالث

سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة

عندما يحمل الكاهن الخبز في اللفافة، ويعطي "المجد والإكرام للآب والابن والروح القدس"، فهو يعلن بشكلٍ واضح أن بداية الخدمة تهدف إلى السلام وبنيان الكنيسة الواحدة"... وكلمة "بنيان" من الكلمات الأساسية التي يفتتح بها الكاهن أيضاً القداس الغريغوري: "أُقرِّبُ لك هذه الذبيحة الناطقة غير الدموية ... صفحاً لخطاياي وسيئاتي.. وبنياناً لشعبك أجمع" (صلاة الحجاب).

وحقاً إن الكاهن يسمع وصية الرسول وهو يقول: "هكذا أنتم أيضاً إذ أنكم غيورون للمواهب الروحية أطلبوا لأجل بنيان الكنيسة" (١ كورنثوس ١٤: ١٢). ومن الواضح أن كلمة "بنيان" وردت أكثر من مرة في (كورنثوس الأولى ص ١٤)، وأكثر من أي موضع آخر في العهد الجديد كله (١٤: ٣، ٥، ١٢، ٢٦)؛ لأن الموضوع هو المواهب الروحية وهو أكثر الموضوعات المثيرة للجدل والانقسام.

وهكذا تبدأ الخدمة المقدسة بطلبٍ واضحٍ من الثالوث الأقدس أن تكون هذه الخدمة، بنياناً لكنيسة الله الواحدة. ومَن يقرأ الطِّلبات في القداسات الثلاثة يدرك ما هو المقصود من هذه الكلمة المهجورة التي غالباً لا تستخدم في أحاديثنا اليومية، ولا ندرك أنها أحد أهداف الله الواضحة جداً. والكلمة أصلاً مشتقة من كلمة أخرى هي كلمة بيت "οικοσ"، ومنها جاء الفعل اليوناني يبني "οικοδομεω". إن البناء هو أصلاً

بناء البيت، والبيت هو هيكل الله (مرقس ٢: ٢٦)، ويسمى بيت الله (عبرانيين ٣: ١ – ٦)، ولكن كما هو واضح، فإن البيت هو الجماعة المسيحية – أهل بيت الله (١ بطرس ٢: ٣)، وهو البناء الروحي الذي يشيَّد من الحجارة الحية التي المسيح هو رأسها أو حجر الزاوية الحي (١ بطرس ٢: ٤ – راجع أيضاً أفسس ٢: ٣٢)، ومن الواضح أن الرسول بطرس عندما يتحدث عن البناء الروحي، فهو يصف بيت الله المصنوع من الحجارة الحية الذي فيه الكهنوت المقدس والذبيحة المقبولة (١ بطرس ٢: ٤).

إن المسيح هو الذي وعد ببناء الكنيسة على صخرة الاعتراف به ابناً لله (متى ١٦: ١٨)، ووعد أيضاً أن يبني الهيكل غير المصنوع بيدٍ بشرية (مرقس ١٤: ٥٨)، وهوذا الوعد يتصدر بداية الخدمة الإلهية، إننا نحن الذين اجتمعنا في هذه الكنيسة نسعى إلى بنيان الكنيسة أولاً بكلمة التعليم (أعمال ٢٠: ٣٢)، وثانياً بالاشتراك في الذبيحة؛ لأننا نصبح فعلاً جسد المسيح عندما نتحد به، ونصبح هيكله، ويصبح هو فينا، ونحن فيه. وما نقوله في بداية القداس هو ما نعلن أننا سوف نفعله بعد ذلك، لا سيما عند اكتمال السر المجيد: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع قديسيك". ونحن لسنا فقط جسداً واحداً مع بعضنا، بل كما نقول قبل التناول: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من جسدك المقدس... لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً معك" (القداس الباسيلي).

الجسد يُبنَى ولا جدال على حقيقة أساسية، وهي تلك التي تذكرها أوشية الاجتماعات: "ولعبيدك الآتين بعدنا إلى الأبد". فالجسد ينمو عبر العصور؛ ولم تعرف الكنيسة في تاريخها الطويل مَن يعمل لعصره أو يجاهد من أجل زمانه فقط، بل دائماً مَن يعمل للآخرين. ولذلك عندما يطلب الرسول بولس أن يعمل الكل للبنيان يقول وهو يلمس جرح الإنسانية الأصلي: "فليرضِ كل واحد منا قريبه للخير لأجل البنيان، لأن المسيح لم يرضِ نفسه، بل كما هو مكتوب تعييرات معييرك وقعت علي" (رومية ١٥: ٢ – ٣). والسلطان الرسولي هو لبناء الكنيسة: "فإني وإن افتخرت شيئاً أكثر بسلطاننا

الذي أعطانا إياه الرب لبنيانكم لا لهدمكم لا أخجل" (٢ كورنثوس ١٠: ٨).

وإذ رجعنا للرسول، وجدنا دائماً أن بنيان جسد المسيح (أفسس ٤: ١٢) هو بنيان يتم في المحبة (أفسس ٤: ١٦)؛ لأن أساس البنيان هو يسوع المسيح نفسه (١ كورنثوس ٣: ٩ – ١٧)، وبالطبع لا يمكن أن يبني أحد على أساس المحبة إلَّا كل من هو من المحبة.

وبنيان كنيسة الله هو إعلانٌ عن المصالحة بين اليهود والأمم: "فلستم بعد غرباء، ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله، مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح" (أفسس ٢: ١٩ – ٢٢). وهكذا تدخل بنا الخدمة إلى هذه الحقيقة الفائقة عندما تبدأ الصلاة بالتمجيد والكرامة للثالوث؛ لأنه بنى لنفسه ذلك البناء الذي ينمو، والذي يصبح مسكناً لله في الروح القدس. ويا ويل من يخطئ في فهم هذه الذكصولوجية: "مجداً وإكراماً للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس سلاماً وبنياناً لكنيسة الله". هذه هي المسيحية كلها في عبارة موجزة ... هي قمة الوعي الروحي بحقيقة علاقة الله بالإنسان في المسيح يسوع وبالروح القدس. ولذلك علينا نحن الذين نرقب الحركة الطقسية المرافقة لهذه الكلمات، وهي الدوران حول المذبح والقس والشماس يحملان القرابين، أن نتذكر قيمة ومعنى الكلمات التي تقال. لقد دخلنا خدمة بناء المسكن الإلهي حيث وَجَدَ الربُ له مسكناً بين الناس "والكلمة صار جسداً وسكن بيننا" (يوحنا ١: ١٤). والطواف بمذبح الله ليس رمزاً فقط لوجود الإفخارستيا في العالم وتحقيقاً لوعد الله (ملاخي ١: ١١) في كل مكان من مشارق الشمس إلى مغاربها، بل أيضاً هو طواف الابتهاج والفرح بالخلاص، وهكذا ندخل بالقرابين إلى داخل الهيكل ونحن نضع أساس القداس الإلهي؛ لأن الرب سوف يحل بيننا جسدياً في ذلك السر المجيد لكي يضيف إلى بناء جسده ما يحتاجه ذلك البناء.

إن الفقرة التي اقتبسناها من القديس بولس تحتاج إلى وقفة طويلة لأن مجال

دراستها هو العهد الجديد، ولأنها من الفقرات الأساسية التي أخذت الكنيسة عصارتها ووضعتها في بداية القداس الباسيلي. ولعلنا الآن ندرك أن جسد المسيح ليس كاملاً، بل أنه في طريقه إلى الكمال بمواصلة ضم أعضاء جُدد إليه في كل جيل. وكم يحتاج ذلك الكمال إلى دهور يعلمها صاحب الجسد وحده وهو الرب يسوع المسيح. ولكن علينا أن ندرك أن الإفخارستيا وهي شركة في جسد المسيح، أنها أيضاً ذلك البناء القوي الذي سوف يكمِّله الرب لأنه يضم إليه كل يوم الذين يخلصون.

الكنيسة الجسد الواحد

من الأخطاء الشائعة ذلك الخطأ الجسيم عن الكنيسة، حيث دخلت الأفكار الفلسفية في قلب "اللاهوت"، وجعلت الكنيسة جسداً بمعنى جماعة متفقة تعيش في انسجام مثل الجسد الواحد.

والخطأ الأساسي هو أنه لا توجد مقارنة بين الجسد والكنيسة. بل إن الكنيسة لا تُدعى أصلاً جسداً، بل هي "جسد المسيح". والفرق بين الكنيسة كجسد، والكنيسة جسد المسيح كبير جداً، ذلك أن مركز الثِّقَل في التعبير ليس الجسد، بل جسد المسيح. وحتى في (رومية ١٢)، حيث يبدو أن الرسول يلجأ إلى الكلام عن الجسد وأعضائه ذات الوظائف المختلفة، نجد الرسول بولس يقول بكل وضوح: "نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح" (رومية ١٢: ٥)، والكلام بعد ذلك عن وظائف الجسد هو في الواقع كلام عن المواهب، وبعد ذلك في (١ كورنثوس ١٢) ليس الكلام عند الرسول عن الجسد، هذا هراء، وليس الكلام عن العين واليد والرأس يعني الواجب الاجتماعي، فهذا لم يخطر على قلب رسول المسيح، ولكنه يحدد بكل يقين أن هذا الجسد هو جسد واحد لأنه جسد المسيح (١ كورنثوس ١٢: ١٢)، وبعد المقارنة بين وظائف الجسد[1] يعود فيقول: "أما

---

(١) مرتان فقط استخدم الرسول تعبير الجسد دون تحديد (١ كورنثوس ١٠ : ١٧، ١١ : ٢٩)، ولكن من سياق الكلام يظهر أن الكلام عن جسد المسيح. ولا يوجد مطلقاً تعبير جسد الكنيسة، بل دائماً جسد المسيح.

انتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كورنثوس ١٢: ١٧).

من أين جاء تعبير "جسد المسيح" كوصف لحقيقة اختبار إيماني تعيشه الكنيسة؟

يجيب على هذا السؤال العالم الإنجليزي "*Rawlinson*" ويقول بالحرف الواحد: "إن أصل تسمية الكنيسة جسد المسيح جاء من ممارسة الإفخارستيا، ذلك أن المسيحيين يأكلون الخبز الذي هو جسد المسيح، وبذلك يصبحون هم جسد المسيح". ويقدم هذا العالم نص الرسول بولس نفسه: "الخبز الذي نكسر أليس هو شركة جسد المسيح؟ ألا ترون أننا نحن الكثرة نصير خبزاً واحداً، جسداً واحداً لأننا نشترك في الخبز الواحد" (كورنثوس الأولى ١٠: ١٦، ١٧)[١].

وفي الحقيقة، فإن الإجماع العام لدى غالبية أساتذة العهد الجديد هو أن الكنيسة ليست مثل إسرائيل القديم أو مثل الوثنيين؛ لأن ما يقدَّم على المذبح عندهم هو ذبيحة، وأمَّا ما يقدم على المذبح عندنا، فهو شركة بين ما يقدمه الشعب والإله الذي يقدمون له الذبيحة. ولذلك يمضي الرسول ليقول بعدها: "لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب (في الإفخارستيا) وكأس شياطين (في الأعياد الوثنية)، لا تقدرون أن تشتركوا في مائدة الرب وفي مائدة شياطين" (كورنثوس الأولى ١٠: ٢١). وهذه المقارنة تؤكد الاشتراك الحقيقي في جسد المسيح ودمه، وهي شركة تجعل المشترك في النهاية يصبح في وحدة مع الإله الذي يعبده. وقد علق العالم الألماني يواكيم يرمياس "*Jeremias*" على هذا النص فقال: إن الكلام عن الجسد والدم هنا يعني بشكل مباشر الاشتراك في ذبيحة المسيح. وهذا في الواقع ما ينقله إلينا القداس بشكل مباشر منذ بداية المسيحية في صلوات الديداكي (٩: ٤)، ثم في القداسات كلها شرقاً وغرباً، وهو ما ينقله إلينا التراث القبطي

---

(1) Corpus Christi, in Mysterium Christi ed Bell & Deismann, P 225F.

في قوة وبساطة التعبير حيث يقول القداس الباسيلي: "لكي إذ طهرتنا كلنا توحِّدنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية"، أو بتعبير قوي جداً وغني بكلمات لاهوتية يقول القداس الكيرلسي: "لكي إذ نتناول بطهارة من هذه الأسرار نصير شركاء في الجسد وشركاء في الشكل وشركاء في خلافة مسيحك".

إن قوة التعبير كامنة في كلمتين الأولى "المسيح" و الثانية "الواحد"، فالكنيسة ليست جسد المسيح فقط، بل هي "جسد المسيح الواحد". والقداسات كلها أخذت هذا التعبير من رسائل بولس الرسول، ولذلك علينا أن نعود إلى بولس نفسه لكي نكشف معنى هذه العبارة، ذلك أنه لا يوجد جسد المسيح عن يمين الآب، وجسد المسيح على الأرض أي الكنيسة، وجسد المسيح في الإفخارستيا ... العهد الجديد والقداسات لا يعرفون ثلاثة أجساد، بل جسد واحد ... وفي الحقيقة فإن الرسول يقول بدقة: "فكما أن الجسد واحد وله أعضاء كثيرة وأن جميع أعضاء الجسد مع كونها كثيرة هي جسد واحد كذلك المسيح أيضاً" (١ كورنثوس ١٢: ١٢ – الترجمة الكاثوليكية).

والجسد الواحد هنا، أي الجسد البشري، يعلن سر المسيح الواحد الذي لا يفترق عن أعضائه. والرسول بولس يعلن عن هذه الوحدة ولا يدخل في تفاصيل فلسفية بشرية، فالمطلوب هو حياة جديدة تُعاش. وهو أيضاً لا يقول إن المسيح يذوب أو يختفي أو يصبح المسيح والكنيسة وحدة واحدة تختفي فيها الوحدة، فكل هذه الشطحات لا وجود لها بالمرة، وقد قدم الرسول بعد ذلك تشبيه علاقة الزواج بين الرجل والمرأة حيث يصبح كلاهما جسداً واحداً، ولكن لا الرجل يتحول إلى امرأة ولا المرأة تتحول إلى رجل، ولا يذوب أحدهما في الآخر، بل يعيشان في وحدة تُختبر (أفسس ٥: ٢٢ – ٣٢). ولذلك بعد الكلام عن الجسد الواحد، يضع الرسول الضمانة الأساسية لهذه الوحدة، وهي عمل الروح القدس: "لأننا بروح واحد اعتمدنا جميعاً إلى جسد واحد" (١ كورنثوس ١٢: ١٣). وهنا كما نرى، فإن الذي يجعلنا أعضاء جسد المسيح هو الروح القدس، فهو الذي يضمنا إلى الجسد الواحد ليس بالمعمودية فقط، بل هو الذي يسقينا ويعطينا الماء لكي نحيا ونظل في هذا الجسد الواحد، وبالتالي لا يمكن شرح هذا الأمر مطلقاً إلَّا

في إطار شركة تُعاش، فكل الشروح الفلسفية أو النظرية تهدم قوة السر.

والرسول لم يقل إن الكنيسة مثل جسد المسيح، أو تشبه المسيح، ونحن لا نصلي في القداسات لكي نكون مثل جسد المسيح، بل لكي "نكون فعلاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، وبالتالي نجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين" (الباسيلي)[١].

وهنا علينا أن نعود إلى العهد القديم، إلى الوحدة القائمة على أساس الشخصية الجماعية، لأننا على أساس ما يذكره الكتاب المقدس، يمكننا أن نفهم عبارة الجسد الواحد أو الإنسان الواحد، الذي يجمع الكل فيه، فالكل في الواحد، كما أن الواحد في الكل[٢].

يقول الرسول بولس: "إن ما يظهر الأضعف من أعضاء الجسد لهو الأشد ضرورة للإحاطة بالرعاية، وما نحسبه الأحقر من أعضاء الجسد، فهو ما يجب أن تشمله بأعظم الكرامة وما يقبح منا فهو ما نحوطه بأوفر الحشمة". (١ كورنثوس ١٢: ٢٢، ٢٣ – الترجمة الكاثوليكية).

وهذا النص الذي يتحدث عن الجسد الواحد يقول إن الأعضاء الأحقر التي نغطيها، وربما الرسول يعني البطن ثم الأعضاء الأخرى .. هؤلاء أعضاء في جسد المسيح. والرسول هنا لا يتحدث عن أشخاص معينين، بل يصف الضعفاء الذين لا شهرة لهم، الذين يُعتبَرون مجهولين مثل أعضاء الجسد التي لا نراها، هؤلاء يجب أن يحاطوا بالرعاية والكرامة تماماً مثل الذين يملكون المواهب ولهم شهرة في الكنيسة.

(١) يقول القديس يوحنا ذهبي الفم "ما معنى الشركة؟، نحن الجسد نفسه. ولكن ما هو الخبز؟ هو جسد المسيح. وماذا يصبح الذين يشتركون؟ يصبحون جسد المسيح، ليس أجساداً كثيرة، بل جسد واحد" (على كورنثوس ١٠ : ١٦، ١٧).

(٢) راجع مذكرات الواحد والكل، طنطا – ١٩٧٧.

وهذا هو معنى الجسد الواحد، وهذا هو معنى المحبة الإلهية التي تهتم بالحقير.

الكنيسة ليست كنيسة أصحاب المواهب فقط، بل أيضاً الذين بلا مواهب، هؤلاء يحيون بيننا في صمت وهم علامات على فقر الإنسانية، واحتياجها الشديد إلى محبة الله.

عندما ننسى هذه الحقيقة – حقيقة الانتماء إلى جسد المسيح الواحد، وأننا ندخل الكنيسة لكي نمارس المحبة بشكل عملي فيه العطاء والشركة – لا نستطيع أن نفهم أموراً كثيرة، مثل الثالوث، والزيجة.

وعندما ننسى هذه الحقيقة، فإننا في الواقع نفقد قوة السر وعمله في حياتنا؛ لأننا لا نتناول للحصول على بركة، ولكن من أجل الشركة في الجسد الواحد. وإذا أغفلنا هذه الحقيقة نكون قد أغفلنا سبب التناول...

ولعلنا في خاتمة هذه الدراسة الموجزة، ندرك أن بنيان الجسد هو تحقيق اتحاد الأعضاء. كما أن الشركة في الجسد، هي نمو هذا الاتحاد. ويا ليتنا ندرك هذه الحقيقة الهامة في الكنيسة، وهي أن الكنيسة تصير إلى ما هي عليه، فهي جسد المسيح، ولكنها تصير جسد المسيح، لأنها تنمو نحو الهدف الذي بدأت منه رحلتها إليه.

ونحن الجسد، نشترك في الجسد، ونحن جسد المسيح، نأكل جسد المسيح لكي نكون ما نحن عليه، أو حسب تعبير العلامة أوريجينوس:

"نحن نولد من الله، ونكون أبناءً له، ولكننا نولد منه في كل قول وفعل، أي نصير ما نحن عليه We become what we are".

الفصل الرابع

الجسد الواحد

في الصلاة والطقس

من يقرأ الخولاجي يرى بكل وضوح أن الإفخارستيا هي الموضوع الأساسي الذي تدور حوله كل الصلوات والطقوس، ولكن الإفخارستيا في صلوات القداس قائمة على:-

١- المسيح وسيط بين الله والناس.

٢- تكامل عمل الابن كوسيط وعمل الروح القدس كَمُقَدِس.

٣- وحدة الكنيسة كجسد المسيح.

هذا هو إطار الإفخارستيا الحقيقي، فمن الخطأ أن ندرس الإفخارستيا، دون دراسة عمل المسيح كوسيط أو وحدة المسيح والكنيسة.

ويمكننا أن نرى العناصر الثلاثة معاً في كل صلوات القداس. ولعل أفضل مثال لها هو:

"يا رئيس الحياة وملك الدهور كلمة الله الآب أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا

يسوع المسيح الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء واهب الحياة لمن يتناوله. اجعلنا أهلاً من غير وقوع في دينونة أن نتناول من جسدك المقدس ودمك الكريم فيصيِّرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء".

والعناصر الثلاثة الأساسية كما هو واضح هي، نزول ربنا من السماء كوسيط، ثم ظهور هذه الوساطة في تقديم ذاته عنا، وبشكل خاص عندما جعل جسده ودمه خبزاً سمائياً واهباً للحياة، ولعل وحدة الكنيسة بالمسيح ظاهرة هنا كما تظهر في أماكن أخرى: "يصيِّرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء"، ولكن ماذا عن عمل الروح القدس؟ إن الدراسة المدقِّقة لصلوات الخولاجي سوف تكشف لنا أن الاستحقاق لتناول الجسد والدم، هو عمل الروح القدس الأساسي، فهو الذي يطهِّر القرابين ويصيِّرها قدسات للقديسين (صلاة استدعاء الروح القدس) ويجعل الواقفين – بعمله الخاص – قديسين مهيئين للحصول على نعمة الإفخارستيا.

من هنا يظهر لنا أن لقاء الكنيسة، هو لقاءٌ قائمٌ على هذه الدعامات الثلاثة. نحن لا نصبح واحداً فقط مع المسيح، ولكننا نصبح واحداً مع بعضنا البعض:

"اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من جسدك المقدس ودمك الكريم طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا؛ لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً معك".

وسر اتحاد المسيح بالكنيسة في الإفخارستيا، هو إنه اتحادٌ يُكَمِّله الروح القدس، ويُعلن بشكل فائق محبة المسيح غير المحدودة، فهو لم يمُت ولم يَقُمْ لكي يظهر وحده، بل مات وقام لكي يتحد بغيره على النحو الذي أعلنه في العبارة السرية: "الحق أقول لكم أن لم تمت حبة الحنطة فهي تبقى وحدها ولكن إن ماتت فهي تأتي بثمر كثير". (يو ١٢: ٢٤).

من هنا ندرك أن الذين ينكرون وجودنا في الإفخارستيا هم في الواقع ينكرون

محبة المسيح، ولا يهدمون الإفخارستيا فقط، وإنما ينكرون رغبة المسيح في أن يكون فينا لكي نثمر لله.

كيف يُعبِّر الطقس عن هذه الحقيقة؟

علينا أن نصحح خطأً قديماً ساد في أزمنة الضعف الروحي، وهو اعتبار الطقس علامات تذكِّرنا بالأمور الروحية، وكمثال لهذا الشرح الضعيف، الكلام عن الشمعتين اللتين نضعهما على المذبح واللتين نصت على وجودهما القوانين الكنسية الخاصة بالقداس (قانون من قوانين البابا خرستوذولوس).

والشرح الضعيف يؤكد أن الشمعتين هما علامةٌ لكي نتذكر وجود ملاكين في القبر. أمَّا الأصل، فهو أن الكنيسة هي بيت الملائكة، وأن الملائكة هم أعضاءٌ معنا في جسد المسيح الكنيسة. فالمسيح له المجد هو الرأس الذي جمع كل شيء في السماء وعلى الأرض (أفسس ١: ١٠)، والملائكة يرافقون الأحداث الهامة في حياة المسيح؛ لأن هذه الأحداث الهامة تزمع أن تعلن الوحدة الروحية بين السماء والأرض، فهم في بيت لحم، وفي جثيماني، وفي القيامة. ولذلك فإن ظهورهم في مثل هذه المناسبات الهامة التي أسَّس الربُ فيها جانباً أساسياً لخلاصنا، هو تأكيدٌ على أن المصالحة قادمةٌ، وأن البشر سوف يرثون رتبة الملائكة لأنهم في القيامة سيكونون مثل ملائكة الله في السماء لا يزوَّجون ولا يتزوجون.

ومن هنا ندرك أن وجود الملائكة في الكنيسة روحياً في حضورهم واشتراكهم معنا في الصلاة، هو أمرٌ مؤكد؛ لأن الوحدة الروحية التي تجمعنا بهم هي وحدة المصير النهائي. ولذلك فإن عقيدتنا تعطي لنا هذه الخبرة الروحية التي نعبِّر عنها بوجود الشمعتين على المذبح. ولذلك فإن الفرق الضخم بين الشرح المتواتر عندنا، وبين النظرة الأرثوذكسية السليمة، هو أننا إن تذكرنا معنى وجود الشمعتين فقد كسبنا فكرة، وإن عجزنا عن أن نتذكر ضاعت الفكرة. بينما نحن في الأصل نتعامل مع الملائكة، ونتعامل

مع القوات الروحية منذ معموديتنا؛ لأننا نتصالح مع الملائكة في المعمودية، ويصبحون في حراستنا منذ أن نأخذ ختم الرب في المعمودية (راجع صلوات التعميد في الكنيسة القبطية).

هنا نحن أمام الحقيقة الروحية التي تُختبَر، وأمام الواقع الجديد الذي نعيشه منذ معموديتنا، ولذلك، فإن الشمعتين على المذبح ليستا علامةً على حضور الملائكة، وإنما لأن الملائكة حاضرة أصبح وجود الشمعتين أساساً هو للدلالة على حقيقة الوحدة الروحية والمصالحة التي يعبر عنها النور.

من هذا الإطار ينبغي أن نعيد النظر في الشرح الذي تواتر عندنا، عن الطقوس ونستفيد من الخبرة الروحية التي أخذناها في المعمودية والتي يجب أن ترافقنا في حياتنا الروحية حتى لا نخسر النظرة الروحية، وتتحول العلامات إلى إرهاق وحمل ثقيل نحاول أن نجد له تفسيراً.

اختيار الحمل ووساطة المسيح

من بين عدد القربان الذي يقدَّم للكاهن، نختار قربانةً واحدةً. ودون أن ندخل في تفاصيل الشرح الرمزي لذبائح العهد القديم التي يُرمز لها بالرقم ٥ ودون أن نرهق أنفسنا بما لدينا من شروحات، علينا أن نرى بساطة الطقس، فوجود أكثر من قربانه واختيار الأفضل – مع ملاحظة أن هذا الاختيار ترافقه الكلمات: "الرب يختار له حملاً بلا عيب" – هو دليل على أن المسيح لا مثيل له، وعلى أن الوسيط واحدٌ، وأن هذا هو ما تؤكده ترتيبات العهد القديم، فكل الذبائح وكل الرموز والإشارات القديمة لم تكن قادرة على أن تعطي لنا الوسيط الوحيد بين الله والناس.

ويؤكد هذا الطقس أن الذبيحة الوحيدة التي أكملت كل الذبائح وشرحت معناها، هي ذبيحة الصليب.

يقول الشعب أثناء اختيار الحمل: "يا رب ارحم"، كما أن الرد على كل صلاة هو "يا رب أرحم"، ذلك لأن الرحمة هي أساس العهد الجديد، وهذه الرحمة ليست من حق الإنسان، بل هي عطية الله المجانية.

لقد ساد اتجاه روحي غير سليم مبني على أساس أن الإنسان له حقوق لدى الله، ولكن ما هي حقوق الإنسان، لا سيما إذا كان هذا الإنسان هو مجرد مخلوق يعتمد على عطية الله؟ ليس لنا حقوق، وعلينا أن نرى بكل وضوح أن هذه الكلمة، وكل ما تعنيه أو ما يُراد منها لا وجود له في الكتاب المقدس. نحن نعود إلى الله مثل الابن الضال الذي طلب أن يكون مثل الأجير. ونحن نعود إلى الله كذلك لأن هذه العودة حقيقية، ولأنها عودة إلى الوضع الحقيقي للإنسان الساقط. إنه تعليم غير سليم تماماً ذلك الذي يحاول أن يزرع في الإنسان البر الذاتي، وأن يصوِّر له أن له حقوقاً لدى الله يستطيع أن يطالب بها.

ما لدينا هو عطية الله، ولذلك نحن نقول: "يا رب أرحم" عندما نطلب أي شيء من الله. نحن نأخذ صورة العشَّار أيضاً الذي هو صورة الصلاة المقبولة، وهي صورة الإنسان الذي يعرف أنه على يقين من الرحمة، لا سيما وأن هذه الرحمة قد أُعلنَت لنا في المسيح يسوع. لذلك السبب وحده نقول: "اللهم اجعلنا مستحقين أن نقول بشكر: أبانا الذي في السموات"، ونحن نقول ذلك؛ لأننا نطلب عمل الروح القدس ليقول فينا: "أبًّا أيها الآب" (غلاطية ٤: ٦). وقد قلنا من قبل إن الاستحقاق هو عمل الروح القدس، وطالما أن كل ما فينا هو عمل الله، علينا إذاً أن نكون على حذر من أن نعتبر أعمال الله تحت سيطرتنا، أو صارت حقوقاً لنا. هذا الاتجاه خطير على الحياة الروحية لأنه يؤدي في النهاية إلى أن نقطع علاقة الإنسان بالله، وبذلك يفقد ليس فقط ما تخيله حقوقه، بل حياته بأسرها.

ومع بساطة هذا الطقس، وجماله علينا أن نحذر من أن نكون متسرعين في الصلاة أو غير فاهمين أننا نعبر عن إيمان دقيق ووعي روحي بأن الوسيط يأخذ مكانه

بيننا، وان اختيار القربانة الواحدة، هو علامة على صدق إيمان الكنيسة بالواحد الوحيد ربنا يسوع المسيح.

هذا الإيمان الصحيح تعبِّر عنه كلمات الصلاة: "سلاماً وبنياناً للكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية"، وعلينا أن نرى أن الذي يعطي السلام والبنيان هو عمل المسيح، فهو الذي يبني الكنيسة من لحمه وعظامه.

وساطة المسيح ظهرت بشكل واضح منذ أن اعتمد من يوحنا المعمدان، ولذلك بعد أن يؤكد الكاهن نزول الابن من السماء عندما يرفع القربانة إلى فوق "هذا هو الخبز النازل من السماء الواهب الحياة للعالم"، يعود ويمسح القربانة بالماء إشارة إلى معمودية الرب، وإلى بداية إعلان المسيح عن نفسه وسيطاً بين الله والناس.

بعد هذا تأخذ الكلمة الإلهية مجالها، ولذلك تُغطَّى التقدمة باللفائف لأنها سرٌّ لا يمكن الوصول إليه إلَّا بالاستنارة بكلمة الله وبالتعليم.

وعندما تنتهي العظة يكون الاستعداد الروحي الداخلي قد تم لندخل إلى الصلاة.

واللفائف التي تغطي التقدمة، معروفةٌ لنا من رسائل للقديس ايسيذوروس البيلوسي. وهنا لمحة هامة عن الاستعداد الصحيح الذي يرتِّبه القداس الإلهي، ذلك أن رفع اللفائف لا سيما الغطاء الذي يغطي التقدمة كلها (الابروسفارين) يتم بعد صلاة الصلح.

إن المسيح لا يُعلِن عن نفسه إلَّا للذين تصالحوا بقُبلة المحبة، ونحن لا نفهم سر المسيح طالما أننا لم نمارس الوحدة الروحية. ولذلك فإن صلاة الصلح هي مرحلة حرجة في صلاة القداس، فهي تأتي بعد الكلمة الإلهية والعظة. لأننا بالكلمة نستعد لنصل إلى المصالحة، وإلى قُبلة المحبة والسلام، ولذلك علينا أن ندرك إن حركتنا نحو الله، ونحو إدراك

السر الإلهي هي حركة أساسية من الله في الكلمة، ومنا نحن في رغبتنا في المصالحة، والاتفاق بالرأي الواحد، ومحبة بعضنا البعض.

المصالحة في كتابات آباء الكنيسة ليست التنازل عن الخصومات، فهذا الجانب السلبي لا وجود له في المسيحية، وإنما المصالحة هي أن نحب بعضنا البعض لنكون جسداً واحداً وروحاً واحداً.

هذا الجانب أساسي لتوبتنا، وهو قائم على عقيدتنا؛ فلقد قام المسيح ولذلك نصالح بعضنا البعض.

والجانب الرمزي هنا أساسيٌ أيضاً، الشماس يمسك الصليب، والكاهن يرفع اللفافة على شكل مثلث، وهي ترمز إلى أختام القبر. وتوجد وثائق قديمة تؤكد وجود هذه الممارسة في القرن الخامس، وإن هذا هو طقس الإسكندرية.

الرمز هنا يؤكد أن قيامة المسيح هي أساس مصالحتنا وأساس قبلة السلام. ويمكن لمن يشاء أن يعود إلى عظات الآباء في القرون الرابع والخامس والسادس، والتي قيلت في عيد القيامة، ليجد أن قيامة المسيح هي أساس المصالحة. لقد قام المسيح، ولذلك فلنحب بعضنا البعض ولنسامح بعضنا البعض.

القيامة تطهر قلوبنا من ثمار الموت، وعندما تنهض الحياة من القبر، نستطيع أن نمد يد مصافحة حقيقية. لقد دخل الموت وسكن في الإنسان مثل المرض يفتك به والإنسان المريض لا يشعر بالصحة، بل بالألم، وآلام الموت هي الخوف من الآخرين، هي الحسد والكراهية. الموت يزرع فينا ذلك الاهتمام غير العادي بالحياة، وهذا بدوره يعلِّمنا أن نقتني أكثر، وأن نتكلم أكثر، وهذا يدفعنا إلى المبالغة حتى في الغضب لأن حياتنا في خطر، ولذلك علينا أن ندافع عنها.

وصلاة الصلح تؤكد هذا الجانب. لقد كان حسد إبليس هو الذي دفع الشيطان

إلى كراهية الإنسان، ولذلك نحن لا نصافح بعضنا البعض دون الإشارة إلى أساس الموت والسقوط. وهنا طريق الحياة القائم على المحبة والاتحاد، والذي غرسه المسيح فينا. ليس كطريق الموت الذي غرسه الشيطان القائم على الحسد والكراهية.

الكنيسة الواحدة المتصالحة تستعد لقبول سر المسيح. وبعد أن أخذنا جرعة الحياة بالقيامة، كيف لا نكون قد صرنا مستعدين لقبول سر الله في المسيح يسوع. نحن ندرك – في الشركة والمصالحة فقط – أن المسيح فينا، وكلمات الرسول تأتي بشكل مباشر: "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو. وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أفسس ٣: ١٧ – ١٩). وهذا هو اختبار الإيمان الصحيح.

لقد دخل الموت إلى العالم بحسد الشيطان، ومع الموت الكراهية، وهما لا يمكن فصلهما مطلقاً، ولكن بقوة القيامة صارت لنا هبة الحياة المجانية، وهو ما يعلنه الرمز بقوة وما يعلنه نداء الشماس الذي يرفع علامة الصليب وينادي الشعب: "قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة". لقد أشرقت الحياة، ولذلك نحن نُحَيِّي كلٌ الآخر بقُبلة المسيح، والقبلة هنا هي ممارسة الإيمان، وهذا ما ندركه من كلام الرسول. عندما يحل المسيح فينا ننمو في السلام والمحبة، وعندما ننمو في السلام والمحبة نستطيع أن ندرك معاً عمق محبة الله، ونستطيع أن نختبر محبة المسيح.

لاهوتياً، نحن لا نضع خطوة قبل خطوة، وإنما نحن نمارس، وكل ما نمارسه يثبت فينا، ويقود حياتنا إلى المسيح. وعلينا أن ندرك هذا الجانب، فهو جوهري في لاهوت الكنيسة الشرقية. نحن في زمان الحياة، لقد قام المسيح، والإفخارستيا تتم في الكنيسة بعد القيامة، ولهذا فإن القيامة تحدث على مستوى الطقس، وعلى مستوى الممارسة ... على مستوى الطقس عندما نرفع لفائف الذبيحة، وعلى مستوى الممارسة عندما نقبِّل بعضنا البعض. وما نتممه طقسياً، وما نمارسه عملياً، هو ما نتذوقه في الإفخارستيا.

هكذا يبدو القداس وحدة واحدة، وقد يتقدم جانب ويسبق جانباً آخر مثل الكلام عن القيامة قبل أن نتكلم عن السر. ولكن الوحدة وجوهرها هي التي تسمح لنا بأن نؤخِّر جانباً ونقدم جانباً. والمثال الصحيح هو الثالوث نفسه، الذي تسمح لنا وحدته فقط بأن نتكلم عن الابن قبل الآب؛ لأنه مع وحدة الجوهر، لا أهمية بالمرة لقَبْل أو بَعد، فليس لقَبْل أو بَعد أي مكان.

على نفس القياس، نرى ممارسة الكنيسة "مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة"؛ لأن الكنيسة جسدٌ واحدٌ، ولذلك لا يوجد قَبْل أو بَعد. لنا حياة واحدة ونحن أعضاء في الجسد الواحد، ولذلك الذي يسبق لا يصبح أفضل، والذي يتقدم لا يأخذ أكثر لأن ينبوع الحياة الواحد، المسيح الحي، هو لنا جميعاً. وطالما أن حياتنا واحدة أي المسيح، فمَن هو قَبْل أو بَعد؟ لا أحد. إن الوحدة هنا تنطبق أيضاً على بناء القداس: فالمسيح واحد، ولذلك فإن حياته توزَّع علينا، لا يهم متى نتكلم عن القيامة، ولا يهم متى نضع الكلام عن الروح القدس، لكن يهم جداً في التوبة إدراك أن الإيمان يسبق كل شيء "بدون الإيمان لا يمكن إرضاؤه". ونحتاج أن ندرك أننا قبل أن نتقرب من الإفخارستيا، فإننا نقترب من السلام والمصالحة لأن المسيح عندما يريد أن يوزع حياته على جسده الكنيسة، لا يوزعها لكي ينقسم هذا الجسد، ولا يوزعها على جسد منقسم يعاني من الانقسام أو الانفصال، فهو المسيح الواحد الذي جاء لكي يجمع الكل في الواحد أي فيه هو. فإذا كانت الكنيسة تعاند وترفض أن تكون في السلام والاتفاق، فكيف تستطيع أن تصبح في الواحد يسوع المسيح.

لذلك فإن القيامة في الصلح، والقيامة في الكلام عن السر، والقيامة في نهاية القداس أيضاً. ونفس الكلام يُقال أيضاً عن التجسد، فالمسيح لم يتجسد في بيت لحم، وبعد ذلك تخلى عن الجسد، بل ولد بالجسد في بيت لحم، وتقيم كل كنيسة "بيت لحم" فيها أي بيت القربان لأن تجسد المسيح حقيقة دائمة.

لقد عثر الغربيون وأخطأوا في فهم لاهوت الكنيسة الشرقية، واعتبروا أن هذه

الكنيسة تقيم لاهوتها على التجسد، وأن الصليب له مكان صغير. وعثرة الغربيين ظاهرة لأنهم أخطأوا في إدراك حقيقة المسيح الواحد الذي يجوز لنا بسبب كونه واحداً، أن نتكلم عن أي حدث من أحداث الخلاص، وأن نعطي له اهتماماً معيناً لأن هذا الاهتمام في النهاية سيقود إلى الأحداث الأخرى، ولعل أفضل ما عندنا هو صلاة القسمة في القداس الغريغوري: "الذي من قِبَل تجسدك أعددت لنا خبزاً سمائياً ومزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية، التي هي جنبك الإلهي غير الدنس هذا الذي من بعد أن أسلمت الروح فاض لنا منه ماء ودم، هذان اللذان صارا طهراً لكل العالم". والذي يفشل في إدراك أن المسيح واحدٌ، هذا وحده لا يستطيع أن يقبل هذه الكلمات. لقد ربطت الصلاة الخبز بالتجسد، والكأس بموت المسيح على الصليب. وحقاً عبَّرت هذه الصلاة عن تقوى الكنيسة الشرقية وقوتها بتأكيد أن المسيح واحد. ولذلك فإن الأحداث الأساسية كلها تتجمع في الأسرار، والترتيب لا يهم لأن المسيح الواحد لا يمكن ترتيبه وفق أي تصور فكري، لاسيما التصور الذي لا يرى وحدة عمل المسيح، ذلك العمل الذي بدأ منذ اتحاد اللاهوت بالناسوت في أحشاء العذراء مريم. وكَمُلَ بالصعود، وحلول الروح القدس.

والذين لا يفهمون وحدة عمل المسيح يسألون: كيف يعطي المسيح جسده قبل أن يُصلب، أو وهو جالس في وسط التلاميذ؟ كل هذه الأسئلة لا مجال لها إذا كان لنا إيمان بالمسيح الواحد الذي رتَّب خلاص الإنسان بالاتحاد بين اللاهوت والناسوت بالميلاد من العذراء، وبالمعمودية من يوحنا، وبالصليب وبالقيامة وبالصعود إلى السموات. كل أحداث الخلاص هذه لا يمكن إدراكها إلَّا إذا تذكَّرنا دائماً ان المسيح هو هو، وأننا لا نحتفل بما حدث له، بل به هو ذاته. لقد جاء إلينا لكي يهبنا حياته، وحياته الإلهية لا يمكن أن تصل إلينا إلَّا عن طريق الناسوت. فلاهوته ليس عنصراً مشتركاً بيننا وبينه، بل العكس هو الصحيح، فلاهوته غريب عنا ولا ينتمي إلى عالمنا الإنساني، فهو من جوهر الآب الذي هو فوق الإدراك والشعور. ولذلك تجسَّد، وأخذ ذلك العنصر المشتَرَك الذي بيننا وبينه، وجعل هذا العنصر أي الناسوت، المجال الذي يعلن فيه محبته لنا. فالاتحاد

بالناسوت كان قبولاً للإنسان كما هو، كان أشبه بمن يأخذ العجينة، ثم جاءت المعمودية في الأردن ومُسِحَ الناسوت، فدخلت تلك العجينة النار، وظلت في النار – لا سيما – نار الصليب حتى تحولت إلى خبز، إنها هي بذاتها العجينة، ولكنها لم تعد ذلك القوام الرخو، بل صارت في صلابة عدم الموت بالقيامة وها هو يقدم لنا ذاته بالروح القدس في الإفخارستيا.

علينا أن نسأل الذين يحاربون صلوات الكنيسة وقداسها لماذا تقرأون الإنجيل، ولماذا تعودون إلى حياة الرب قبل الصليب؟ إذا كان الصليب هو أهم ما عندكم، فلماذا تقرأون عن أمور تبدو بكل وضوح أنها ليست مرتبطة بالصليب مثل إشباع الخمسة آلاف، أو سير الرب على المياه، أو معجزات الرب الأخرى، أو العظة على الجبل؟

حقاً كل هذه تبدو قطعاً متناثرة إذا أخذناها بمعزل عن شخص الرب الذي هو واهب الحياة، والذي يعطي ذاته لنا، ولذلك وفي ضوء هذه العطية الفائقة، يكتسب كل قول وكل فعل الجانب الحقيقي الذي يخصنا. فإذا قرأنا عن إقامة لعازر، أدركنا أننا نقرأ عن الذي أقام طبيعتنا الميتة، وإذا قرأنا عن إشباع الآلاف أدركنا أننا نقرأ عن الذي يَهِبُ حتى جسده. فيكف نرى هذه الأمور دون أن نرى شخص المسيح نفسه؟

الجسد الواحد والقربانة كخلاصة الخبرة الروحية القبطية

لكل كنيسة طريقة معينة في تقديم الإفخارستيا، ولذلك لا يوجد شكل عام للخبز الذي يقدَّم على المذبح، ويختلف الشكل من البرشام اللاتيني الذي لا شكل له سوى الاستدارة، إلى خبز الإفخارستيا المملوء بالرموز في كنيستنا القبطية.

وحتى عند الكنائس الأرثوذكسية التي تشترك معنا في الإيمان مثل الكنيسة السريانية والأرمينية، هؤلاء يحتفلون بالقداس حسب طقسهم.

هل من الممكن أن نستخدم رغيف بلدي أو فينو في الإفخارستيا؟ والرد طبعاً

ممكن، ولكن السؤال الهام لماذا الرغيف البلدي أو الفينو؟ لقد ارتبط الخبز بالمسيح وصارت كلمة "خبز" = "حياة" = "المسيح". هذا هو مجمل كلمات الحديث الطويل في يوحنا ص ٦ بعد معجزة إشباع الآلاف. المسيح هو خبز الحياة، هذه الحقيقة الفائقة هي جوهر الإفخارستيا، ولذلك فإن آداب الاشتراك في الوليمة، هي أن يعبِّر الخبز نفسه عن حقائق السر. ولذلك فإن شكل القربانة يمثل الكنيسة الواحدة مع المسيح.

المسيح في الوسط، ثم إثنا عشر صليباً، يمثلون الرسل، ثم دائرة تحيط بالرسل تمثل الكنيسة، الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها.

المربع الذي يتوسط القربانة، يسمى "الاسباديقون"، وهو اسم جاء من كلمة يونانية تعني الخاص بالسيد، أي المسيح. ويسمى أيضاً حجر الزاوية، والذين يعرفون هندسة المباني في فلسطين، يدركون أن حجر الزاوية هو الذي يتوسط القبة، ويقفلها، وهو على شكل صليب ... وهنا يتم القول الرسولي: "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب، الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح القدس" (أفسس ٢: ٢٠ – ٢٢).

هنا تلخِّص القربانة، كل القداس. فيسوع الرب الذي هو حجر زاوية الكنيسة يجعل الكنيسة جسده، ويجمع المؤمنين به حوله ابتداء من الرسل إلى الشعب، إلى كل الكنيسة الجامعة.

وحسب خولاجي العالم الجليل القمص عبد المسيح المسعودي، فإن القسمة التي استقرت في الكنيسة، هي تقسيم الجسد كله من فوق، ويظل واحداً من أسفل. وهكذا تظهر أعضاء المسيح، أي الكنيسة في الجسد، ويظل الجسد واحداً.

هنا ندرك أن قوة السر الكامنة تظهر واضحة جداً في القربانة نفسها، التي سوف نتكلم عن تقسيمها حينما يحين الكلام عن القسمة.

وبشكل عام يصبح صليب الرب ممتداً عبر كل القربانة، دليل الاتحاد بالمسيح في صليبه وموته (راجع الرسم).



الفصل الخامس

هذا اصنعوه لذكري

تمهيد:

لو أن شرحاً لهذه العبارة كُتِبَ في القرن الثاني عشر، وفي الغرب بالذات، لَجَاءَ الكلامُ مطابقاً لمعناه، وربما في مفرداته لما كُتِبَ في الشرق، في نفس القرن. ولكن الجدل في الغرب بعد القرن الثاني عشر وما تولَّد عنه من انقسامات جاءت قمتها في القرن السادس عشر، أو ما يُعرف بحركة الإصلاح البروتستانتية، جعل الكلام عن الإفخارستيا معقَّداً صعباً تحوط به أشواك الهرطقة من كل جانب.

المأساة أصلها في أن الإنسان لا يرضى بالسر "Mystery" ولا يقبل أن يسلِّم حياته إلَّا لما هو معروف وواضح. فقد لوثت الخطية الفكر، وجعلت الخطية الاعتماد على الذات، هو أحد ما يحرص عليه الإنسان. وخَلَقَ الموتُ في الإنسان رغبةً عارمةً في التأكد من أصل حياته وكيانه، وفي البحث داخل فكره وحياته عن معنى وجوده وغايته، وبالتالي الاستغناء المطلق عن الله إذا استطاع لذلك سبيلاً.

ولكن الخلاص كما نعرف، هو في جوهره، الاشتراك في حياة الله، هو عودة إلى الله عن طريق جحد الذات والاستغناء عن الوجود الخاص الذي يعتمد على الفكر والعواطف والخيالات، أي إلى الوجود الذي يستمد حركاته وحياته من الله.

ومما لا شك فيه أن الإنجيل ليس طريقاً معارضاً لطريق الخطية فقط، بل هو إصلاح الخطأ وإعادة الإنسان إلى الشركة.

ومن هنا ندرك أن الأسرار، ولا سيما الأسرار الكنسية، مضادة تماماً لطبيعة الخطية. وعقل الخطية لا يقبل الأسرار؛ لأنها ليست فكرة يعقلها الإنسان ويدركها ويحيط بها. الأسرار لا تتمشى مطلقاً مع الاعتماد على الذات الذي وُلِد وتربى في قلب الإنسان منذ السقوط.

والأسرار تتطلب عدم الاعتماد على الحواس. والاعتماد على الحواس، هو قاعدة المعرفة عند الإنسان الساقط، الذي لا يقبل إلَّا المعرفة التي يمكن أن تُمتَحن في المعامل وبأداة القياس الحسي. المعرفة التي كان يسميها الإنسان إلى عهد قريب المعرفة الكاملة أو اليقينية لأنها المعرفة التي يمكن البرهنة على صحتها واختبارها، وهو أمر لا يمكن مطلقاً أن يتم بالنسبة لما يسمى بالمعرفة النظرية مثل الإيمان بالله، أو بوجود النفس، أو خلود الروح، أو الحياة بعد الموت.

كل هذه تسمى قضايا نظرية، بمعنى أنها لا تُنظر ولا تُرى ولا يُمكن إثباتها. وكانت الإنسانية تعتمد بشكل مباشر على الفلسفة اليونانية، وكانت الفلسفة اليونانية (لا سيما أرسطو وأفلاطون) تؤمن بوجود كامل للحياة الفكرية والروحية، وتعُد الحياة المادية أو المنظورة مجرد ظلال، وخرافة الكهف عند أفلاطون بشكل خاص تفترض أن سكان الكهف، أي البشر في هذه الحياة الدنيوية لا يعرفون حياةً خارج الكهف، ولكنهم على أساس الضوء القليل الخافت الذي يدخل من فتحة الكهف يدركون من الظلال شيئاً عما حولهم. أي إن الوجود الروحي أسمى وأعظم، وأكثر يقيناً.

ولكن لما جاءت الفلسفة الأوروبية في عصر النهضة بكل ما هو معارض للفلسفة اليونانية، اهتز العقل البشري واختلت مقاييسه. وجاءت الزلزلة عندما ركلت أوروبا كل ما وصلت إليه الفلسفة اليونانية. طبعاً هذه قصة طويلة يجب أن تُدرَس في تاريخ الكنيسة في أوروبا، وهو موضوع لم يدرس بعد في مصر. والمراجع العربية القديمة

والجديدة لا قيمة تاريخية أو لاهوتية لها، لأنها في الواقع لا تتناول التعارض الذي حدث منذ القرن الخامس عشر والذي وصل إلى ذروته بعد ذلك لا سيما بظهور العلوم التجريبية وميلاد الفلسفة الحديثة.

هذا التعارض أصلاً هو تعارض بين مدرستين، كل منهما تصل إلى غاية مختلفة. ذلك أن المدرسة القديمة اليونانية تعتبر أن الوصول إلى الحق أو إلى الله هو غاية الإنسان العظمى، بينما تعتبر المدرسة الأوروبية الحديثة عدة أهداف ليس الله هو غايتها، وإنما الإنسان أو الكون. ولسنا في مجال تفضيل مدرسة على مدرسة أو التحيز لمنهج يسلك بالإنسان إلى الروح، وآخر يضع اكتشاف الإنسان والمادة غايته الأولى والأخيرة.

وكل ما نرجو أن يكون واضحاً هو أن حركة الإصلاح واكبت ميلاد الفلسفة الأوروبية وتأثرت بما ساد أوربا من أفكار واتجاهات إنسانية واجتماعية وفلسفية. وجاءت حركة الإصلاح ثمرة لحركة النهضة الأوروبية، وأخذت منها الكثير وعاشت على ثمار الأفكار الأوربية في تلك الفترة، فجاء اللاهوت البروتستانتي عقلانياً شديد الولاء للمنهج التجريبي وللفلسفة الحديثة. وقد اكتشف البروتستانت هذه الحقيقة بعد ٤٠٠ سنة من البحث (راجع كتاب العالم البروتستانتي "إميل برونر *Emil Brunner*" بعنوان الوسيط "The Mediator"، وهو دراسة عن صلة اللاهوت البروتستانتي بالفلسفة، وأثر الفلسفة في صياغة العديد من النظريات اللاهوتية الغربية بعد القرن الخامس عشر.

ومما لا جدل عليه الآن وبعد مرور ٤٠٠ سنة من الحوار العنيف تارةً، والعلمي تارةً أخرى أن حضور المسيح في الإفخارستيا هو حقيقة لا تقبل الجدل، وإنما الجدل حول تفسير هذا الحضور. وطبعاً تفسير حضور المسيح في الإفخارستيا ليس قضية فلسفية، ذلك أن العلاقات بين البشر، أو بين البشر والله هو موضوع يمكن أن يعالَج من عدة زوايا منها الفلسفة وعلم النفس، ولكن علاقتنا بالمسيح هي علاقة سرية، تُفهم في إطار اللاهوت فقط، ولا يمكن أن تفسَّر بشكل فلسفي، وهذه هي مشكلة الجدل حول الإفخارستيا في الأربعمائة سنة الأخيرة، ففي كل مرة يحاول الدارسون الوصول إلى السر

يلجأون إلى تحديد السر وصياغته بشكل معقول ومفهوم، فيفقد السر مكانته ويتحول إلى قضية فلسفية.

لذلك علينا قبل الدخول في أي حوار حول معنى الكلمات "هذا اصنعوه لذكري" أن نتأكد من الفلسفة التي يتبناها المحاور؛ لأن اكتشاف الأصل الفلسفي لأي جدل يؤدي دائماً إلى سرعة الاتفاق.

ولعلنا الآن في موقف أفضل بكثير مما كنا عليه في المائة سنة الأخيرة، فقد ظهرت القواميس اليونانية التي حددت بشكل موضوعي معاني الكلمات اليونانية في العهد الجديد، ثم الكلمات اليونانية عند الآباء، وبالتالي لم يعد الحوار اللاهوتي يسير في طريق واحد غير واضح المعالم، بل أصبح تحديد الاتجاه وحصره ممكناً، لأننا لم نعد نستخدم كلمات يمكن لمن يشاء أن يفسرها كما يريد، بل أصبح التفسير العلمي غير المذهبي، هو الطابع الذي كاد يسود الآن في عصر القواميس. وظهر في الغرب عند الكاثوليك والبروتستانت ما يعرف الآن باسم "Biblical Theology" أي "لاهوت الكتاب المقدس"، وهو محاولة جادة للتخلص من التراكمات التي أصبح من العسير التخلص منها إلَّا بالعودة إلى الكتاب المقدس مباشرةً، لكي يمكن إدراك ما يقوله الكتاب المقدس، ومعرفة ما قد تطور من مصطلحات بعد ذلك.

في هذا الإطار نقول لكل الدارسين في مصر، إن التغيير الذي تم في البروتستانتية بشكل خاص، يجب أن يمتد إلى البروتستانتية في مصر؛ لكي يتقدم الحوار. والأساس الفلسفي للبروتستانتية في مصر، هو أساس أوروبي، ووليد فلسفة القرن الثامن عشر، وإذا ساعدنا إخواننا البروتستانت في اكتشاف هذه الحقيقة، فإن الاتفاق حول الإفخارستيا سهلٌ وميسور.

الفصل السادس

العهد والذكرى

المسيحُ حاضرٌ وليس بغائبٍ:

إذا تصورنا أن المسيح غائبٌ عن الكنيسة وأنه لا يحضر عندنا إلَّا في القداسات فقط، وتصورنا أنه لا توجد علاقة بيننا وبينه إلَّا في صلاة القداس فقط، فهذا التصور نابع بشكل خاص من الجهل بما تعنيه الكنيسة وما حققه التجسد.

وفي الحقيقة إن كل الذين يحاولون أن يفسِّروا "هذا اصنعوه لذكري" على أنها حفلة تذكارية رمزية مثل عيد ميلاد أو ذكرى وطنية.. إلخ. إنما يعبِّرون عن عدم فهم لِما حققه المسيح بالنسبة للإنسانية، فقد جمع أبناء الله معاً في "الجسد الواحد" أي جسده، ولذلك لم يعد يوجد بعد التجسد ما يفصل بين الله والإنسان، ولم يعد حضور الله حضوراً رمزياً أو مجرد ظهور مثل ظهورات العهد القديم، بل حضوراً حقيقياً في الإنسانية التي اتخذ منها جسداً. وعبارة "وسكن بيننا" (يوحنا ١: ١٤)، لا تعني السكنى المؤقتة، بل الدوام. فهذا هو معنى التجسد.

والذين يكابرون في حضور المسيح السري في الإفخارستيا، إنما يجهلون حقيقة علاقته بالكنيسة، فقد صار "بكراً بين أخوة كثيرين" (رومية ٨: ٢٩). ولم يكن صعوده يعني أنه اختفى من حياة الكنيسة وصار بعيداً عنها، فهذا يتعارض بشكل واضح مع كل

ما يصرِّح به العهد الجديد عن الحياة "في المسيح"، بل ومع اختبار المعمودية التي نُصلب ونموت ونُدفن فيها "مع المسيح" (رومية ٦: ٤).

وقد أثار الغرب عاصفةً من النقاش حول علاقة الكنيسة بالمسيح. ومنذ أن كتب "*Deismann*" كتابه المشهور عن القديس بولس، والنقاش لم يهدأ ولا سيما بعد أن دخل الكاثوليك الميدان محاولين بدورهم شرح عبارات مثل "في المسيح"، أو "المسيح فينا"، وعودة الغرب إلى "تذوق السر Mystery" وقد أحصى "*Deismann*" في مقالته المشهورة التي نشرها عام ١٨٩٢ وموضوعها "في المسيح" أن حرف الجر "في" "in" استُخدِم ١٦٤ مرة في رسائل بولس للدلالة على الاتحاد السري بالمسيح. وعلى الرغم من أن ديسمان كان يمثل تطوراً في اللاهوت البروتستانتي، إلَّا أن الهجوم المضاد الذي قاده بروتستانت آخرون، كان يُؤذِن بتطورٍ في الفكر اللاهوتي الغربي، ومحاولة كسر حدة الاتجاه العقلي، وهو ما تحقق في الواقع بعد ذلك.

لقد أدرك الغرب، أن التجسد هو حضورٌ دائمٌ للمسيح، في حياة الكنيسة وفي الإفخارستيا، ولذلك استدعى هذا الإدراك إعادة النظر في معاني الكلمات: "هذا اصنعوه لذكري".

في مصر كان النقاش عندنا لا يدور بطريقة لاهوتية أكاديمية، بل بالعواطف والشعور، وأنتم تعلمون جميعاً ما قيل وما قد يُقال في المستقبل حول كتاب "الكنيسة الخالدة" وكتاب "العنصرة"[١] وكلاهما محاولة لشرح الكنيسة، وليس هذا مجال الحديث عن الخطأ والصواب أو الدفاع والهجوم، ذلك أنني أتصور النقاش الذي حدث عندنا في العشرين سنة الأخيرة[٢] على أنه تعبير واضح عن عدم استيعاب معنى الكنيسة كجسد واحد.

---

(١) للأب القمص متى المسكين.

(٢) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في ١٩٨٠.

وهذه الحقيقة هي أيضاً بدورها وراء النقاش حول حلول الروح القدس أبالمواهب أم بالأقنوم؟[١] وهو سؤال لم يُطرح في عصر الآباء لسبب واحد هو أن الآباء كانوا يدركون سر الكنيسة. وهكذا علينا أن نتصور الآن ما يدور عندنا من نقاش لا سيما تحت تأثير الكتب البروتستانتية العربية التي لم تستفد من التطور العالمي الذي حدث في اللاهوت البروتستانتي.

وينحصر الفهم السائد لماهية الكنيسة في تصورين:

التصور الأول: وهو نابع من الفلسفة وعلوم الاجتماع التي سادت أوروبا بعد القرن السادس عشر، وقوامه أن الكنيسة جماعة بشرية تجمعها وحدة الهدف، وينظمها القانون والحياة الاجتماعية، ويربط بين هذه الجماعة العواطف والصلوات والاحتياجات الروحية وغيرها من احتياجات مادية أو سياسية... الخ.

طبعاً في هذا المجال الفكري لا مجال مطلقاً للحديث عن الإفخارستيا كَسرٍّ لحضور المسيح في وسط جماعة لا يربط بينها أي رباط إلهي. الكنيسة هنا أشبه ما تكون بنادٍ رياضي أو مؤسسة اجتماعية لا تقوم العلاقات فيها إلَّا على ما يوجد في العقل والقلب من عواطف وأفكار واحتياجات. وعندما تعيش الجماعة في هذا الإطار، لا يمكن أن يولد منها لاهوت حقيقي للأسرار، بل تصبح الكنيسة هي ما تحققه في المجالات الاجتماعية والإنسانية.

ولعلنا نذكر هنا أن أول ما فعلته الكنائس البروتستانتية في القرن السادس عشر هو إلغاء العشاء الرباني الأسبوعي، وهو أحد أركان خدمة يوم الرب (الأحد) الأساسية والاكتفاء بالكلمة أي الوعظ والصلاة. كان الدافع الأساسي لهذا هو معارضة الكنيسة الكاثوليكية، ولكن هذه المعارضة، تحولت إلى لاهوت.

---

(١) راجع في هذا الموضوع تفصيلاً كتابنا عن مواهب الروح القدس، دراسة في الكتاب المقدس والآباء والطقس. منشور على موقع www.coptology.com

في مثل هذه الأجواء، حيث لا يتم العشاء الرباني سوى مرة واحدة في السنة أو في الشهر، لا يمثل الخبز والخمر سوى ذكرى ما فعله يسوع ليلة آلامه، ولا يكون يسوع حاضراً إلَّا بقدر ما يعبُر في عقل الجماعة من أفكار ومشاعر. وفي مثل هذه الأجواء يظهر تفسير كَسر الخبز وشُرب الكأس، على أنه مجرد وليمة تذكارية لأمرٍ فعله يسوع وأمرَ الكنيسة أن تفعله.

وقد أدرك بعض اللاهوتيين المعاصرين أن فكرة صعود المسيح في الغرب ارتبطت بالعلوم وليس باللاهوت. فالسماء هي الطابق الثالث في بناية الكون الذي يقوم على السماء – الأرض – الجحيم، وكل طابق منفصل عن الآخر، ولا يوجد حتى سُلَّم. ولما صعد المسيح، ترك الكنيسة وصار مجرد فكرة. ولكن عندما تغيَّرت نظرة العلوم إلى الكون، عاد الغرب إلى العقيدة الشرقية، وهي أن السماء حضور الله، وليست مكاناً منفصلاً عن الأرض.

التصور الثاني: هو إدراك أن الكنيسة سرٌّ. وأن الذي يجمع الأعضاء معاً هو المسيح رأس الكنيسة، وبالتالي فالرابطة ليست إنسانية نابعة من الأعضاء، بل نابعة من المسيح نفسه الذي يخلق الحياة الجديدة في كل عضو ويغذِّيها دائماً بما لديه من قوة. وبالتالي فإن المسيح حاضرٌ بشكل دائم، ويتجلى بشكل خاص في القداس حيث يجمع كل الأعضاء لكي يكون كل عضو حياً "فيه"، ومتحداً بغيره من الأعضاء.

هنا الكنيسة ليست جماعة بشرية، رغم أنها تبدو كذلك لمن يراها من الخارج، وإنما هي جسدٌ واحدٌ. وفي هذه الأجواء لا تعني عبارة "هذا اصنعوه لذكري" مجرد ذكرى حدثٍ انتهى وغاب، بل تصبح الذكرى هي الحديث المباشر مع المسيح نفسه عما صنعه لأجلنا، وما هو حاضرٌ فعلاً. ومَن منّا لا يرى في الإفخارستيا ذلك الجسد الذي يُكسر طالما أن رأس الجسد بيننا يُظهِر لنا ذاته بشكل واضح جلي؟

المسيحُ حاضرٌ ومعه كل الأحداث التي حدثت له، لا سيما الصليب والقيامة، فهو بيننا، وهذه الأحداث حدثت لأجلنا؛ لأنه لم يكن يريد أن يظل وحده مثل حبة

الحنطة التي تظل وحدها حتى تقع في الطين وتموت ومتى ماتت تأتي بثمر كثير (يوحنا ١٢: ٢٤). ولقد اشتاق أن يجمع هذا الثمر "ها أنا والأولاد الذين أعطاهم إياي الرب" (عب ٢: ١٣) وعندما يجلس في وسطنا فهو يوزِّع علينا حياته لأنه منذ الأزل يفكر فينا ويشتهي أن يعطينا ذاته في الإفخارستيا ويُظهر لنا جروحه وقيامته في آنٍ واحد.

أول أركان العهد: الله يعلن عن نفسه

العهد مرتبط أصلاً بالسقوط. ولولا سقوط الإنسان ما عرفنا كلمة "إعلان" أو فعل "يُعلِن" أو "يُظهر"، لأن السقوط حجب الله عن الإنسان. وصار الحجاب على قلب الإنسان وفكره. ولولا السقوط أيضاً ما ظهرت كلمة "غير المنظور" كوصف لله. فالقداس الغريغوري بالذات يصف الله بأنه "غير المرئي، غير المحوى، غير المبتدئ ..."، لأن كل هذه الأوصاف هي في الواقع نفي للمعرفة الفاسدة التي ورثها الإنسان من الوثنية.

لكن في الأصل، اللهُ منظورٌ ومعروفٌ. وفي الأصل، اللهُ نورٌ يعلن عن نفسه. أمَّا بعد السقوط، وبعد أن فسدت مخيلة الإنسان وقدرته على الرؤيا، صارت أوصاف الله والكلمات التي تعبِّر عنه مرتبطة بشكل واضح بالعلاقة الجديدة التي نشأت بين المخلوق الأعمى والخالق.

في العهد القديم، الله يعلن عن نفسه، وهذا هو أول أركان العهد. ذلك أنه عندما بدأ يدعو الإنسان إلى شركةٍ معه، كان يدعوه بشكل خاص إلى أن يعرفه. وهكذا دَعَى الله إبراهيم أب الآباء. ولم يكن العهد هو بركة، بل كان العهد أولاً أن يعرف الله "وظهر الرب لإبرام.. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له" (تكوين ١٢: ٧).

وظهور الله هو أمر أساسي، فهو يعلن عن ذاته، وها هو يقول: "أليس أنا الذي تجليت لبيت أبيك وهم في مصر في بيت فرعون" (١ صموئيل ٢: ٢٧)، ودَخَلتْ تلك الكلمة الهامة في لغة الأنبياء "قد شمَّر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم فترى كل

أطراف الأرض خلاص إلهنا" (أشعياء ٥٢: ١٠ – ٥٣: ١)، وكل أعمال الله القوية لم تكن مجرد معجزات أو أعمال يُبهر بها أبصار الإنسان. لقد كانت كلها إعلانات إلهية عن رحمته "لأنه قريبٌ مجيء خلاصي واستعلان بري" (أشعياء ٥٦: ١) وليست هذه صياغتنا بل صياغة المزمور "رنموا للرب ترنيمة جديدة لأنه صنع عجائب. خَلَصَتَهُ يمينه وذراع قدسه. أعلن الرب خلاصه. لعيون الأمم كشف بره" (مزمور ٩٨: ١ – ٢). هذه هي غاية الوحي وغاية العهد القديم والجديد معاً.

فالله لا يترك الإنسان في ظلمات الجهل. حقيقي إنه يعلن كلمته للإنسان ويكشف عن الوصية (عاموس ٣: ٧)، ولكنه قبل الناموس وقبل نزول الشريعة كان الإعلان عن الله: "ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء" (خروج ٦: ٢ – ٣). ولذلك كانت القضية الأساسية في العهد القديم، والتي تجعل العهد القديم يفوق بكثير الديانات الوثنية، بل والديانات غير الوثنية أيضاً، هي أن الله يعلن عن نفسه.

هذا الإعلان ليس هو الشريعة، بل هو إعلان عن شخص الله. وحتى بعد نزول الشريعة على جبل سيناء، لم يتوقف الله عن الإعلان عن نفسه، وما كتابات الأنبياء إلَّا هذه الإعلانات، إمَّا بظهورات مباشرة أو بأعمال الخلاص التي تؤكد أن الرب حاضر "Present" أو حسب التعبير العبراني والعربي "الله سار ليفتدي شعبه" (٢ صموئيل ٧: ٢٣).

وحتى يوم الدينونة هو يوم إعلان وظهور للرب (يوئيل ٢: ١٠ – ٣: ٢ – ٤)، وعلى أساس إعلان الله لنفسه وإظهار شخصه قامت العبادة في العهد القديم، وعلينا أن نتذكر أن كل الأعياد لا سيما عيد الفصح هو عيد لظهور عمل الله الخارق، وهو عيد إعلان قوة الله (راجع خروج ص ١٢) ويقول الرب: "أذكروا هذا اليوم الذي فيه خرجتم من مصر من بيت العبودية فإنه بيد قوية أخرجكم الرب" (خروج ١٣: ٣).

ولذلك فمن الأخطاء القاتلة للحياة الروحية أن يتصور إنسان أننا نعبد إلهاً

مجهولاً، أو إلهاً يعلن وصاياه فقط. فالله يعلن عن نفسه، وهذا هو أسمى ما في العهد، بل هو ركن العهد الأساسي أو الأول.

في العهد الجديد، الله يعلن عن ذاته بشكل أوضح بكثير، وعلينا أن نلاحظ أن كل الإعلانات السابقة أو الظهورات، لا سيما تلك التي تصاحبها مظاهر طبيعية غير عادية مثل البروق والرعود أو النار، كل هذه اختفت تماماً بسبب اتضاع الله العجيب وتنازله إلى مستوى الإنسان إلى الحد الذي قبل فيه أن يأخذ طبيعة جسدية[١].

قمة هذا الظهور يعبِّر عنه الإصحاح الأول من انجيل يوحنا "الكلمة صار جسداً ... والله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر" (يوحنا ١: ١٤ – ١٨). لقد جاء الابن إلينا مؤكداً لنا أن الآب أخفى نفسه عن الذين يدَّعون الحكمة والفهم، لكنه يعلن ذاته للأطفال "نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك... ولا أحد يعرف الآب إلَّا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له" (متى ١١: ٢٥)؛ ولذلك يعطي الرب الطوبى لسمعان بطرس الذي عرف أن المسيح هو ابن الله الحي، ليس بواسطة الحكمة أو القوة البشرية ولكن الآب هو الذي أعلن لبطرس (متى ١٦: ١٧).

فالله، حتى بعد التجسد، يعطي روح الحكمة والإعلان في معرفته (أفسس ١: ١٧)، والمسيح له المجد هو "نور إعلان للأمم" (لوقا ٢: ٣٢)، فالله يعلن عن نفسه في يسوع المسيح (يوحنا ١٧: ٦) وما الإنجيل إلَّا "إعلان يسوع المسيح" (غلاطية ١: ١٢) حتى بولس لا يقول إنه يعلن كلمة الرب، بل يؤكد أن الله أفرزه لكي "يُعلن ابنه" فيه (غلاطية ١: ١٦) وهذا الإعلان يتم بواسطة الروح القدس لا بواسطة الكلام (١ كورنثوس ٢: ١٠ – ١٢: ٧ – أفسس ٣: ٦ – عبرانيين ٩: ٨).

---

(١) يؤكد الآباء الذين فسروا العهد القديم، أن هذه المناظر المخيفة هي إعلان عن سيادة الله كخالق. أما في العهد الجديد، فإن الاعلان عن الخلاص والمحبة، جعل كل هذه المناظر المخيفة تختفي تماماً، ولكنها سوف تظهر مرة ثانية في يوم الدينونة، عندما يعلن الله من جديد سيادته كملك وخالق.

وهذا هو الخلاص، أن يعلن الله نفسه في يسوع بواسطة الروح القدس (يوحنا ٩: ٣ – أفسس ٣: ٥).

ولقد كنا نؤكد دائماً أن الإعلان ليس كلمات، بل هو شخص الله، وهذا هو الفرق الجوهري الهام بين المسيحية وغيرها، وعندما نقول المسيحية، فإننا نعني بشكل خاص العهد القديم وكماله أي العهد الجديد.

وطبعاً ليس الفرق بين الإعلان عن الله، والإعلان عن كلمات الله فرقاً لاهوتياً ضخماً في عقيدتنا عن الله وحسب، بل هو فرقٌ لاهوتي ضخم في علاقة الله بالإنسان. ذلك أن مَن يعلِن له الرب عن ذاته ويكشف له شخصه، يشترك في الحياة الإلهية وفي خيرات الله التي تأتي منه مباشرةً، وتصبح الصلاة مختلفة تماماً عن الصلاة لإله لا يعلِن إلّا وصاياه وأحكامه. وعلينا أيضاً أن نتذكر تلك العبارات الهامة التي يصف بها الله نفسه وهو يتحدث مع البشر، فهو يقول دائماً: "أنا الرب إلهك"، وهي عبارة تفوق الحصر في العهد القديم والجديد. فالله يدخل دنيا الإنسان ويقول له: "أنا"، وهي كلمة تعريف بالذات، وكلمة تستدعي العلاقة، وتطلب رد الإنسان عليها، ولذلك يقول الإنسان لله "أنت". وطبعاً لأن الله في القرآن لا يعلِن عن ذاته، لا نجد إطلاقاً كلمة "أنا" في الكلام عن الله.

فالله يقول "أنا"؛ لأنه يريد الإنسان، وليس طاعة الإنسان، وهو يعلن عن ذاته وليس عن وصاياه وأوامره. وهذا يؤكد دور "أسرار الله" الذي يسير مع دور "كلمة الله". فرغم أن الكلمة في العهد الجديد محدودة الوظيفة، فهي ليست الوصايا، بل هي أداة تعلن الله، علينا أن نلاحظ كيف يصف الرسول بولس اجتماعات الكنيسة الأولى التي لم يكن لديها في تلك الفترة كتاب اسمه العهد الجديد تقرأه في الاجتماعات الكنسية، لأن كلمات الرسالة الأولى إلى كورنثوس سبقت إنجيل يوحنا بما لا يقل عن خمسة عشر سنة وربما أكثر، يقول الرسول: "متى اجتمعتم فكل واحد منكم له مزمور له تعليم له لسان له إعلان" (كورنثوس ١٤: ٢٦ – وراجع أيضاً فيلبي ٣: ١٥)، فالرسول لا يقول إن الله

يعلن كلمته بواسطتنا، بل "يُظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان" (٢ كورنثوس ٢: ١٤ – ١١: ٦)، وما يظهر في كرازة الرسل هو "حياة يسوع في جسدنا" (٢ كورنثوس ٤: ١٠). ونكتفي بالطلبة الأخيرة في خاتمة الرسالة إلى رومية، فهي علاجٌ للانحراف الذي ظهر عندنا تحت تأثير الاتجاه العقلاني البروتستانتي: "والقادر أن يثبتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية ولكن ظهر الآن وأُعلِم به جميع الأمم بالكتب النبوية" (رومية ١٦: ٢٥ – ٢٦)، فالرسول يعلن ذلك السر الذي كان محجوباً أو مكتوماً "ولكن أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١ بطرس ١: ٢٠)، ذلك السر هو "الله ظهر في الجسد" (١ تيموثاوس ٣: ١٦ – ٢ تيموثاوس ١: ١٠).

إن ربنا يسوع المسيح لم يأتِ إلينا بكلمة الله، فهذا هو عمل ووظيفة الأنبياء. وما عقيدتنا في لاهوت المسيح سوى تأكيد على أن الإنسان لا يقبل كلمة، وإنما يقبل ابن الله. وهكذا عندما يصف الرسول يوحنا صلب المسيح وموته الكفاري يقول: "وتعلمون أن ذاك أُظهِرَ لكي يرفع خطايانا ... لأجل هذا أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس" (١ يوحنا ٣: ٥ – ٨)، فالرب جاء لكي تصبح حياته إعلاناً ونوراً وظهوراً لمحبة الله (١ يوحنا ٤: ٩)، وهذا الإعلان هو الحياة نفسها التي نحياها ونتذوقها (١ يوحنا ١: ٢).

هذا هو عهد إعلان الله عن نفسه، وفيه تصبح الإعلانات القديمة والظهورات التي أُعطيت، مقدِّمة لكمال الإعلان الأخير في يسوع المسيح. هذا الإعلان الأخير هو أهم ما يربطنا بالله، وهذا ما يعبر عنه القداس الإلهي بشكل ظاهر.

إعلان الله عن ذاته في القداس

القداس ليس إلَّا الاستمرار – لاهوتياً – لما أخذناه من الرسل القديسين، ولذلك لا يجب أن نندهش إذا وجدنا أن نفس الاتجاه الرسولي بارزٌ وواضح.

علينا أن نندهش فقط من جهلنا وتكاسلنا في اكتشاف ذلك العمق الروحي. والقداس هو عصارة الحياة الروحية والفكرية واللاهوتية؛ إذ لا يمكن أن تكون كنيسة عمرها يزيد على ١٩٠٠ سنة هزيلة الصلوات، عديمة الخبرة بأسرار الله. وكل ما في الموضوع هو أننا جيلٌ نشأ وتربَّى على كتب لاهوتية لا تمت بصلة للحياة الطقسية التي نحياها. ولعل أعجب ظواهر هذا العصر هو امتلاء اجتماعات درس الكتاب بالناس، وعدم امتلاء كنائسنا في القداسات بنفس العدد. هذه ظاهرة خطيرة تحتاج إلى أن نؤكد انحرافها الروحي بهذه الدراسة.

إن أول ما نلاحظه هو أن لغة الصلوات، لا سيما القداس الباسيلي بشكل خاص، لا تختلف مطلقاً عن لغة الكتاب المقدس. ونحن هنا لا نجري وراء الكلمات، وإنما نبحث عن الخط اللاهوتي الواضح الذي يربط الصلوات بعضها ببعض. وسوف نلاحظ أيضاً أن كلمة "ظهور" وفعل "يظهر" مستخدمة بشكل أوفر في القداس الباسيلي لأنه أقدم القداسات، ويحمل بساطة الكتاب المقدس ووضوحه ولغته، ولئلا نتوه في النصوص علينا أن نستعرض معاً ماذا يقول القداس الباسيلي عن ظهور الله الابن، وعلاقة هذا الظهور بسر الإفخارستيا الذي تحتفل به الكنيسة؟

يؤكد لنا القداس حقيقة أساسية جداً وهي أن هذا الظهور ليس حدثاً انتهى، بل هو ما يحدث فعلاً في كل مرة تجتمع فيها الكنيسة التي تأتي إلى مناظر الرب وإعلاناته (٢ كورنثوس ١٢: ١). ولعل خير مثال على ذلك، كلمات هذا اللحن القديم جداً الذي يعبِّر عن روح المسيحية وتقوى الأرثوذكسية:

> "خبز الحياة الذي نزل لنا من السماء وهب الحياة للعالم. وأنت أيضاً يا مريم حملت في بطنك المن العقلي الذي أتى من الآب، ولدته بغير دنس وأعطانا جسده ودمه الكريم فحيينا إلى الأبد، يقوم حولك الشاروبيم والسرافيم ولا يستطيعون أن ينظروك ونحن ننظرك على المذبح ونتناول من جسدك ودمك الكريم".

والكلمات لا تحتاج إلى تعليق؛ لأن تنازل الله وظهوره لنا هو حقيقةٌ تُختَبَر وتُعاش، فقد سكن الله في وسطنا، ولذلك صار يتجلى لنا ويظهر كملك عظيم. وبقية كلمات اللحن تؤكد هذه الحقيقة، وتصف العذراء مريم بمدينة الملك العظيم أي أورشليم، وهو ليس الوصف الوحيد، فهو موجود في أغلب القطع الخاصة بالعذراء لا سيما في التسبحة السنوية.

ويسوع الملك هو عصارة العهد القديم كله، فالملك هو ابن الله الذي سكن في المدينة العظيمة العذراء، وأصبح يتجلى في وسط هذه المدينة، أي الطبيعة الإنسانية. ونحن نعرف من كل كتابات الآباء أن مريم تمثل الإنسانية التي سكن فيها يسوع، وهي رمز الكنيسة. وعلينا أن نلاحظ أيضاً هذه الحقيقة الهامة، وهي كيف تربط الكنيسة القبطية بين العليقة وهي حادثة تجلي وظهور الله لموسى، وبين التجسد حسب تفاسير آباء الكنيسة، لا سيما هيبوليتوس وافرآم السرياني وكلاهما اشترك في وضع اللحن الخاص بالعذراء: "العليقة التي رآها موسى على مثال والدة الإله".

ويصل هذا التناسق إلى الكمال حينما تمنع الكنيسة دخول الهياكل بالأحذية؛ لأن الله يتجلى في الهيكل، ويظهر السر العظيم وهو حضور الله في الكنيسة وظهوره لنا. وقد علق القديس كيرلس عمود الدين على عدم لبس الأحذية في الهياكل وخلع الحذاء بقوله: "إن الجلد هو رمزٌ لبر الناموس الذي كان يناله كل مَن يقدِّم الذبائح في التدبير الأول، أي العهد القديم". وطبعاً لا يتجاسر أحد أن يدخل الهيكل المسيحي وهو يحمل رمزاً لبر الناموس في قدميه؛ لأن الذي نلبسه في أقدامنا هو استعداد انجيل السلام (أفسس ٦: ١٥)، وليس غريباً أن يقول كيرلس عمود الدين في صلاة القسمة: "أظهر في نفوس عبيدك مجد أسرارك الخفية".

هذا الإعلان الإلهي تمهِّد له الكنيسة بالتدريج بالفصول والقراءات والعظة ثم قانون الإيمان، ولذلك تستخدم في صلاة الكاثوليكون: "أيها الرب إلهنا الذي من قِبَل رسلك الأطهار أظهرت لنا سر انجيل مجد مسيحك ...".

ذلك أننا لا نسمع كلمات، بل ندخل في هذا السر العظيم عندما يعلِن الرب لنا ذاته، ولذلك وقبل قانون الإيمان تنهي أوشية الاجتماعات كل الطلبات بهذا النص المأخوذ من العهد القديم: "قم أيها الرب الإله وليتفرق جميع أعدائك ... وأما شعبك فليكن بالبركة..." (عدد ١٠: ٣٥). وكما نعرف من العهد القديم، فإن موسى رجل الله كان يصلي هذه الصلاة عندما يتقدم تابوت عهد الرب، الشعب في ارتحاله نحو الأرض التي أقسم بها الرب لإبراهيم.

إذن لماذا يوجد هذا النص، وفي هذه المرحلة بالذات من الصلاة؟

لأن الشعب ارتحل من مكان الموعوظين، ويستعد للدخول إلى الأرض المقدسة، أي أورشليم السمائية بتلاوة قانون الإيمان، وهو الحد الأدنى للإيمان المطلوب للشركة في الحياة الإلهية ودخول أرض الموعد أي السماء.

الخلق والخلاص استمرارٌ للعهد:

بعد هذا تتحدث كل الصلوات عن الخلق في تسبحة شكر، ثم وقوف السمائيين أمام العرش الإلهي وهم ونحن معاً في وحدة واحدة نرفع تسبحة "قدوس قدوس ..".

هذه درجة من درجات الظهور الإلهي بلا شك، وهو موضوع معروف، لأن تسبحة الشاروبيم "قدوس قدوس"، هي تسبحة الذين يحرسون شجرة الحياة (تكوين ٣: ٢٤). وهم الذين رآهم اشعياء النبي وهو في الهيكل القديم حول عرش الله وقد أمسك واحد منهم بالجمرة الغافرة[١] ولمس فم اشعياء فنزع إثمه.

وتعكس صلاة القسمة في قداس القديس كيرلس التي تبدأ: "يا الله الذي سبق

---

(١) الجمرة الغافرة هو اسم الأجزاء التي تقدم من الذبيحة حسب استعمال آباء الكنيسة القبطية لا سيما تيموثاوس الأول.

فوسمنا للبنوة بيسوع المسيح"، تعكس هذا التفسير القديم؛ لأنها تطلب من الله الذي أهَّلنا للبنوة أن يفتح عيون قلوبنا لكي نستطيع أن نرفع أعيننا إلى فوق حيث بهاء مجده القدوس، ثم تطلب بعد ذلك: "وكما طهَّرت شفتي عبدك أشعياء النبي إذ أخذ أحد السيرافيم جمرة بملقط من على المذبح.."، هنا يُستعلَن الله كسيد وخالق للكون الذي جاء إلى الوجود من العدم بواسطة الله، وهو الذي رتَّب وجوده، ووجود كل القوات السمائية واستمرارها، ويحفظها لكي تنال من قوته وتشاركه خيراته. ويعكس القداس الغريغوري هذا بوضوح (راجع صلاة قدوس قدوس....).

الخلق هو بداية إعلان الله عن نفسه، ليس فقط، قدرته الإلهية الأزلية، بل ذاته كمصدر للوجود، وهنا ينتهي الشكر على الخلق بالتسبحة الشاروبيمية. وتسبحة الله على الخلق لا تدوم أكثر من ذلك؛ لأن سقوط الإنسان أفسد جمال الخليقة، وأدخل الباطل إلى الحياة، وجعل الموت سيداً، وهذا يعلنه الرسول بولس بقوة، ويؤكد بكل وضوح أن الخليقة ستعتق (رومية ٨: ٢٠ - ٢٤).

ولذلك نحن لا ننسى أننا نقف هنا في الكنيسة كخليقة، وأمامنا عظمة الخليقة والقوة التي تم بها إخراج الكائنات من العدم، ولكن هذه الخليقة المهدَّدة بالموت تحظى بظهور ابن الله وإعلانه لنفسه، وقد صاغ القداس الباسيلي هذه الحقيقة في عبارة هامة جداً: "يا الله العظيم الأبدي الذي جبل الإنسان على غير فساد. والموت الذي دخل إلى العالم، هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"، فالمصلي يشترك في تسبحة الشاروبيم لأنه يعلم أن الفساد والموت قد تم هدمهما بظهور ابن الله.

هذا النص هو عصارة ما لا يقل عن عشرين نصاً من العهد الجديد من بولس ويوحنا بشكل خاص. ولكن التسبحة التي تنهي الكلام عن خلق الكون تمهِّد للكلام عن خلق الإنسان. وهنا علينا أن نلتفت إلى حقيقة هامة، وهي أننا هنا نلمس سبب وجودنا في الكنيسة؛ ذلك أننا لا نتحدث عن الماضي، بل نعيش الحياة بأبعادها

الحقيقية.

الخليقة حدثت منذ أزمنة سحيقة، والسقوط أيضاً مرَّت عليه أعوام يعلمها الله. ولكننا نحن الوقوف أمام المذبح المقدس شركاء في كل هذا، فالحياة ليست بعيدة عن لوثة آدم، وليست غريبة عن مراحم الله، إنها تتحرك في نطاق هذه الأبعاد الواضحة، والويل لمن لا يفهم هذه الحقيقة. ولذلك، فالقداس هو قبل أي شيء آخر، إعادتنا إلى حقيقة جوهر وأبعاد الحياة بكل ما فيها.

هنا "قدوسٌ" تلتحم بالخلق "قدوسٌ ... الذي جبلنا وخلقنا ... وعندما خالفنا وصيتك ...". والتسبحة هنا هي شكر على الخلاص، وهي شكر على الخلق أيضاً. ومن المعروف – وقد سبق وأكدنا هذا أكثر من مرة – أن الخلق والخلاص هما وجهان لعملة واحدة، أو هما عملٌ واحد ذو شقين، وقد أخطأ كل الهراطقة بدون تمييز في إدراك هذه الحقيقة الهامة، وكل مَن يخطئ ويفصل الخلق عن الخلاص، يقع في كل البدع دون أن يدري، أو يصبح معرضاً للوقوع في البدع. ولولا أن الخلق والخلاص هما عمل واحد لَمَا وَضَعَ القداس الخلق والخلاص معاً، ذلك أن القداس يردنا إلى الوعي بحقيقة كياننا وغاية وجودنا. لقد خُلقنا، وها نحن نعود إلى الله بالخلاص من الآثام والخطيئة.

وقد قلنا إن الخلق والخلاص هما عملٌ واحد لله، ولذلك لا يمكن لمن يؤمن بوعي بهذه الحقيقة، أن يفشل في فهم لاهوت المسيح وتجسده وصلبه وقيامته ثم حقيقة اتحاد اللاهوت بالناسوت ووجود الأسرار لا سيما الإفخارستيا.

وعلينا أن نتأمل هذا الأمر في إيجاز. إن الخليقة من صنع الله وقد انحرفت، ومظاهر الانحراف ظاهرة ولا جدال عليها، ولذلك، مَنْ الذي يجيء ليرد هذه الخليقة إلى وضعها القديم؟ يقول القداس الغريغوري: "مما لم يكن كوَّنت الإنسان ... وعندما سقط.. أردت أن تجدده وترده إلى رتبته الأولى، لا ملاك ولا رئيس ملائكة.... بل أنت بغير استحالة تجسدت وتأنست". هذا هو الخلق، والخلاص من عمل الله لا يمكن أن يشترك فيه أحد من المخلوقات؛ لأن المخلوقات لا تملك أن تمد بالحياة مخلوقاً آخر، لا

سيما إذا كان ذلك المخلوق من مرتبة أعلى ويحمل صورة الله في كيانه. مَنْ يمكنه أن يعيد صياغة الإنسان أو يجدده؟ لا أحد. وهكذا تُعلَن العقيدة المسيحية – لا سيما لاهوت المسيح وتجسده والثالوث. وهنا، القداس هو واقع هذه العقائد، وهو الاختبار الذي نتعامل معه في كل يوم وفي كل صلاة مع هذه العقائد.

نحن هنا في الكنيسة نختبر ونتذوق تلك الحقائق وهذا هو معنى السر.

لا يمكن ان تسير الحياة الروحية بدون عقيدة توجهها أو تحدد لها الهدف.

فليست العقيدة سوى المؤشرات أو العلامات التي تُوضع في طريق الحياة الروحية، وبدونها لا يمكن للإنسان أن يسلك هذا الطريق.

وقد أكدنا أن الخلق والخلاص هما عملٌ واحد للإله الواحد، ولذلك لا يمكن أن يقوم بالخلاص سوى الخالق، وبالتالي لا يُخلِّص سوى الخالق، فهو وحده الذي يعرف كيف يرد الخليقة إليه.

فليس طريقاً سليماً، ذلك الذي يفترض أن إعلانات الله توقَّفت بمجرد التجسد أو الصليب أو القيامة أو الصعود. وليس طريقاً سليماً، ذلك الذي يتجاهل دور الروح القدس في أن يكمل عمل المسيح ويعلنه.

إن حلول الروح القدس لم يكن مجرد عمل إضافي أو زائد، ولكن الروح القدس جاء ليمنح الإنسانية أن تتذوق ما حققه المسيح الله الابن لأجلنا.

وهذا معناه بكل وضوح ان الروح القدس، إنما "يُظْهِر" لكل إنسان عبر تاريخ الكنيسة ماذا فعل المسيح؟ ومن هو المسيح؟

فشل الهرطقات في فهم وحدة الخلق والخلاص

ومن هنا جاء تأكيد الآباء الواضح على أن إنكار لاهوت الابن يعني حتماً إنكار لاهوت الروح القدس. لأن الابن هو غاية حلول الروح القدس في الكنيسة، فالروح هو الذي يعلنه. إذن ماذا يُعلِن؟ أمخلوقاً أم الله الكلمة؟

هذا هو برهان آباء القرنين الرابع والخامس على لاهوت الروح القدس[١] لذلك رفضت الكنيسة، الاريوسية، ثم رفضت النسطورية، وهذا الموضوع بالذات لم يُدرَس في الكنيسة التي أنجبت أثناسيوس بكفاية، ولازلنا نعتبر - بشكل سطحي - أن النقاش حول لاهوت المسيح إبان المحنة الأريوسية، هو نقاش حول تفسير النصوص الخاصة بالمسيح في الكتاب المقدس والحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق.

الخلاص هو إكمالٌ للخلق، وهما شقان لعمل واحد يقوم الله به عبر التاريخ، ولذلك عندما يُخَلِّص الابن، فهو يُكَمِل غاية وجود الإنسان في الحياة.

المخلوق لا يمكنه أن يرتقي إلى رؤية الخالق بقدراته الذاتية، لا يمكنه أن يقتحم حياةً وكياناً أعظم منه.

والمخلوق لا يمكنه أن يقتحم المكانة الرفعية، ليس فقط بسبب جهله وضعف إمكانياته، بل لأن الله ليس كائناً خاضعاً لأحلام الإنسان ومطامعه. لابد أن تتوفر الإرادة الإلهية ويَقبَل الله ان يُدخِل الإنسان في حياة شركة ولقاء معه، فالتنازل الإلهي هام جداً وأساسي وإلّا تعذر كل شيء.

إذا أبقينا دائماً على الإيمان بضرورة بقاء المبادرة في يد الله، فإننا لا يمكن أن

---

(١) بالطبع توجد براهين كثيرة يمكن لمن يشاء أن يطالعها في كتاب رسائل أثناسيوس عن الروح القدس لسرابيون لا سيما الرسالتين الثانية والثالثة.

نخطئ في التعرف على فساد الهرطقات. فالله هو الذي يتنازل للإنسان، وهذا هو قلب وجوهر العطية الإلهية. إذا تذكرنا هذا أمكننا أن نفهم لماذا كانت الأريوسية والنسطورية مزعجة لضمير الكنيسة وحياتها.

اللاهوت المسيحي الصحيح هو حركة نزول الله إلينا، أمَّا الهرطقات – بكل فسادها – فهي حركة صعود الإنسان واقتحامه الحياة الإلهية.

على هذا الأساس يمكننا أن نقول إن الأريوسية وهي تَزعُم أن الابن مخلوقٌ، وليس من ذات جوهر الآب، جعلت المخلوق يرتفع بقدراته ورغباته إلى الحياة الإلهية، وفي ذات الوقت تحجب الخالق وتمنعه من الاشتراك في خلاص الإنسان.

وهنا لا يكون للخلاص علاقة بالخلق، وعلى المخلوقات أن تجد طريقها إلى الله.

الأريوسية كانت ولا تزال شراً بكل ما في الكلمة من معانٍ. هي شرٌّ لأنها تمنع الله من الاشتراك في خلاص الإنسان. وهي شرٌّ لأنها تنكر تنازُل الله وهو رب الخليقة والمسئول الوحيد عنها، لأنه هو الذي أوجدها من العدم وأعطاها الحياة وحدد لها غاية تحيا لها، وهي شرٌّ لأنها تُنكر إمكانية عطاء الله، أي "النعمة".

ماذا نقول عن الآب الذي حسب الأريوسية، يُكَلِّف مخلوقاً بإتمام الخلاص كأنه لا علاقة له بالمخلوقات، أو كأن الخلاص هو عمل ضئيل يمكن أن يقوم به مخلوق بكل إمكانياته المحدودة العاجزة؟ هذا التصور الشرير الخاطئ جعل الكنيسة الأرثوذكسية تحارب الأريوسية بكل طاقتها.

وهنا يبرز سؤال: ما علاقة الأريوسية بالكلام عن ظهور الله؟

والجواب واضح جداً، إن الله يَظهر لنا في القداس لكي يعطينا الحياة الجديدة، ويُكَمِّل غاية خلقنا أو بعبارةٍ أخرى لازلنا نحاول أن نشرحها: إن الله يظهر لنا لأن الخلق والخلاص هما عملٌ واحد.

والخلاص هو عودة إلى الاشتراك في الحياة الإلهية، وهو عودة إلى الله نفسه. وقبل الكلام عن مجيء المسيح لخلاص الإنسان، نشترك في تسبحة الشاروبيم، وفي تأكيد وجودنا في حضرة الخالق الكريم.

ولكي لا يتفرع الكلام عن الخلق والخلاص نعود إلى الوراء قليلاً، إلى النسطورية، وهي مثل الأريوسية، شرٌّ رهيب لأنها مثل الأريوسية، أنكرت اشتراك الله المباشر في خلاص الإنسان.

المسيح في النسطورية إنسان. والمسيح في الأريوسية إلهٌ مخلوق، وكلاهما يتفق حول حقيقة واحدة، وهي أن الله لم يشترك في الخلاص.

الأريوسية تؤكد ألوهية مخلوقة، والنسطورية تؤكد إنسانية (مخلوقة) تسعى نحو الله، والذي يضيع هو الإنسان. وكما يقول القديس أثناسيوس الرسولي، لم تتقدم الإنسانية خطوة واحدة في طريقها إلى الله. ولم تستفد الإنسانية شيئاً، لأن فائدة الإنسانية الأساسية هي في اشتراكها في حياة الخالق[١] والذين درسوا بعمق، كتاب تجسد الكلمة أمكنهم أن يدركوا ما هي البراهين التي سوف يقدِّمها أثناسيوس عن لاهوت المسيح والتي سوف تظهر بعد ذلك عند القديس كيرلس السكندري.

كان القديس كيرلس منزعجاً من النسطورية لأنها حوَّلت السر المجيد، أي الإفخارستيا إلى وليمة بشرية، وجعلت البشر آكلي لحوم بشرية لأنهم يأكلون جسد إنسان. ولكن الطعام المقدس الذي تأكله الكنائس هو جسد الابن الله الكلمة الذي يعطي الحياة ويهب الإنسان الخلود وعربون القيامة (الرد على نسطور ١: ٢٣). ألسنا من جديد أمام هذه الظاهرة الغريبة جداً في الفكر البشري التي تصوِّر الإنسان بأنه قادر على أن يُخَلِّص نفسه. هذه مأساة فعلاً؛ لأن الإنسان الذي يخلص نفسه يبدأ بالضعف

---

(١) يمكن دراسة هذه النقطة بتوسع في كتابنا حوار مع صديق – الحوار الثاني عن التجسد. منشور على موقع www.coptology.com

البشري وينتهي إلى الفراغ، إلى حيث تقوده أحلامه إلى حياة بعيدة عن الله.

هذه النقطة الحاسمة هي قلب المسيحية وجوهرها، وهي بالتالي ليست جدلاً حول تفسير نصوص الكتاب المقدس الخاصة بالمسيح، وإنما هي جدلٌ يدور حول خلاص الإنسان ومعناه وغايته. والمصيبة الكبرى هي أننا قد نتصور أن الموضوع كله هو جدل عقيم لا فائدة منه. أما الحقيقة فهي أنه جدل حول علاقة المخلوق بالخالق، وهو جدل لا زال يمس – في الصميم – كل ما نفعله في كل يوم نقف فيه حول المذبح ونصلي تلك الصلوات القديمة التي تحتاج اليوم لمن يكشف، ليس عن أصالتها التاريخية فقط، بل أيضاً صدقها وارتباطها بالتقليد الحي الآتي من المسيح له المجد ومن الرسل.

عندما نصلي نحن ندخل في شركة، ونتذوق ذلك الإعلان أو ذلك الظهور المجيد الذي فيه ننال هذه الشركة الإلهية، وعلينا أن ندرك هذه الحقيقة من مجرد لمس الكلمات التي يستخدمها القداس الباسيلي:

(أ) التجسد استمرارٌ لظهور الله: "الموت الذي دخل إلى العالم هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد. وفي آخر الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة ... بابنك الوحيد".

(ب) وعندما يعبِّر القداس عن حقيقة حضور المسيح في الإفخارستيا، وبعد استدعاء الروح القدس على القرابين يقول الكاهن في الصلاة السرية: "نسألك أيها الرب نحن عبيدك الخطاة غير المستحقين نسجد لك بمسرة صلاحك ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة ويطهرها وينقلها ويظهرها قدساً لقديسيك" ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉϥⲟⲩⲟⲛϩⲟⲩ.

فالروح يُعلن ويُظهر أن الابن على المذبح بجسده ودمه. هذا الإعلان ليس مسألة حسابية أو موضوعاً خاضعاً للمنطق وقدرات الإنسان. ولذلك وقبل أن يتكلم الكاهن عن أحداث العلية في يوم الخميس الكبير، يمهد بعبارة مأخوذة من (١ تيموثاوس

٣: ١٦) "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد". وعبارة القداس تأخذ الحقيقة الواضحة: "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى".

وفي الخاتمة وبعد التوزيع تقول الكنيسة صلاة شكر هي خاتمة كل ما حدث في القداس:

> "فمُنا امتلأ فرحاً ولساننا تهليلاً من أجل تناولنا من أسرارك غير المائتة يا رب؛ لأن ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، أعددته يا الله لمحبي أسمك القدوس، هذا أعلنته للأطفال الصغار الذين لبيعتك المقدسة. نعم أيها الآب إن هذه هي المسرة التي كانت أمامك لأنك رحيم".

وقد نحتاج لمحاضرة مستقلة خاصة عن هذه الصلاة، ولكن يمكن أن نقف قليلاً حول الكلمات التي وضعنا تحتها هذه الخطوط. إنها مفتاح لكل ما في القداس. وهي تشرح لنا سر هذا الاهتمام غير العادي الذي يحدث عندنا عندما تقام صلاة القداس، أي الأسرار غير المائتة التي يعلنها الله للأطفال الصغار، أي أبناء الكنيسة، وهذه هي المسرة الكائنة أمام الآب السماوي لأنه رحيم.

ويمكننا أن نرى كيف تضع الصلاة ذلك النص العجيب الذي نطق به القديس بولس عن السماء الثالثة حيث سمع ما لم تسمعه أُذن وما لم يخطر على قلب بشر، فهذا الاختبار هو في متناول أيدينا حسب مسرة ورحمة الآب، وهو الذي يعلن لنا هذه الرحمة غير المدْرَكَة. ويا لعِظَم مراحم الله، لقد جاء الابن و "أظهر لنا نور الآب"، بل و"أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية". ولا يتوقف العطاء؛ لأنه لا حدود للمحبة، ولذلك تُكَمِّل الصلاة: "الذي أظهر لنا هذا السر العظيم الذي للحياة" (القداس الغريغوري).

هذه ليست ظهورات، بل ظهورٌ واحد تُعبِّر عنه خاتمة القداس الكيرلسي: "أظهرت لنا هذا السر جميعه، هذا المخفي منذ الدهور... لكي يُظهَر الآن... " وعندما نقول "الآن"، فنحن نؤكد أن هذا يتم فعلاً وحقاً.

ثاني أركان العهد: الدوام والاستمرار

العهد ليس مؤقتاً أو لفترة معينة من الزمان، ولا حتى العهد القديم، كان يمكن أن يكون لفترة زمنية. ويعلق الرسول على ذلك بقوله: "لذلك إذ أراد الله أن يزيد ورثة الموعد بياناً لعدم تحول عزمه، توسط بالقَسَم، حتى نحصل بميثاقين لا يتحولان ولا يمكن أن يكذب (يرجع) الله فيهما ..." (عبرانيين ٦: ١٧ – ١٨). فالعهد قد تأكد بالقَسَم وكلاهما لا يمكن أن يغيِّرهما الله، وفي هذا الإطار لا نملك إلَّا أن نقول إن العهد الجديد لم ينقض العهد القديم، بل أكمله، وعلينا أن نحترس في فهم معنى كمال العهد، فالمسيح لم يأتِ لكي ينقض بل ليكمل. وهذا لا يعني سريان كل القواعد القديمة الطقسية والاغتسالات والتطهيرات والذبائح وما إلى ذلك، بل بقاء المواعيد، وتحوُّلها إلى صورة أكمل. فالمواعيد هي جوهر العهد وإذا زالت الطقوس القديمة بقيت المواعيد (كولوسي ٢: ١٦ – ٢٣).

كان الاتفاق القديم أو الميثاق القديم مع شعبٍ واحدٍ هو شعب إسرائيل، فصار مع الإنسانية، وبعد أن كان في بقعةٍ واحدةٍ، صار في كل الأرض. وبعد أن كان بعدة ذبائح صار بذبيحةٍ واحدةٍ. وبعد أن كان بعدة اغتسالات صار بالاغتسال الواحد: المعمودية المقدسة التي أبطلت قدرة الماء على التطهير، حيث أنها ليست لإزالة وسخ الجسد، بل وسخ الجسد والروح معاً بقوة قيامة يسوع المسيح من بين الأموات، فهو الذي أزال لعنة الموت، وهي اللعنة الوحيدة التي جلبت الدنس الحقيقي للإنسان (١ بطرس ٣: ٢١ – ٢٢).

فالعهد قائمٌ، والله الذي تجلَّى قديماً وقال: "أنا إله إبراهيم واسحق ويعقوب" هو الذي يقول الآن للكنيسة: "خذوا كلوا... خذوا اشربوا..."، فهو يقول: "ها أنا معكم كل يوم"، وليس في ذلك غرابة. يقول أغناطيوس الأنطاكي: "وإلهنا يسوع المسيح عاد إلى حضن أبيه وبذلك صار يتجلى لنا بمزيد من الوضوح" (إلى الرومان ٣: ٣). وبكل تأكيد يمكن لمن يدقق في قراءة العهد الجديد، أن يرى كيف ترتبط المعمودية بنوع خاص،

في أغلب النصوص التي تتحدث عن المعمودية بالقيامة والصعود والجلوس عن يمين الآب (راجع بشكل خاص كولوسي ٢: ١٦ – ٢٣، ١ بطرس ٣: ٢١ – ٢٢).

فالذي يعتمد للمسيح يقوم معه ويطلب ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الآب.

وعندما وعد الله إبراهيم كان العهد قبل الناموس بأربعمائة وثلاثين سنة (غلاطية ٣: ١٧)، فلم يكن الناموس ثم العهد بل العكس، كان العهد ثم الناموس. وماذا يقول الرسول عن الناموس، يقول إنه "زِيدَ بسبب التعديات"، أو هو بكل دقة إضافات لاحقة للعهد لا يمكن مطلقاً ان تُقَلِّل من العهد أو تقضي عليه ... فالعهد باقٍ، حتى مجيء المسيح الذي هو نسل إبراهيم (غلاطية ٣: ١٦)، وعندما نزل الناموس على يد موسى، كان موسى هو الوسيط بين الله والشعب أي بين طرفين، أما عندما نطق الله بالعهد لإبراهيم لم يكن في هذا أي وسيط، بل كان الله وحده هو الذي وهب، وهو الذي أعطى (ترجمة حرة لنص غلاطية ٣: ١٩ – ٢٠، وهو نصٌ صعبٌ جداً).

ومن هذا نُدرك أن توسط الله نفسه، وقيام العهد يعني بكل دقة أن العهد هبة من الله (رومية ١١: ٢٧ – ٢٩). وهذه الهبة هي أن"ينزع الرب خطايا شعبه" (رومية ١١: ٢٧)، ولذلك يتوجه بولس بالكلام للأمم الذين هم غرباء تماماً عن كل ما وعد به الله للآباء (أفسس ٢: ١٢)، ولكنهم سينالون كل هذا في المسيح دون العودة إلى اليهودية وإلَّا بطل تماماً صلب المسيح وقيامته وبطل تماماً حلول الروح القدس.

وعندما يقارن بولس بين الخدمة الأولى التي ظهر فيها مجد عظيم، جعل الشعب يخاف أن يرى وجه موسى يقول: "إذا كانت خدمة الناموس التي كَتَبَتْ بكل وضوح، أن من يتعدى الناموس يموت، فكم بالحري خدمة الحياة التي تقيم الموتى والتي لا تسمح مطلقاً بهلاك من يطلب الله"، وهكذا يقارن الرسول بين الخدمة الأولى الزائلة والخدمة الثانية الباقية أو الدائمة (راجع بدقة ٢ كورنثوس ٣: ٣ – ١١)، ليؤكد بقاء خدمة المسيح، فهي خدمة حياة.

العهد الأول يشبه – إلى حد كبير – هاجر التي رغم أنها ولدت ابناً لإبراهيم إلَّا أن هذا الابن كان مولوداً حسب الجسد، أي ولادة طبيعية لا يوجد فيها أي تدخل الهي، أما العهد الجديد فهو يشبه إلى حد كبير سارة التي ولدت ليس حسب الجسد ولادة طبيعية، بل بالموعد أي من الله، ولذلك نحن مثل إسحق أولاد الموعد (غلاطية ٤: ٢٨)، أي أننا نسل إبراهيم ولكن ليس بالولادة الجسدية، بل بالولادة الروحية بالقوة الإلهية التي تتدخل في حياتنا.

إذن العهد قائمٌ على عمل الله الفائق وليس حسب قوانين الطبيعة أو الانتساب الجسدي، فهو عهدٌ جديدٌ ليس فيه دخل للوراثة في موضوع الهبة، وليس فيه مجال لوجود العلاقة الجسدية، ولا ضمان له إلَّا المسيح يسوع وحده.

وكما رأينا إن الرسول بولس يؤكد أن الوسيط هو بين اثنين (راجع شرحنا السابق لغلاطية ٣: ١٩ – ٢٠) يقول بكل وضوح في مناسبة أخرى إن الوسيط بين الله والناس هو "الإنسان يسوع المسيح" (١ تيموثاوس ٢: ٥). حيث استُخدمت نفس الكلمة اليونانية في معناها الشائع أي الوسيط، إلَّا أنه حيث الكلام عن العهد لا يوجد وسيط مطلقاً والضامن لهذا العهد هو يسوع المسيح، وهذا الضمان هو هبة، وليس وساطة.

لقد مات على الصليب وقدَّم دمه فديةً عنا. هذا الدم ليس مجرد موت على الصليب بل هو دم العهد. وقد أضاف الرسول بكل دقة "دم العهد الأبدي" (عبرانيين ١٣: ٢٠ – ١٢: ٢٤). إن دم العهد (عبرانيين ١٠: ٢٩)، هو الذي قام به يسوع من بين الأموات حسب قول الرسول. والقيامة هنا في الرسالة إلى العبرانيين هي تأكيد ليس لحياة يسوع المسيح فقط، بل تأكيد على دوام كهنوته كرئيس كهنة وهذه نقطة حاسمة تفصل بين الأرثوذكسية والبروتستانتية؛ لأن كهنوت المسيح هو عمل دائم يستند على الحياة الجديدة التي يهبها لنا – لا سيما – في الأسرار (راجع الفصل الأول: المسيح والكاهن في الصلوات السرية)، بينما في أغلب الأحوال، المسيح عند البروتستانت، هو شفيع يتوسل عن خلاص المؤمنين أمام الآب مستنداً على موته على الصليب، ودخول

شفاعة المسيح وتوسله للآب عن المؤمنين معناه أصلاً أن سفك دم المسيح على الصليب قد انتهى عمله تماماً، وهذه صورة تشبه تطرف الأريوسية وتنال من كرامة الابن ووحدة جوهره مع الآب، بل إنها تُبعد الآب تماماً عن عمل الخلاص وتُصوره بالغاضب القاسي الذي لا يمكن تهدئته إلَّا بتوسل الابن، وهي صورة نابعة من المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر، مجتمع الإقطاع والسيادة المطلقة، الذي يتمكن فيه الوجهاء أي النبلاء وحدهم من الحديث مع الملك.

أمَّا في الأرثوذكسية، فالآب في الابن وبالروح القدس يُخلص المؤمنين، والمسيح الكاهن هو الشفيع في حياته وموته، وعن عمدٍ وضعنا كلمة الحياة قبل الموت، فهو شفيعٌ لأنه حي، وشفيعٌ لأن حياته تحمل هبات موته أي المصالحة مع الله.

كيف تأسس العهد؟

إن دراستنا لا تسمح لنا بأن نتناول في استطراد ذلك الموضوع العميق أي موضوع العهد، لا سيما ما في العهد القديم من نصوص كثيرة جداً. ثم في العهد الجديد حيث استُخدمت الكلمة عند بولس ٣٦ مرة منها ٢٧ مرة في العبرانيين وحدها.

ولكن العهد كما رأينا هو منحة أو ميثاق ترتبط به المواعيد وتؤكده الضمانات التي منها القَسَم، فالله أقَسَمَ أن يحقق مواعيده "ليصنع رحمة مع آبائنا ويذكر عهده المقدس.. القَسَم الذي حلف لإبراهيم أبينا" (لوقا ١: ٧٢). كان العهد والقَسَم هو أن الله قال لإبراهيم: "وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض" (أع ٣: ٢٥)، ولكن علينا أن نرى كيف يفسر القديس بطرس هذا العهد والقسم "فلأجلكم أولاً أقام الله فتاه يسوع ... وأرسله لكي يبارككم فيرتد كل واحد عن شروره" (أعمال ٣: ٢٦).

إذن الوعد بالبركة هو القيامة، ويسوع الحي جاء لكي يبارك كل واحد ويرده عن شروره بالقيامة من الأموات، ثم هو أيضاً قبول الروح القدس "لأن الموعد هو لكم.." (أع ٢: ٣٩)، فالموعد ليس كلاماً يقال للإنسان، إنه خارج نطاق الكلمة، أي أن الكلمة

تبشيرية، ولكن الله يحققه. ولذلك علينا أن لا نخلط بين مواعيد العهد القديم، ومواعيد العهد الجديد، فالأولى كانت قائمة على الكلمة الإلهية، وعلى تحقيق هذه المواعيد في المستقبل، أمَّا الثانية فهي قائمة على الخلاص في المسيح وعلى تحقيق هذا بالروح القدس الحاضر فعلاً في الكنيسة، وهذا هو السبب الذي يجعل الرسل يقتبسون ذلك النص الممتاز (من أرميا إصحاح ٣١)، عن العهد الجديد حيث سيكون الله ساكناً في شعبه وسكنى الله هي غاية العهد الجديد.

العهد إذن ينقل الموتى إلى الحياة، والخطاة إلى القداسة، وهو تحقيق لما فعله المسيح لأجلنا، ولذلك يرتبط هذا العهد بالإفخارستيا، وهذا ظاهر تماماً من الكلمات الواضحة التي استخدمها ربنا يسوع في تأسيس السر في العلية قبل موته.

"ثم أخذ الكأس... هذا هو دمي الذي للعهد الجديد".. (مرقص ١٤: ٢٤ – متى ٢٦: ٢٨ – ١ كورنثوس ١١: ٢٥ – لوقا ٢٢: ٢٠). الدم نراه مسفوكاً عنا في الإفخارستيا، والجسد نراه مكسوراً عنا في ذلك السر المجيد – الذي كما قلنا سابقاً – لا يتناول موت المسيح فقط، بل قيامته أيضاً أي العهد كله، ولذلك أيضاً لا يضع القداس ما حدث يوم الخميس الكبير في العلية قبل الصليب والقيامة، بل بعد الصليب والقيامة، لأن هذا السر سوف لا يكمل إلَّا بعد قيامة المسيح. وهذا هو السبب في تقسيم القربانة بدون فصل عندما يقول الكاهن "أخذ خبزاً .. وقسَّمه"، فهو يفصل القربانة إلى ثلث وثلثين؛ لأن ما حدث في العلية هو المرحلة الأولى التي أكملها بالصليب والقيامة وحلول الروح القدس، ولذلك لا يتم تقسيم الجسد إلَّا بعد حلول الروح القدس تأكيداً على اكتمال سر المسيح الذي يعلنه الروح وحده.

الدم والعهد:

في سنة ١٠٥٩ ميلادية طلبت الكنيسة الرومانية من أحد قادة ذلك العصر يدعى "*Berengar*" أن يوقِّع على منشور يقول فيه عن الإفخارستيا: "إنه بشكل

منظور وليس بطريقة سرية"*Sacramental*" نرى دم المسيح في يد الكهنة، ويُمضَغ جسده بأسنان المؤمنين". وطبعاً كان رد ذلك الإنسان هو أنه وَضَعَ القيامةَ كنقيضٍ لفكرة أكل الجسد وشرب الدم، وقال بالحرف الواحد: "إن جسد المسيح القائم من بين الأموات لا يمكن مضغه أو تقسيمه، فهو جسدٌ غير قابل للفساد". هذا التعارض بين القيامة والإفخارستيا هو تعارضٌ مصطنع، وليد الجدل الغربي الفلسفي وليس اللاهوتي حسبما يشرح اليوم لاهوتيون أفاضل من الكاثوليك والبروتستانت. وقد تمخَّض الجدل الفلسفي وولد تعبيراً جديداً معروفاً في اللاتينية فقط ولا وجود له في اليونانية، وهو تعبير الاستحالة الجوهرية "Transubstantiation".

وهو يعني أن الخبز والخمر يتحولان في جوهرهما إلى جسد المسيح ودمه. بينما يظل شكلهما من الخارج خبزاً وخمراً. هذا التعارض بين الجوهر Substance وبين الشكل أو العَرَض Accident هو أحد دعائم فلسفة أرسطو الخاصة بعلم الطبيعة وما وراء الطبيعة. وهنا لم يعد حضور المسيح سراً بل موضوعاً جدلياً يدخل في إطار التحديد العقلي لفلسفة معينة، أصبح من المؤكد اليوم أنها غير صحيحة ولا تواكب الاكتشافات الحديثة في علوم الطبيعة والكيمياء[١] ولعل الأهم من هذا كله هو أن الإفخارستيا لو خضعت للتحليل الفلسفي القديم أو الحديث لما استطاع واحد مهما كانت مقدرته الإجابة على الاعتراضات الفلسفية التي يمكن أن تُثَر. ورغم أن الكنيسة الكاثوليكية تبنَّت تعليم "الاستحالة الجوهرية" منذ مجمع ترنت إلَّا أن محاولات التفسير لم تكن موفقة بالمرة. ولعل خير مثال على ذلك هو تفسير لوثر الذي أكد على اتحاد الطبيعتين في المسيح الواحد، وقال إن اللاهوت لا يلغي الناسوت ولا الناسوت يلغي اللاهوت، وعلى نفس القياس فالمسيح الإله المتجسد في الإفخارستيا لا يلغي الخبز والخمر ولا الخبز والخمر يلغي ناسوت المسيح ولاهوته ... وهذا معناه أن الإفخارستيا ليست حضوراً حقيقياً

---

(١) لا يميز العلم الحديث بين جوهر المادة وشكلها، لا سيما بعد اكتشاف تركيب الذرة. فالجوهر والعرض واحد، ومع معرفة الآباء جميعاً بالفلسفة اليونانية، إلَّا أنه ولا واحد منهم حاول أن يشرح ما يحدث في الخبز والخمر، لأن هذا هو عمل الروح القدس، وليس الإدراك العقلي أو التحليل الفلسفي.

للمسيح، وطالما أن المسيح هو المسيح والخبز هو الخبز، فماذا يأخذ المؤمنون في الإفخارستيا؟ المسيح أم الخبز؟ طبعاً لا توجد إجابة شافية عند لوثر.

كل هذه المحاولات تؤكد لنا بشكل واضح أننا نحاول إخضاع السر للإدراك البشري. وآباء الكنيسة لم يستخدموا مطلقاً عبارة "الاستحالة الجوهرية"، ولكنهم لم يقولوا أيضاً ان الخبز هو خبزٌ، بل الخبز هو جسد المسيح. ولم يحاول واحد منهم أن يُخضِعَ هذا السر للعقل، ولعل محاولات الغرب تؤكد أننا لا نستطيع إخضاع السر للفلسفة ولا لأي مصطلحات بشرية، ويكفي أن نذكر في هذا المجال أن الخولاجي القبطي لا يذكر تعبير "الاستحالة الجوهرية"، بل فقط "الاستحالة"، والفرق بين الاستحالة الجوهرية والاستحالة هو أن الأولى فلسفية تأتي من أرسطو، والثانية تؤكد تحول الخبز والخمر دون أن تشرح كيف؛ لأن الشرح معناه الوقوع في الهرطقة. وقد راعت الصلوات القبطية الجانب السري واكتفت بكلمة: "وهذا الخبز يجعله جسداً مقدَّساً له" دون أن تشرح كيف ولماذا؟ فكل هذه الأسئلة لا مجال لها؛ لأننا لا نأكل المسيح مثل طعام الغذاء أو العشاء، وإنما نتحد به هو شخصياً بجسده ودمه ولاهوته. ذلك أن العهد هو حضور المسيح بيننا، ذلك الحضور السِّري الذي لا مجال لاكتشافه حسب مقاييس الفلسفة والمنطق بكل فروعه.

المصطلحات اليونانية عند الآباء، وهل تعني الاستحالة الجوهرية؟!!

ثار جدلٌ طويل في مطلع القرن التاسع عشر حول معاني المصطلحات اليونانية التي استخدمها آباء الكنيسة لا سيما في القرون الخمسة الأولى. وهل تؤدي هذه المصطلحات في النهاية إلى الاعتقاد بالاستحالة الجوهرية، أم بالاستحالة فقط دون تحديد نوع التغير الذي يحدث.

وقبل أن ندرس كل كلمة يونانية علينا أن نلاحظ ما يلي:-

(أ) من الممكن طبعاً ترجمة الكلمة اللاتينية "Transubstantiation" إلى ما يقابلها في اليونانية Μετουσιωσις، ولكن يظل السؤال الهام. هل استعمل الآباء هذه الكلمة الفلسفية؟ والجواب القاطع بكل تأكيد لا. فالآباء يتكلمون عن الاستحالة دون تحديد.

(**ب**) والكلمات اليونانية الشائعة عند الآباء هي:

Transmade	=	Μεταποιουνται
Transelemented	=	Μεταστοιχειουνται
Transfigured	=	Μεταρρυθμιξει
Transfashion	=	Μετασκευξει

(ج) إن القداسات الشرقية كلها تقول: "وهذا الخبز يجعله" أو "يقدِّسه" مثل قداس يعقوب الرسول: "قدِّسه واجعله" Αγιασκη και ποιηση وقداس مار مرقس المنسوب للقديس كيرلس السكندري، وحسب النص اليوناني القديم "قدِّسه وكمِّله واجعله".

والقداس الباسيلي اليوناني والقبطي: "ليحل روحك القدوس ليقدِّس ويطهِّر (يقيم أو appiont) ويجعل". وقداس يوحنا ذهبي الفم: "واجعل هذا الخبز الجسد الكريم لمسيحك، وهذا الذي في الكأس دم مسيحك، وغَيِّرهما Μεταπαλων بروحك القدوس".

التغيير والتحول:

١- الكلمة الأولى "Transmade" أو "Μεταποιουνται" هي من أكثر الكلمات عند غريغوريوس النيسي.

يكتب غريغوريوس في تعليمه للموعوظين عن الإفخارستيا ويقول:

"لأن الطبيعة الإنسانية مزدوجة، مركبة من نفس وجسد، فالذين يخلصون، إنما يخلصون نفساً وجسداً، وعندما يتبعون ذاك الذي يقودهم للحياة، فالنفس تتحد (تمتزج) بالمسيح بالإيمان، وبذلك تنال فرصة الخلاص، والاتحاد بالحياة (المسيح) يعني الاشتراك في الحياة. أما الجسد فله طريق آخر للاشتراك والاتحاد والامتزاج بمن يُخَلِّص (المسيح). فالذين بالشر قد أخذوا سماً قاتلاً يحتاجون إلى دواء آخر، له قدرة على القضاء على السم، وهكذا الذين ينالون الترياق، يعمل الترياق في أحشائهم للقضاء على السم، ومن الأحشاء تسري قوة الترياق إلى كل أجزاء الجسد ... وما هو الترياق؟ هو الجسد الذي صار ظاهراً كأقوى من الموت، والذي صار بداية الحياة. وكما يقول الرسول إن خميرة صغيرة تخمر العجين كله، هكذا ذلك الجسد الذي نال عدم الموت من اللاهوت، يصبح فينا، مُغَيِّراً ومُحَوِّلاً Μεταποιει και Μεταποιησιν الكل إلى ذاته ... ولا شيء يمكن أن يجيء إلى الجسد إلَّا بواسطة الطعام والشراب الذي يقوت الجسد ... وهكذا جسد الخلود يصبح في كل مَن يأخذه، ويحوله إلى طبيعته (عدم الموت أو الخلود).... كما أن أجسادنا لا يمكن ان تحيا إلى الأبد في حياة خالدة إلا بالاشتراك في الخالد وعديم الموت ... وهذا ندركه من اعتبارنا كيف أن جسداً واحداً يُوَزع على ربوات وربوات من المؤمنين في كل العالم، يصبح كله (الجسد) في كل واحد، ويظل كما هو دون أن ينقص" (٣٧).

فما هو التحول أو التغيير الذي يعنيه غريغوريوس النيسي؟

من المؤكد أن المثال الواضح عند غريغوريوس، وباقي الآباء هو المعمودية، حيث يتم التغيير والتحول في مياه المعمودية، وبالتالي في النفس والجسد. يقول غريغوريوس النيسي:

"إن التحول Μεταποιησις في حياتنا الذي يتم في التجديد، لا يصبح تحولاً إذا ظللنا على ما نحن عليه. إنني لا أعرف كيف يمكن أن يصبح إنساناً آخراً مَن يظل في نفس الحالة، التي كان عليها، دون أن يتغير في صفاته. ولكن التغيير الذي نناله والتجديد الذي Μεταποιηση يعيدنا إلى حالتنا الأولى هو أمر ظاهر لكل واحد. ولكن الطبيعة الإنسانية تظل كما هي بعد المعمودية، وإني أعني الإدراك والذكاء والقدرة على الفهم وكل صفات الطبيعة الإنسانية الأخرى التي لا تتغير ..." (٤٠).

إذن التغيير الداخلي في المعمودية لا يشمل الصفات الإنسانية العادية، وإنما يتم فيه تغيير النفس والجسد إلى حياة عدم الموت.

هـذا التغيـير يأخـذ قوتـه وأصـله مـن المسـيح نفسـه. وهـذا واضـح جـداً عنـد غريغوريوس وعند باقي الآباء:

"إننا نقول إن الجسد الذي أخذه المسيح والذي تألم به، اتحد باللاهوت وتغيَّر Πεποιησθαι بالاتحاد واكتسب طبيعة من الذي اتحد به" (مقالة ٤).

إذن التغيير تم في ناسوت المسيح، وننال نحن هذا التغيير في مياه المعمودية، ثم في الإفخارستيا. هذا التغيير نفسه يحدث فينا بقيامتنا من الأموات، وهي ذات القيامة التي نناها من المسيح. يقول كيرلس الأورشليمي:

"هذا الجسد يقوم مرةً ثانية، ولا يظل جسداً ضعيفاً، بل هو نفسه يقوم ولكن يلبس عدم الفساد ويتحول، مثل الحديد الذي يوضع في النار، يتغير إلى نار ..." (تعليم الموعوظين ١٨:١٨).

فالحقيقة الواضحة التي سنراها عند الآباء هي أن ما حدث في ناسوت المسيح،

أي ما حدث في القيامة بشكل خاص، يعطي لنا في الإفخارستيا، بشكل سري نناله عندما تصبح حياة المسيح وقوته هي العنصر الفعال.

يقول غريغوريوس النزينزي:

"إذا هاجمك الشيطان بالطمع وأراك كل ممالك العالم في لحظة من الزمان وأوهمك بأنها له، وسألك أن تعبده، فاحتقره كمن لا يملك شيئاً، وقل له وأنت متحصن بختم المعمودية إني صورة الله، صورة المجد السماوي، ولم أسقط من رتبتي مثلك بسبب الكبرياء، إني لبست المسيح وتحولت بالمعمودية إلى المسيح Ξρισον Μεταποποιημαι" (مقالة ٤٠: ١٠).

هذا التحول، الذي يتم في المعمودية، عندما تنال النفس ومعها الجسد قوة المسيح وحياته، هو نفسه الذي يتم في الخبز والخمر، لكي تنال النفس والجسد ما سبق وأخذته في المعمودية، وهذا العنصر واضح جداً في كل صلوات المعمودية لكل الكنائس الشرقية الأرثوذكسية: الأقباط – السريان – الأرمن – الروم. هؤلاء يطلبون ليس فقط تحول الماء إلى قوة حياة، بل تحول المعمدين أيضاً إلى حياة المسيح وقوته.

٢– واذا درسنا الكلمة الثانية:

Μεταστοιχειουνται Transelemented

ومع أننا لسنا قادرين في اللغة العربية على استخدام كلمة أخرى غير تحوُّل أو تغيير، إلَّا أن هذه الكلمة بالذات مثل الكلمة السابقة، تستخدم للكلام عن ناسوت المسيح، الذي يشبه الجمرة المشتعلة بالنار، تكتسب طبيعة النار دون أن تفقد طبيعتها. وهكذا صار التشبيه عند كيرلس السكندري وغريغوريوس النيسي وغيرهم من الآباء (حياة موسى: ١ – شرح المزامير مزمور ١٥٠: ٥).

ونفس الكلمة تُستخدم لجسد القيامة الخاص بنا، وهي نفس الكلمة التي

تُستخدم لقيامة المسيح، يقول غريغوريوس النيسي:

"في القيامة سوف يتحول الجسد إلى عدم الفساد Μεταστοιχειωθεν" (عظة على النشيد ١: ٣).

بل إن هذا التحول بدأ أصلاً في المسيح عندما وُلِد من العذراء واتحد لاهوته بناسوته:

"يا ليتنا نسمع جيداً الكلمات السماوية التي تصف بها الأسفار المقدسة جمال الحَبَل العذراوي. لنسمع الذين من لحم ودم وقد تغيَّرت Μεταστοιχειωθεντες إلى هذه الطبيعة الروحية" (عظة على مزمور ١٣٩: ١٨).

وإذا درسنا هذه الكلمة بالذات عند القديس كيرلس، فإننا نكون أمام وحدة متكاملة من الشرح اللاهوتي الجيد، ولكن هذه الوحدة المتكاملة مبعثرة، هنا وهناك في تفاسير القديس كيرلس، لكنه – بشكل دقيق متناسق – يربط هذا التحول في الإنسان إلى ما حدث أولاً في التجسد:

"لقد أخذ طبيعتنا، لا لكي يصبح شريراً مثلنا بل لكي يجعلنا أخياراً، محوِّلاً Μεταστοιχειωσας إيانا بالروح القدس إلى كل الفضائل" (تفسير سفر العدد ٢: ٤).

"وهذا التحول بالروح القدس هو تحول في "عقل الإنسان يجعله قادراً على أن يبتعد عن رموز الناموس وظلاله ويختار جمال عبادة الله بالروح القدس والحق" (تفسير يوحنا كتاب ١٠: فصل ١٣).

هذا التحول الذي بدأ في المسيح تحقق في القيامة[١] فهو ليس تحولاً جاء بسبب الاتحاد فقط، وإنما عندما مات المسيح وقام، وقبل القيامة "لم يكن ربنا يسوع المسيح قد حول Μεταστοιχειωση هيكله إلى المجد الذي يليق به" (تفسير يوحنا ١٢: ٨).

وفي الرسالة العشرين وأيضاً الرابعة والعشرين يقول عن قيامة المسيح:

"لقد مات عن الموت في اليوم الثالث؛ لأنه الاله الذي أحيا جسده أي هيكله، وصار باكورة الراقدين، البكر من الأموات لكي يجعل الطبيعة الإنسانية أعظم من الموت والفساد. ومحولاً الإنسانية فيه إلى حياة عدم الموت Εις μακραιωνα ξωην μεταστοιχειωση".

هذا التحول في المسيح يُنقل الينا، عندما يسكن المسيح فينا باللاهوت والناسوت، وعلينا أن نلاحظ أن هذه النقطة بالذات هي النقطة التي جعلت القديس كيرلس يكتب ضد النسطورية، فالمسيح الوحيد غير المنقسم إلى اثنين، هو المسيح الواحد الذي يحل فينا.

يقول كيرلس:

"هكذا يتصوَّر المسيح فينا، لأن الروح القدس يحوِّلنا من (الشكل) الإنساني إلى المسيح Μετασταιχειουντος ωσπερ ημας εχ των ανθρωπιων εις τα αυτου" (المقالة الثالثة ضد نسطور ٣: ٢ ص ٧٢ طبعة Pusey).

---

(١) هكذا يفهم القديس كيرلس السبب الأساسي لميلاد المسيح من العذراء بالروح القدس وبدون زواج "لقد ولدت كلمة الله الآب حسب الجسد لكي ننال نحن ميلاد من الله بالروح القدس ولا نعود بعد نُسَمى أبناء الجسد بل نتحول إلى ما فوق طبيعة الجسد، ونصبح أبناء الله حسب النعمة" (ضد نسطور المقالة ٣: ٢).

وعمل الروح القدس هذا يبدأ في المعمودية، وحسب تشبيه القديس كيرلس السكندري والذي ذاع في كتابات الآباء:

"بواسطة الروح القدس تتقدَّس روح الإنسان، والجسد يتقدس بالمياه. لأن المياه التي تُسكَب في قِدْرٍ تحته نار مشتعلة، تتصل بالنار وتأخذ قوة النار، أي الحرارة، هكذا بعمل الروح القدس تتحول المياه المحسوسة Αναστοιχεισυται إلى قوة إلهية غير مُدْرَكة وتقدِّس إلى الأبد كل الذين يغطسون فيها" (تفسير يوحنا ٣: ٥ – كتاب ٣).

وعلى نفس القياس يقول كيرلس السكندري عن الإفخارستيا:

"لأن المسيح خليقةٌ جديدةٌ – كما تقول الأسفار – كذلك نحن أيضاً الذين نقبله في حياتنا (حرفياً ذواتنا) من خلال جسده المقدس ودمه، نتحول بواسطته إليه Αναστοιχειουμενοι من الإنسان العتيق الفاسد حسب شهواته وهو الذي نخلعه إلى الإنسان الجديد" (العبادة بالروح والحق ١٢: ٤١٩).

وهكذا الاتجاه واضح جداً، فالروح القدس يعمل في تقديس الإفخارستيا لكي يغيِّر الخبز والخمر إلى قوة وحياة المسيح، وهنا يؤكد كيرلس أن المسيح حاضر فعلاً.

٣– الكلمة الثالثة هامة جداً:

Transfigured = Μεταρρυθμιξω

فهي الفعل اليوناني الذي يعني "يعيد ترتيب الأمور لكي تتجلى ويظهر معناها بوضوح". هذه الكلمة شائعة عند الآباء جميعاً، وبشكلٍ خاص ذهبي الفم الذي يقول:

"المسيحُ حاضرٌ الآن، هو نفسه الذي قدَّس هذه المائدة (في العِلية)،

هو الذي يقدِّسها الآن، فهو الذي يغيِّر العناصر (حرفياً يجعلها تتجلى)" (عظة على مقدمة الرسالة إلى يهوذا ١: ٦).

ونفس الكلمة تظهر في الكلام عن المعمودية:

"عظيمةٌ جداً قوة المعمودية لأنها تجعل الذين يشتركون في هذه العطية أُناساً آخرين. فهي لا تجعل البشر يُولدون من بشر، وتجعل الوثني يؤمن أن قوة الروح القدس عظيمةٌ، فهي التي تُجدِّد وتغيِّر Μεταρρυθμισε (عظة ٢٣ على سفر الأعمال ٣).

ويقول كيرلس السكندري عن التجسد:

"لقد ظَلَّ الابن في الجسد إلهاً ورضي أن يُخلي ذاته حسب التدبير، مغيِّراً إلى القداسة Μεταρρυθμι ξιν εις ασιασιον ومبرِّراً بالإيمان كل الذين يأتون إليه" (الرسالة الفصحية ١٤).

هذا التحول أو التغيير، هو عمل الروح القدس في المعمودية، وهو عمل الابن الكلمة عندما اتحد بالناسوت، وهو ما يحدث في الإفخارستيا وفي جسد القيامة الخاص بالمسيح والخاص بنا.

٤– الكلمة الرابعة:

Transfashion = Μετασκευξει

مأخوذة من الفعل "يغيِّر"، أو بدقة أكثر "يجدد". فالفعل Μετασκευαξω يعني يُجدِّد، أو يغيِّر. ولكي نفهم ما سبق وذكرناه من قبل، وما ندرسه الآن علينا أن لا نخرج خارج الإطار والتشبيهات التي عند الآباء.

يقول ذهبي الفم عن الإفخارستيا:

"ما هو أمامنا على المذبح، ليس عمل إنسان، فالذي صنع هذه المعجزة الباهرة في الوليمة (قانا الجليل) هو نفسه الذي يعمل هنا. إنه يستخدم العبيد ويدعوهم إلى خدمته، ولكنه يقدِّسهم، ويحوِّلهم في ذاته" (عظة ٨٢ على انجيل متى ٥).

وطبعاً الكلمة مُستخدَمة للإفخارستيا، وهي ذاتها مُستخدَمة للكلام عن تقديس الإنسان.

ونفس الكلمة أيضاً تُستخدَم في وصف عمل المعمودية:

"هذا هو السر الذي فيه - بالميلاد من فوق تتجدد - تتحول طبيعتنا Μετασκευα ξεται ημων ηφυσις من الفساد إلى عدم الفساد، لأننا نحن الذين من الإنسان القديم، نتجدد إلى صورته، أي ذاك الذي في البدء خلق الإنسان على صورة الله ومثاله" (عظة ٢ ضد هرطقة أنوميوس: ٢).

وهذا العمل الفائق الذي يتم في الافخارستيا والمعمودية، هو البرهان على عمل الثالوث الواحد في الجوهر. ولذلك يقول ذهبي الفم:

"لقد تعلمنا من الرب إلى ما يجب أن ننظر، أي إلى تجديد Μεταστοιχειωσις طبيعتنا من الموت إلى الخلود، وهذا هو الإيمان بالآب والابن والروح القدس" (نفس المرجع السابق).

وقد أثبتنا هذه الفقرة بالذات كمثال على أن الكلمات الأربعة عند الآباء تستخدم بشكلٍ غير مقيَّد. ولا يحتوي هذا الاستخدام على نظريات أربعة أو تفسيرات لمعنى التحوُّل أو التجديد. فقد استخدم ذهبي الفم الكلمة الخاصة بالتحول الذي يحدث في الطبيعة الإنسانية بالمعمودية، كما استخدم كلمة Μετασκευαξεται وعاد إلى

استخدام صيغة المصدر المأخوذة من فعل آخر درسناه في شرح الكلمة الثانية.

ونفس الملاحظة تخص كل الآباء[١] وسوف نكتفي هنا بفقرة من عند القديس كيرلس السكندري يقول فيها:

"لقد قبل الابن الوحيد الروح القدس، ليس لذاته، لأن الروح القدس هو روحه وفيه وبه، وإنما لأنه صار إنساناً وكانت فيه كل الطبيعة الإنسانية، فأراد أن يجدِّد الكل ويحولها (الإنسانية) إلى صورتها الأولى Μετασκευασις εις το αρχαιον" (تفسير يوحنا ٧: ٣٩).

ويمكن أيضاً أن نرى نفس الملاحظة في مؤلفات كيرلس بالذات في عدة مواضع تفوق الحصر[٢].

الخلاصة:

١- إن ما قدَّمناه من نصوص يمثل ١/١٥ من النصوص المعروفة عند آباء الكنيسة الخاصة بالإفخارستيا. هذه النصوص حصرناها في الكلام عن التغيير الذي يحدث في:

- الناسوت في المسيح المتجسِّد، وبسبب الاتحاد.
- الناسوت في المسيح المتجسِّد، وبسبب المعمودية في الأردن.

---

(١) لم ندرس القديس أثناسيوس لسبب واحد، وهو أن الفقرات الخاصة بالإفخارستيا قليلة جداً. وكان أثناسيوس مثل كل الآباء، يصف اتحاد الناسوت باللاهوت في المسيح على أنه يغير الناسوت إلى مجد اللاهوت الفائق (ضد أريوس ٢ : ٤٧ - ١ : ٦٢ - ١ : ٦٣). هذا التغيير نفسه هو الذي ينتقل إلينا نحن بسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت.

(٢) راجع الرسالة عن الإيمان الصحيح للإمبراطور فقرة ٥.

– الناسوت في المسيح المتجسِّد، وبسبب الصليب والقيامة.

– الطبيعة الإنسانية عندما تقوم في اليوم الأخير.

– المياه في المعمودية، وبسبب عمل الروح القدس.

– الخبز والخمر في الإفخارستيا، وبسبب عمل الروح القدس.

لقد كان من الضروري أن نضع هذه العناصر معاً وبهذا الترتيب حتى يستقر في وعي القارئ أننا أمام عمل واحد يقوم به الروح القدس والابن المتجسد.

٢– هذا التغيير لا يمكن شرحه، ولا يمكن أن نضع له الإطار الفلسفي المبني على فلسفة أرسطو، فهذا خلطٌ بين الفلسفة العقلانية والاختبار السري الذي يتذوَّقه الإنسان بسبب التجسد والقيامة والأسرار.

إن الاختبار السري لا يمكن صياغته، وإنما نكتفي بالإشارة إليه، أمَّا التأمُّل الفلسفي فهو موضوع يمكن دراسته وإثارة الجدل بكل أنواعه حول الدراسة.

٣– وأخيراً، وهذه هي النقطة الهامة والأساسية، إن الإفخارستيا هي حضور المسيح الحقيقي، وهو حضورٌ لا يمكن إدراكه إلَّا من النموذج الوحيد وهو التجسد، أي اتحاد اللاهوت بالناسوت. وهو ما يجب أن نحصر فيه الجدل، إذا كان من الضروري أن ينشأ جدل حول هذه العطية الفائقة.

ولكن عندما اتحد اللاهوت بالناسوت في الابن المتجسد، اكتسب الناسوت صفاتٍ كثيرةً من اللاهوت، وهي بشكلٍ أساسي: "**حياة عدم الفساد، وعدم الموت أو الخلود، والقداسة**". هذه الصفات وغيرها قامت عند الآباء على أساس لاهوتي واضح يعرف باسم "الاتخاذ المتبادَل للصفات" Communicatio Idiomatum أي أن الاتحاد الحقيقي بين اللاهوت والناسوت في المسيح، جعل الناسوت يشترك في صفات

اللاهـوت، واللاهـوت يشـترك في صـفات الناسـوت. والـذي وضـع هـذا الأسـاس هـو أثناسيوس، وكيرلس السكندري، وإن كانت جذور هذا الأساس اللاهوتي تعود أصلاً إلى أوريجينـوس وأسـتاذه أكليمنضـس، ولكـن هـذا الأسـاس اللاهـوتي لـيس وقفـاً علـى السكندريين من الآباء، بل هو عامٌ عند باسيليوس، ذهبي الفم، النيسي، النزينزي... الخ.

ولعـل أفضـل شـرح يمكـن أن يُقـدَّم في هـذا المجـال هـو صـلاة القسـمة للقـديس كـيرلس السـكندري الـذي نـرى فيـه بشـكل بـارز مـاذا حـدث لناسـوت المسـيح بسـبب الاتحـاد، وكيـف أصـبح الأسـاس اللاهـوتي، أي الاتخـاذ المتبـادَل للصـفات Communicatio Idiomatum هو أصل الاحتفال الرهيب والمجيد بالسر، (راجع تذوق اللحـم والـدم، والارتفـاع إلى المجـد، الاتحـاد بالمسيح في الإفخارستيا، الاتحـاد بـالآب والروح ...)[1].

من هنا ندرك أن تعبير "الاستحالة الجوهرية"، هو تعبيرٌ خطير يمكن أن يؤدي في النهاية إلى فقدان العلاقة بين الإفخارستيا والتجسد؛ لأنه يحدد "الاستحالة" بالكلام عن العَرَض والجوهر، بينما حقيقة التغيير الذي يحدث في الخبز والخمر هو ما يحدث أصلاً في ناسوت المسيح نفسه بسبب الاتحاد والقيامة، وما يحدث فينا بسبب المعمودية. وهذا يطرح علينا موضوعاً أساسياً عن علاقة المعمودية بالإفخارستيا، لكن المؤكد هو أن اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح هو اختبارٌ سري نتذوَّقه في المعمودية ونعود إليه من آن لآخر في كل قداس إلهي، وهذا في حد ذاته يشكِّل رفضاً للفلسفة الارسطوطالية صاحبة الكلمة الشائعة التي ترفضها الكنيسة الكاثوليكية الآن Transubstantiation.

---

(١) راجع صلاة قسمة القديس كيرلس "يا حمل الله" حيث تقول هذه الصلاة: "صيِّرنا هياكل مقدسة لحلولك، وأواني مطهَّرة لقبولك، لكي بذوق لحمك نؤَهَّل لذوق نعمتك، وبشُرب دمك نؤَهَّل لحلاوة محبتك. وهبت لنا أن نأكل لحمكَ علانيةً، أهِّلنا للاتحاد بك خفيةً. وهبت لنا أن نشرب كأس دمك ظاهراً، أهِّلنا أن نمتزج بطهارتك سراً. وكما أنك واحدٌ في أبيك وروحك القدوس، نتحد بك وأنت فينا، ويكمل قولك، ويكون الجميع واحداً فينا ...." راجع الخولاجي المقدس، طبعة دير المحرَّق، ص ٦١٠ وما بعدها.

الاستحالة ومعنى كلمة "جسد"، وكلمة "دم":

إذا درسنا موضوع الإنسان، فأن أهم ما يجب أن نصححه هو تلك "الثنائية الأفلاطونية" التي تَعتَبر أن الإنسان مكونٌ من عنصرين هما الروح والجسد. هذه الثنائية تفشل في شرح نصوص الكتاب المقدس، لا سيما العهد القديم. وقد عانى القديس بولس طويلاً من الاتهام بالثنائية، وبأنه يجعل الجسد نقيضاً للروح أو العكس. كل هذا ينهار إذا جمعنا كل النصوص التي يستخدم فيها الرسول كلمة "جسد" ودرسناها بعناية، حينئذ نكتشف أننا – تحت تأثير أفلاطون – نفشل في إدراك معنى كلمتي "جسد ودم".

ويكفي أن نسأل أنفسنا ماذا يعني الرسول يوحنا بقوله: "والكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤)؟ ألا تعني أنه صار إنساناً مثلنا؟ وماذا تعني العبارات التي تنفي الولادة من مشيئة جسد ولحم، ألا تعني رفض الولادة حسب قانون الولادة الإنساني (يوحنا ١: ١٦-١٨)؟

عند الرسول بولس "الجسد" هو الشخص، ولذلك هل يمكن أن يكون لهذه الكلمات أي معنى آخر: "الذين لم يروا وجهي في الجسد" (كولوسي ٢: ١ و٥)؟ ألا تعني بكل وضوح الذين لم يشاهدوني؟... وماذا تعني هذه العبارة: "أذكروا أنكم أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين غرلة" (أفسس ٢: ١١)؟ مما لا شك فيه إن الرسول يقول يا أيها الأمم من جهة حياتكم السابقة كبشرٍ، دعاكم اليهود غرلةً. وأيضاً "إن كان إنساننا الخارجي، يفنى فالداخل يتجدد..." (٢ كورنثوس ٤: ١٦). طبعاً الإنسان الخارجي هو الجسد، أي الشخص من ناحية هيئته، ويؤكد الرسول أن كلمتي "لحم ودم" هما مثل كلمة "جسد"، ولا فرق مطلقاً.

يقول الرسول إنه عندما رأى المسيح وهو في طريقه إلى دمشق لم يأخذ مشورة إنسان، لكن كيف يعبِّر عن هذه الحقيقة: "لم أستشر لحماً ودماً" (غلاطية ١: ١٦).

وطبعاً لا يمكن أن نتصور أن الرسول أمسك بقطعة من اللحم وبكمية من الدم

لكي يسألهما ... هذا هراء ... ونجده يستخدم نفس التعبير، أي "جسد" عن الإنسان: "لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر كل جسد" (رومية ٣: ٢٠)، ومثلها "بأعمال الناموس لا يتبرر جسدٌ ما". والمقصود هنا أي إنسان؛ لأن أعمال الناموس لا تبرر الجسد دون الروح.

طبعاً ثنائية أفلاطون لا يمكن أن نستعملها مطلقاً أمام عبارة مثل هذه: "لكي لا يفتخر كل جسد أمامه" (كورنثوس ١: ٢٩)، والمقصود أن لا يفتخر أي إنسان. إن مثل هذه التعبيرات لا تختلف مطلقاً عن قول الرب لسمعان بطرس: "طوباك يا سمعان ... إن لحماً ودماً لم يعلِن لك، لكن أبي الذي في السموات" (متى ١٦: ١٧).

وكلمة "دم" لا تعني ذلك السائل الأحمر الذي يجري في العروق ... مثل هذا التحديد قد يكون صحيحاً في العلوم، ولكنه ليس كذلك في الكتاب المقدس. ولعل أهم ما نلاحظه هو أن سفك الدم يعني قتل الحياة، ونصوص العهد القديم في هذا الشأن كثيرة جداً، لا مجال لأن نوردها. ولكن يكفي أن نذكر أن "نفس الجسد هي في الدم" (لاويين ١٧: ١١)، راجع أيضاً (تكوين ٩: ٥[١] – أرميا ٢ :٣٤[٢])، ولذلك فان سفك الدم معناه قتل النفس، والنفس تعني الحياة (تثنية ١٢: ٢٣)[٣].

وعندما يقول العهد الجديد عن المسيح إنه لنا فيه الفداء بدمه (أفسس ١: ٧ – ١ بطرس ١: ١٩ – رؤيا ١: ٥)، فإننا لا يمكن أن نتصور أن الرسول يعني ذلك السائل الأحمر وأنه لا يعني حياة المسيح كحياة.

---

(١) "وَأَطْلُبُ أَنَا دَمَكُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَقَطْ. مِنْ يَدِ كُلِّ حَيَوَانٍ أَطْلُبُهُ. وَمِنْ يَدِ الإِنْسَانِ أَطْلُبُ نَفْسَ الإِنْسَانِ مِنْ يَدِ الإِنْسَانِ أَخِيهِ".

(٢) "أَيْضاًفِي أَذْيَالِكِ وُجِدَ دَمُ نُفُوسِ الْمَسَاكِينِ الأَزْكِيَاءِ. لاَ بِالنَّقْبِ وَجَدْتُهُ بَلْ عَلَى كُلِّ هَذِهِ".

(٣) "لكِنِ احْتَرِزْ أَنْ لا تَأْكُل الدَّمَ لأَنَّ الدَّمَ هُوَ النَّفْسُ. فَلا تَأْكُلِ النَّفْسَ مَعَ اللحْمِ".

ولكن التأكيد على الدم جاء بشكل خاص لتأكيد حقيقة أساسية في الخلاص، وهي أنه بدون الصليب والقيامة لا خلاص للإنسان. ويمكننا أن نرى هذا بشكل واضح عند الرسول بولس: "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه" (رومية ٣: ٢٤).

فالفداء "**فيه**"، أي في يسوع، وطبعاً إن سفك الدم واضح، ولكن سفك الدم يعني تقديم الحياة: "إن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدِم.. وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين" (متى ٢٠: ٢٨)، راجع أيضاً نفس التعبير عند بولس: "الذي بذل نفسه فديةً" (١ تيموثاوس ٢: ٦)، وعلينا ألَّا ننسى أن سفك دم الذبيحة في العهد القديم هو فداءٌ للنفس، أي الحياة (لاويين ١٧: ١١).

ومما لا شك فيه أننا هنا أمام حضور شخص الابن المتجسد، أي الإله المتأنس. هذا الحضور السري يؤكده وجوده على المذبح بجسده ودمه، أي ذاته وحياته، وهو ما نراه في خاتمة القداس: "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين"، فهو المسيح الواحد كله.

وهذه الحقيقة كامنة خلف كلمات القداس:

> "هذا هو الجسد المحيي الذي لابنك الوحيد ... أخذه من سيدتنا ... وجعله واحداً مع لاهوته ... واعترف الاعتراف الحسن ... وأسلمه على خشبة الصليب ...".

هكذا، من الميلاد إلى الصليب، حضوره الحقيقي معنا. هذه الحقيقة لا يجب أن نحصرها كأطفال في إطار معرفة كيميائية أو بيولوجية عن الإنسان، وبشكل خاص الجسد والدم، فكل هذا قد تجلى بشكل فائق في التجسد، وصار حياةً تُسكَب في الأسرار، وليس كماً أو شكلاً...

الذِّكرَى

كل هذا يطرح علينا بشكل واضح، أن الذكرى هي حضور المسيح نفسه، وأنها ارتفاعٌ إلى إدراك. صحيح أن الفعل العبراني هو فعل ثلاثي "ذ ك ر" مثل الفعل العربي، ولكنه لا يؤدي ذات المعنى الشائع العام؛ لأن المزمور يقول: "صنع ذكراً لعجائبه.." (مز ١١١: ٤). فالله يذكِّر الإنسان، ويقيم بأعماله ذكرى، ويصنع عهده ذكرى لكل رحمة ونعمة يهبها.

وما يمتاز به الكتاب المقدس هو أن الذكرى احتفالٌ طقسي يتم فيه عطاءٌ إلهي وتجديدٌ للعهد، ولذلك جاء عيد الفصح والأعياد الأخرى "تذكاراً"، وذكرى للخلاص الذي حققه الرب ولعجائبه.

وطبعاً، الذكرى تتجاوز الفكر؛ لأن الذين عبروا البحر الأحمر احتفلوا بهذه الذكرى، ثم صارت لهم ولمن أتى بعدهم تذكاراً دائماً (خروج ١٢: ١٤). وطبعاً، الأساس في الذكرى، هو أن الله عمل عملاً عظيماً لا مثيل له، وله آثار واضحة في حياة الشعب، تجعل الشعب يحتفل كل سنة بوجوده في هذه البقعة بالذات؛ لأن الله هو الذي أخرجه من أرض العبودية، وجاء به إلى هذا المكان، وتعهد بحمايته إذا ظل مرتبطاً بالعهد. هنا الذكرى تلمس حياة الشعب بشكل واضح، فهو لا يحتفل بأمرٍ حدث في الماضي، ولم يعد له سوى ذكريات قديمة، بل يحتفل بما يمَس حياته الواقعية كل يوم.

في هذا الإطار يجب علينا أن نفهم معنى كلمة "ذكرى"، فهي احتفال، وهي أيضاً اشتراك في كل ما جاء به العهد الجديد. وعلينا أن نتذكر أنه بعد عدة سنوات من صعود المسيح وجلوسه عن يمين الآب يكتب الرسول بولس: "كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح.. الخبز... أليس هو شركة جسد المسيح" (١ كورنثوس ١٠: ١٥ - ١٧).

وهنا بشكل خاص، حيث تقال عبارة: "هذا اصنعوه لذكري"، تصبح الذكرى

اشتراكاً. وهذا يؤكده الرسول بعد ذلك: "أإن الوثن شيء أو إن ما ذبح للوثن شيء" (١ كورنثوس ١٠: ١٩)؟ ذلك أن ما يقدَّم للأوثان هو شركة مع الأوثان، وهو ما يجعل الرسول يقول: "لست أريد أن تكونوا شركاء الشياطين (الأوثان)" (١ كورنثوس ١٠: ٢٠).

إن شركتنا في الجسد والدم هي شركة في الرب ذاته. وهنا، الذكرى هي أن نلمس بشكل سري حياة المسيح وصلبه وقيامته. **ولا تصبح هذه الأحداث مجرد ذكريات؛ لأن صاحب هذه الأحداث حاضر. ولذلك فهي ليست وقائع مجردة، بل هي أحداث تخص شخص المسيح وتخص الذين حوله، أي الذين ارتبط بهم بعلاقة قوية هي علاقة الجسد الواحد، أي الكنيسة التي هو رأسها.**

إن العهد هو أساس الذكرى، حيث يعلن المسيح ذاته لنا في هذا السر المجيد.

الذكرى ليست عقلية، وإنما اشتراك في الخلاص:

لقد تأكدنا الآن أن حضور المسيح هو حضورٌ حقيقيٌ، وأنه فعلاً وحقاً معنا بجسده ودمه. فما معنى الذكرى؟ لعل أول ما يتبادر إلى أذهاننا هو أن الذكرى هي استرجاع ذكريات وأحداث عندما نحتفل بذكرى صديق رحل. فهي ذكريات من طرف واحد، الصديق غاب، وكل ما نملكه هو أن نتذكر أعماله وأقواله وما تركه لنا ... هذا المستوى من الذكرى لا يمكن أن ينطبق على علاقتنا بالمسيح ... فهو ليس صديقاً رحل أو غاب عنا، بل هو معنا "بمجد أبيه والروح القدس" كما نقول في لحن يا ملك السلام.

الله يذكر:

يقول سفر التكوين: "ثم ذكر الله نوحاً.. " (تك ٨: ١)، وطبعاً لا يمكننا أن نتصور أن الله ذكر نوحاً لأنه نسى أين هو؟ .. ولكن المؤكد أن الله ذكره بمعنى أنه اتخذ قراراً، وهذا ما نراه بعد ذلك: "وأجاز الله ريحاً على الأرض". ونفس المعنى يظهر أيضاً في

(تكوين ١٩: ٢٩)[١]. ويمكننا أن نتأكد من ذلك من طريقة صياغة نص تكوين ٣٠: ٢٢: "وذكر الله راحيل وسمع الله لها وفتح رحمها"، فإن الله افتقد راحيل واتخذ قراراً. إذن، ف "ذَكَرَ = عَمِلَ".

وتَذَكَّر الله تعني أيضاً ارتباط الله بالعهد: "أذكر إبراهيم واسحق وإسرائيل الذين حلفت لهم" (خروج ٣٢: ١٣). ولذلك، فإن عطاء الله المرتبط بالعهد، هو ذكرى العهد (تثنية ٩: ٢٧)، وهو مناسبة تقديم شيء جديد أو عطية أو نعمة (راجع بدقة خروج ٢: ٢٤، ٦: ٥، لاويين ٢٦: ٤٢، ٤٥)[٢].

+ + +

(١) "وَحَدَثَ لَمَّا أَخْرَبَ اللهُ مُدُنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ وَأَرْسَلَ لُوطاًمِنْ وَسَطِ الاِنْقِلاَبِ. حِينَ قَلَبَ الْمُدُنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ".

(٢) "فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ فَتَذَكَّرَ اللهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ".(خر ٢: ٢٤). "وَأَنَا أَيْضاًقَدْ سَمِعْتُ أَنِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَتَذَكَّرْتُ عَهْدِي".(خر ٦: ٥). "أَذْكُرُ مِيثَاقِي مَعَ يَعْقُوبَ وَأَذْكُرُ أَيْضاًمِيثَاقِي مَعَ إِسْحَاقَ وَمِيثَاقِي مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَأَذْكُرُ الأَرْضَ... بَلْ أَذْكُرُ لَهُمْ الْمِيثَاقَ مَعَ الأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّعُوبِ لأَكُونَ لَهُمْ إِلَهاً. أَنَا الرَّبُّ».(لا ٢٦: ٤٢، ٤٥)

القسم الثاني

الترتيب الطقسي

الفصل الأول

الترتيب الطقسي وعلاقته بالعقيدة

التقسيم التاريخي:

لقد درسنا كيف رَتَّبَت العقيدة أجزاء طقس المعمودية[١]، فهل ساهمت العقيدة أيضاً في ترتيب القداس الإلهي على النحو الذي نراه؟ أم أنه ترتيبٌ نما دون ارتباط؟

سوف نكتشف أن الترتيب الطقسي والصلوات، يكشف من خلفه منهجاً عقائدياً هو السبب الأساسي في تقسيم القداس إلى قسمين معروفين من التاريخ القديم باسم قداس الموعوظين، وهو الجزء الخاص بالتعليم، ثم قداس المؤمنين، وهو الجزء الخاص بالمؤمنين.

هذا التقسيم مبني على قاعدة هامة، وهي أن الكلمة تسبق الأسرار، وأن الأسرار تأتي دائماً بعد التعليم؛ لأن التعليم يمهِّد ويقدِّم للأسرار، وحقيقة الحياة الأرثوذكسية قائمة على أن ما نسمعه في التعليم نتذوَّقه في الأسرار.

الجزء الأول الخاص بالقراءات هو تمهيدٌ يشبه الخطوبة، أما الجزء الثاني فهو

---

(١) راجع ذلك في كتابنا، المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية، دراسة للعقيدة والطقس في القرون الخمسة الأولى، طبعة ٢٠١٢. منشور على موقع www.coptology.com

الكمـال، ويشبه الـزواج. ولـذلك ينتهـي بالتسـبيح؛ لأن القـداس يُـدخِلنا مباشـرةً في فـرح وتسبيح الحياة الأبدية.

ومن المؤكد أن ممارسة الوعظ أثناء التوزيع هو خطأٌ جسيم، ويدل على استهتار – وإن كـان غـير مُتَعمَّـد – بالسـر العظـيم. فـالرب يسـوع يـوزِّع حياتـه علينـا، وهـو على المذبح يُقدِّم ذاته، ولذلك ما هي قيمة التعليم في هذه اللحظة بالذات؟ إذا كان كل ما تقوله الكلمة يتذوقه المؤمنون الآن، فعن أي شيء نتحدث؟

وما معنى هذا التداخل في السر وكلمة التعليم، وكلاهما يُقَدَّمان في وقت واحد، أي أثنـاء التوزيـع؟ إمَّـا إننـا لم نعـد نـدرك علاقـة الكلمـة بالسـر، وإمَّـا أننـا نريـد أن نقسِّـم الكنيسة الواحدة أثناء التوزيع إلى جماعتين بدلاً من جماعة واحدة، جماعة الموعوظين الذين يسمعون التعليم، وجماعة المؤمنين الذين يتناولون الإفخارستيا. وهذا التقسيم يحطم وحدة الكنيسة ويزيد التباعد بين المؤمنين.

السِّر وكيف يُعلَن؟

من البداية ومنذ دورة الحمل تُحاط القربانة باللفائف، وتُغطى الكأس، ثم تُغطى كل الذبيحة، ويتم ذلك كله أثناء قداس الموعوظين.

إن اختيار الحمل يرمز إلى الجانب النبوي المستتر، لذلك لا تظهر القرابين مطلقاً أثنـاء القـراءات، والوضـع الأصـلي هـو أن وجـود الموعـوظين كـان يمنـع ذلـك؛ إذ لا يحـق للموعوظين أن يطَّلعوا على أسرار الكنيسة، لا سيما الإفخارستيا، ولذلك فإن القرابين لا يمكن رؤيتها.

وعندما يرفع الكاهن القربانة مغطاة باللفافة فوق رأسه، فهو بشكلٍ رمزي يقول للكنيسة: "هذا هو الخبز الذي نزل من السماء الواهب الحياة للعالم". وفي هذه المرحلة بالذات تذكر الذين تريد أن تذكرهم من الأحياء والراقدين؛ لأن المسيح له المجد جاء إلى

العالم، وجاء من أجل كل الذين رقدوا لا سيما الذين رقدوا على رجاء الحياة الدائمة[١].

وعندما يرفع الكاهن القربانة، فهو يحدد – بالكلمات – لماذا نزل هذا الخبز من السماء؟ لكي يُظهِر مجد الثالوث ويُظهِر محبة الله ويتم بناء الجسد. وقبل أن يرفع القربانة إلى فوق يمسحها بالماء، وكما يقول الخولاجي: "مثال العماد الطاهر"؛ لأن بداية إعلان بنوة المسيح في العالم، أي في الزمان، كانت بالمعمودية، وهذا الرمز في غاية الأهمية؛ لأن القداس يكشف لنا حياة المسيح من الأردن إلى يمين الآب.

هنا المسيح يُظهِر نفسه لنا "مبتدأ من المعمودية إلى اليوم الذي ارتفع فيه"، ولكنه يظل تحت ستار اللفائف غير مُعلَنٍ عنه حتى يُقال قانون الإيمان. وكما نعرف من القديس ايسيذوروس البيلوسي أن وضع السِّتر (الابروسفارين) يرمز إلى القبر، واللفافة المثلثة ترمز إلى الختم، وبعدما تُرفع يُنادي الشماس بالقبلة المقدسة (الرسالة ١٢٣).

المصالحة تتم هنا في ذكرى رمزية للقيامة؛ لأن المسيح بقيامته رفع الموت وصالحنا مع الآب. ولكننا كما نرى، لا تزال القرابين مغطاة لا يلمسها الكاهن، ولا تشير إليها الصلوات. ويبدأ قداس المؤمنين – كما نعرف منذ سنة ١٥٠م – بكلمة: "الرب مع جميعكم".

كل رشومات القداس، هي رشم الصليب (وكلمة رشم كلمة سريانية تعني ختم)، ورشم الصليب كما رأينا في طقس المعمودية هو بداية قبول الموعوظين في الإيمان، والاشتراك المباشر في الصليب والقيامة في المعمودية، وبعد الخروج من الماء تُختم أعضاء الذي يعتمد بـ ٣٦ ختماً أو رشماً بزيت أو مسحة الميرون. وطبعاً يظهر بكل وضوح أن

---

[١] ذِكر الأحياء والراقدين أثناء اختيار الحمل، وبعد التقديس هو ترتيب قديم جداً يعود إلى أيام يوستينوس الشهيد، حيث كانت القرابين يقدِّمها الشعب لكي يختار الأسقف ما يصلح منها للتقديس، وكان الغائبون بشكل خاص يُذكَرون في الصلوات، وتُرسَل الافخارستيا إلى منازلهم. ولما كانت ذبيحة الافخارستيا هي التي تبني الكنيسة وتجمع كل المؤمنين بالمسيح في وحدة واحدة، أصبح تَذَكُّر الراقدين من الأمور الأساسية التي تدل على وحدة الكنيسة.

الصليب في الطقس ليس علامة موت المسيح على الصليب، بل هو علامة الموت والحياة معاً، فهو يحمل إلينا كل هبات الحياة، حتى عطية الروح القدس تعطى من خلال الصليب؛ لأنه الرمز الوحيد للمصالحة، ورضاء الله ومسرته بأن يعمل في الإنسانية. وبعد الخروج من المعمودية يلازمنا رشم الصليب في بداية الصلاة وقراءة الكتاب المقدس، وبشكل خاص في الإفخارستيا[١].

وعلينا أن نلاحظ أنه في كل مرة نرشم فيها الصليب يتم ذكر الآب والابن والروح القدس، وهذا يؤكد أمرين هامين:

١- اشتراك الأقانيم الثلاثة في خلاص الإنسان بسبب وحدة الجوهر.

٢- انفراد الابن بالذات بالتجسد والصليب والقيامة.

وكل الذين أهملوا رشم الصليب وقعوا في أخطاء قاتلة وانحرف تصورهم للخلاص، وحصروا الخلاص في المسيح وحده. وكأن الآب والروح القدس يراقبان فقط ما يحدث على الأرض!!

لذلك، فإن الصليب ليس مصالحة فقط بين الآب والإنسانية، بل هو تأكيد على العمل الواحد للثالوث، وهو ما يعبِّر عنه الآباء دائماً في عبارة أصبحت بمثابة قاعدة ذهبية: "**الآب يعمل كل شيء بالابن في الروح القدس**"، وهي عبارة يعرفها كل قارئ للآباء، لا سيما بعد ظهور الأريوسية. وعلينا أن لا نتهور مثل بعض المتهورين في القرن الخامس والسادس وننسب التجسد والصلب للآب أو للروح القدس؛ لأن هذا ليس ضد الحق الواضح فقط، بل هو أيضاً بشكل خاص فوضى واضطراب في فهم الثالوث وعلاقة الثالوث بالخلاص[٢]. وفي كل مرة يمسك فيها الكاهن بلفافة أو بالقرابين أو الكأس يرشم

---

(١) راجع لمزيد من التفصيل كتابنا "معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية"، منشور على موقع www.coptology.com

(٢) يمكن لمن يريد أن يدرس هذه النقطة بالذات بوفرة أكثر أن يدرس الفصول الثمانية عشر الأولى من كتاب تجسد

الصليب ثلاثة مرات، إمَّا أن يذكر الآب والابن والروح القدس، أو يكتفي بالرشوم الثلاثة دون ذكر الآب والابن والروح القدس.

وقد شرح هذه النقطة بشكل خاص تيموثاوس الأول بابا الإسكندرية في عدة مقالات ضاع أصلها اليوناني والقبطي ووصلتنا بالسريانية فقط، وفي مجموعة شروحات سريانية ومن مقالات هذا العالم الجليل، نفهم أن جدلاً واسعاً شمل معظم الكنيسة الشرقية حول ذِكر الآب والابن والروح القدس في القداسات وأثناء رشومات الصليب، وهو ما أدَّى إلى عدم ذِكر الآب والابن والروح القدس في تقديس الخبز والخمر (شَكَرَ – بَارَكَ – قَدَّسَ)، ثم في استدعاء الروح القدس، والرشومات الثلاثة على الخبز، والرشومات الثلاثة على الكأس، ثم رشم الجسد بالدم، والدم بالجسد بعد صلاة القسمة، أي حذف ذِكر الثالوث تماماً، والاكتفاء بالصليب[١].

وفي الواقع، كانت الكنيسة السريانية بنوع خاص هي التي حذفت ذكر الآب والابن والروح القدس في هذه الرشومات، وقلَّدتها الكنيسة القبطية بعد ذلك، حتى لا يخطئ الناس في فهم ذِكر الأقانيم الثلاثة أثناء التقديس، وبسبب الضعف الفكري والروحي. وبسبب الجدل كادت الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية أن تنسى هذه القاعدة الذهبية التي وضعها الآباء: "**كل شيء يعمله الآب بالابن في الروح القدس**".

إن الصليب يحمل إلينا هبات الآب والابن والروح القدس، وما رَشمُ الصليب سوى إقرارٌ بهذه الحقيقة التي تبدأ في المعمودية وتصل إلى الكمال في الإفخارستيا. ورغم أننا لا نتَّحد إلَّا بجسد الابن ودمه، إلَّا أننا لا نتَّحد بالابن وحده، وإنما بالثالوث.

الكلمة لأثناسيوس، حيث يرد على السؤال الخاص، لماذا تجسد الابن بالذات وليس الآب؟

(١) قداس تيموثاوس الاسكندري، مخطوطة سريانية من القرن الثامن، نشرها العالم الفرنسي "A. Raes" في مجموعة القداسات السريانية المجلد الأول، والمعروفة باسم "Anaphora Sur." ودوَّن الجدل كله المؤرخ السرياني المشهور التلمحري (عام ٨٤٥) – وأيضاً المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير (كتاب ٣: ص ١ – ٨ طبعة باريس ١٩٠٥م) التي نشرها "Chabot".

فالوسيط في الاتحاد بالثالوث هو الابن الذي يقدِّم الكنيسة للآب في الروح القدس.

وحسب نص (رومية ٦: ١ – ٦)، المعمودية هي موت ودفن وقيامة مع المسيح، ولكنها هي أيضاً مناسبة تَبنِّي الإنسان وحلول الروح القدس عليه في المعمودية والميرون. والإفخارستيا هي مناسبة الاتحاد بالمسيح والثبات فيه، واتحاد الكنيسة كلها لتصبح جسداً واحداً: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارةً لأنفسنا ... لكي نكون جسداً واحداً ...، هذا الجسد الواحد يأخذ قوته من المسيح ومن الروح القدس (١ كورنثوس ١٢: ١٠ – ١٤). وهنا نلمح كيف أن قاعدة كل شيء هي الصليب والقيامة، وعليها يكمِّل الروح القدس ويرفع الابن والروح الكنيسة للآب، أو حسب تعبير أغناطيوس: "واعتبرتم نفوسكم حجارة هيكل الآب أُعدَّت لبناء الله وارتفعتم إلى فوق برافعة يسوع المسيح، أي الصليب وبحبل الروح القدس" (أفسس ٩: ١)[1]. وعلى ذلك، فَذِكر الثالوث أثناء رشم الصليب، يحدد الاتجاه الذي سنسلكه في حياتنا الروحية، ويحدد بشكل خاص، أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة في الروح القدس وبالآب.

---

(١) د. جورج حبيب بباوي، رسائل الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، مجموعة الآباء – ٣، سبتمبر ١٩٧٦، ص ٢٧.

الفصل الثاني

مكان الرشومات في الطقس، ومعناه[١]

الرشومات الأولى في دورة الحمل:

دورة الحمل والرشومات هي تمجيد للثالوث "الذي أقام الكنيسة جسد عمانوئيل وجعلها شعبه الذي يسكن الله فيه"، فالرشومات مرتبطة بالذكصولوجية التي تبدأ بها خدمة القداس: "**مجداً وإكراماً للثالوث القدوس**". وعلينا أن لا نخطئ في فهم كلمة (للثالوث) لأنها في القبطية Ǹⲧⲡⲁⲛ ⲁⲅⲓⲁ ⲧ̀ⲣⲓⲁⲥ وهي بذلك لا تعني المجد والكرامة الذي تقدِّمه الكنيسة للثالوث، إنما تعني حضور مجد وكرامة الثالوث في الخدمة، وقد كشفت الترجمات الإنجليزية التأثير الغربي. فنحن في خدمة القداس – بنوع خاص – لا نعطي التمجيد بقدر ما نشترك فيه ونناله، ولولا حضور الثالوث وإعلان مجده ما كان الشعب يرد على نداء "**مجداً وإكراماً**" بقوله: "**المجد للآب والابن والروح القدس**...". ولأننا اجتمعنا من أجل بنيان الجسد أي الكنيسة؛ نبارك الآب والابن والروح القدس، ونضع ختم الصليب على الصعيدة (الخبز والخمر) سبب حضورنا إلى البيعة، وعند تقديس الصعيدة بالروح القدس، يظهر مجد الآب والابن والروح القدس

(١) هذه الشروحات قد جُمعت من عدة خولاجيات قبطية وعربية تزيد على ألف خولاجي، في المتحف القبطي، المتحف البريطاني، المكتبة الأهلية، ومكتبات جامعة أكسفورد، وكامبريدج، والفاتيكان، والأديرة القبطية بوادي النطرون.

في أثناء التقدمة؛ لأن الثالوث القدوس هو الذي دعانا إلى هذه الخدمة.

"ولئلا نسقط في كبرياء سابليوس أو تجديف نسطور وأريوس، رتَّبَت الكنيسة ذِكر الثالوث عند تقديم الصعيدة؛ حتى ندرك أن بركةً واحدةً للثالوث وعملاً واحداً للآب والابن والروح القدس، وأن حضور الابن الوحيد الكلمة المتجسد على المذبح لا يمنع حضور الآب والروح، فهو رئيس كهنة الكنيسة الجامعة الذي أتى بها إلى شركة الآب والروح القدس".

هذا التعليق القديم على الرشومات، يشرح لنا رشومات دورة الحمل على أنها تأكيدٌ على اشتراكنا في الخلاص الذي قدَّمه الآب بالابن في الروح القدس.

ويمكننا أن نلاحظ أنه ذكر سابيليوس ونسطور وأريوس – هؤلاء الهراطقة الثلاثة الذين تفرَّعت منهم كل الهرطقات – لأن كلاً منهم أنكر وحدة الثالوث بشكل أو بآخر، وكأن الرشومات في دورة الحمل وفي بداية الخدمة هي نوع من الاستعداد والتطهير للإعلان الذي سيأتي بعد ذلك.

الرشومات الثانية قبل التقديس:

"عندما يقول الكاهن: "**الرب مع جميعكم**"، يأخذ اللفافة التي على القربانة ويرشم بها الشعب، ثم الخدام، وأخيراً ذاته، وهو بهذا وبشكلٍ سري "يؤكد مجيء ربنا يسوع بالجسد، وأنه يسعى إلى خطبة الكنيسة واستردادها للآب، ولذلك يجيب الشعب: "**مستحق وعادل**". وبعد ذلك يشكر على الخليقة الأولى التي أُعِدَّت لمجيء الله الكلمة الذي تقف الملائكة لتخدمه، وبعد تسبحة الشاروبيم يأخذ الكاهن اللفافة التي على الكأس، لأنه بعد أن أخذ اللفافة التي على القربانة يعود ويأخذ تلك التي على الكأس ويرشم مثل الرشومات الأولى وهو يقول: "**قدوس**"؛ لأن سفك دم الحمل الكريم هو الذي قدَّسنا".

"وعندما قدَّم الرب ذاته عنا، قدَّم جسده ودمه عن خلاص جنسنا الساقط، ولولا دم الحمل كلمة الله ما صار لنا اشتراكٌ في التقديس الشاروبيمي ولا استطعنا أن ننتظم مع الصفوف السماوية ونقول: قدوس".

"وعندما يفرغ الشعب جميعه من التسبحة، يسبِّح الكاهن ويرشم، مؤكِّداً صدق الإيمان الذي وصلنا، ومؤكِّداً بشكلٍ خاص أن الصليب هو سبب اشتراكنا في تقديس الثالوث الآب والابن والروح القدس".

وطبعاً لا نملك أن نضيف شيئاً إلى هذا الشرح؛ لأنه يؤكد أن الرشم الأول (الرب مع جميعكم)، مرتبط بالرشم الثاني (قدوس). الأول يؤكد مجيء ربنا بالجسد وهو ما ترمز اليه أخذ اللفافة من على القربانة، والثاني تقديم حياته، وهو ما ترمز إليه أخذ اللفافة من على الكأس.

ويقول نفس الشرح السابق:

"إن الآب عندما خلق الإنسان كان يرتِّب لإعلان ذاته بالابن، ولذلك هيَّأ رتبة الخليقة الأولى، وجعل الإنسان سيداً عليها؛ لأنه وُهِبَ أن يكون على صورة الله ومثاله إن حفظ الوصية".

ورتبة الخليقة الأولى عند الآباء تؤكد أن الخلق كان عملاً إلهياً قَصَدَ به الآب أن يُعلن عن محبته واهتمامه بالإنسان، وهو الذي جعل الابن يأتي لكي يُكَمِّل الخليقة الأولى ويرفعها إلى رتبة الخليقة الثانية أو الجديدة.

"ولذلك فإن الاستعداد لمجيء الابن هو شكر الكنيسة على الخليقة الأولى، التي رغم أنها أُخضِعَتْ للباطل بسقوط آدم الأول، إلَّا أنها لم تصبح مرذولةً تماماً من الآب؛ لأنها لو رُذِلَت ما كان الابن بالحقيقة قد جاء ليخلصها ويرفعها".

> "وأعلم أن رشم الصليب على الشعب أولاً، ثم على الخدام هو تأكيد شركة ووحدة الكنيسة في الثالوث الآب والابن والروح القدس، الذي هو مثال الثالوث على الأرض. ويأخذ الشعب الرشم الأول؛ لأن منه تظهر الأبوة في الأساقفة والقسوس، فهو كَنز الآب الذي يُودَع للأمناء على الأبوة".

رشومات التقديس، ورشومات ما قبل القسمة وما بعدها:

من النصوص الأساسية التي بدونها لا يمكن أن نفهم هذا الجزء الصعب من القداس، نصٌّ عند القديس كيرلس السكندري، وهو يتحدث عن شق ملابس المسيح وتوزيعها على أربعة أقسام، حيث يقول:

> "وهكذا يجب أن نفكر في رمز تقسيم ملابس المسيح التي رغم أنها قُسِّمَت إلى أربعة أجزاء إلَّا أن القميص ظل واحداً بدون تقسيم، وهذا إشارةٌ إلى التوزيع، ووحدة الذبيحة" (تفسير انجيل يوحنا ص ٧٨).

واضحٌ إذن أن المسيح لا يمكن تقسيمه مطلقاً. ولذلك، وحتى عند توزيع الذبيحة، يؤكِّد القداس أننا لا نتناول جزءاً من جسد المسيح، بل المسيح كله. وكما نعرف من تعبير بولس البوشي أن تقسيم الجسد ليس تقسيماً للجسد كما هو شائع، إنما حسب التعبير الواضح لهذا العالم الجليل:

> "ونحن لا نقسِّم الجسد في الصينية، ذلك أن المسيح لا ينقسم، فهو المسيح الواحد أمس واليوم وإلى الأبد بعينه، كلمة الآب الأزلي الذي تجسَّد لأجلنا".

إذن ماذا يحدث في القسمة؟

> "إننا نقسِّم الجسد، أي تظهر أعضاؤه، أي الكنيسة؛ لأن الرسول يقول: "وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كورنثوس ١٢: ٢٧). هذا المسيح الواحد هو الحقيقة التي تختفي خلف الجزء الطقسي الذي يبدأ من: الجسد المقدس، إلى: جسد مقدس ودم كريم حقيقي ليسوع المسيح ابن إلهنا ...".

لذلك، فغاية الطقس هي تأكيد الإيمان، ولذلك جاء رشم الجسد بالدم والدم بالجسد – لا سيما عند آباء الكنيسة السريانية – مؤكِّداً حقيقة هامة هي وحدة ذبيحة المسيح على النحو الذي تُبرزه القسمة السريانية: "هذا الجسد لهذا الدم، وهذا الدم لهذا الجسد"، وهذه الوحدة لا تجعل الكأس منفصلاً عن الجسد، أو الجسد منفصلاً عن الكأس، بل ذبيحة واحدة، ولذلك يتكرر أثناء رشم الجسد بالدم "جسد مقدس ودم كريم" تأكيداً لوحدة الذبيحة وأن المسيح واحدٌ.

من جانب آخر تذكر الرشومات القديمة السريانية أن رشم الجسد بالدم أولاً من فوق ومن أسفل، وهو يتم عندنا في مقدمة القسمة وأثناء صلاة الشعب: "نسجد لجسدك المقدس"، يؤكد أن جسد المسيح قد صُبغَ كله بالدم.

أمَّا طريقة التقسيم الحالية، فهي سريانية، وشرحها معروفٌ في المصادر السريانية. وقد أسهب الأب أسحق ساكا السرياني في شرح معانيها الرمزية[1].

أمَّا طريقة التقسيم المعروفة في الخولاجي القبطي والتي شرحها العالم الجليل القمص عبد المسيح المسعودي، فهي لا تُستخدم في كنائسنا الآن، وهي معروفة لنا في القداس السرياني المنسوب للبابا تيموثاوس السكندري.

---

(١) المطران أسحق ساكا، تفسير القداس بحسب طقس الكنيسة السريانية الأرثوذكسية الأنطاكية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣، ص ١٩٦ – ١٩٨ وما بعدها، حيث شرح طريقة تقسيم الجسد موقِّعاً إياها على كلمات القسمة السريانية: "هكذا بالحقيقة تألم كلمة الله بالجسد ...".

وتؤكد لنا الرموز أن عدم تقسيم الجسد إلى أجزاء والاكتفاء بالتقسيم من فوق والاحتفاظ بالقربانة سليمة بدون كسر هو لتأكيد وحدة جسد المسيح وتنوع أعضاؤه. وهذا ما يذكره بولس البوشي وهو يشرح كيف أن المسيح لا ينقسم، وإنما القسمة هي إظهار أعضائه، أي جماعة المؤمنين (ميمر على تقسيم جسد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح).

الاسباديقون:

يرمز الاسباديقون إلى المسيح الذي يحوط به إثنا عشر صليباً رمزاً للرسل. وهنا تؤكد القربانة أن الصليب هو علامة الرسولية الحقة. وقد عثرنا على ميمر في شرح القربانة يعود إلى القرن الرابع عشر يقول:

> "القربانة مستديرة مثال إلى كمال الخلاص، فالدائرة هي الشكل الجيد الكامل. إثنا عشر صليباً صغيراً هم مثال للرسل القديسين الذين ظهرت رسوليتهم بإتباعهم طريق الرب، فقد نالوا ذات الأتعاب. وجلوسهم حول المسيح هو مثال الكنيسة الجامعة التي تحيط بالرب وهو حاضر في وسطها. وتُزيَّن القربانة بلحن الخلاص (قدوس.. قدوس.. الخ) لأنها علامة التسبيح التي تؤكد بيقين وحدة السمائيين والأرضيين، وتوضع فيها خمسة ثقوب مثالاً لجراح الرب التي احتملها بإرادته عنا".

وطبعاً من الواضح أن القربانة تحمل أساس الكنيسة: المسيح له المجد والرسل. وهؤلاء هم الذين ننضم إليهم بالتناول؛ ليكون الجميع واحداً كما أننا نحن واحد (يوحنا ١٧: ٢٠ - ٢٢).

ومن هنا جاء رشم الجسد بالاسباديقون مؤكِّداً توزيع المسيح لحياته على أعضائه. ثم الاحتفاظ بالاسباديقون في الكأس نصيباً خاصاً بالكاهن دون سواه؛ لأن الكاهن يحمل كهنوت المسيح.



رسم لقربانة كاملة قبل القسمة



رسم لقربانة بعد القسمة يظهر فيها علامة الصليب

يظهر شكل الصليب، ويظهر أيضاً أنه يشمل القربانة كلها، لأن الجسد المصلوب هو

الجسد الواحد، المسيح والكنيسة.

القسم الثالث

شرح القداس الإلهي

نضع هنا ثلاثة نماذج لشرح القداس الإلهي.

الشـرحان الأول والثـاني يعـودان إلى القـرن الخـامس / والسـابع، ومـع أن الـذين وضعوه من علماء الكنيسة السريانية، إلَّا أنه من أهـم المراجع الطقسية التي يجب العودة إليها لدراسة الجوانب الرمزية.

والشرح الأول لجرجس أسقف العرب، والشرح الثاني لموسى باركيفا. وقد نُشِرَت المقالتان بالسريانية مع ترجمة إنجليزية[١].

أمَّا الشرح الثالث، فهو الشرح المنسوب لسمعان بن كليل.

---

[1] R.H. Connally - H. W. Cordington. Two commentaries on the Jacobite Liturgy, by George Bishop of Arabs and Moses bar kepha.

الشرح الأول

لجرجس أسقف العرب

١- التقدمة:

تبدأ بخدمة المزامير التي تسبق الأسرار وترتل بصوت واحد، يعبِّر عن إرادة واحدة لشعب الكنيسة واتحادهم بالله.

قدوس الله: يصرخون بها ثلاث مرات، وهي اعترافٌ بمجيء الأمم إلى الإيمان، وكمال هذا الإيمان الآن في السر الذي سبق ورآه إشعياء.

سماع الأسفار المقدسة: ومعانيها هو الطعام الروحي الدائم للنفس، وهو مثل الخبز والماء اللذان يتغذَّى بهما الجسد.

العهد القديم: يُقرأ قبل العهد الجديد للدلالة على أن ما سبق وأخبر به العهد القديم قد تم.

المجمرة: التي يحملها الشماس حتى صحن الكنيسة للدلالة على اهتمام الله بالكل، وانتشار الرائحة الذكية للدلالة على خلاص المسيح الذي ذاع للكل. أمَّا عودة الشماس بالمجمرة إلى الهيكل، فهو للدلالة على ثبات الخلاص وعدم تغيُّره، فهو يعلنه الهيكل بدون نقص، مثل المصباح المنير الذي إذا أخذت من نوره، أشعل المصابيح

الأخرى دون أن ينقص نور المصباح الأصلي.

٢- قبلة السلام:

التي يعطيها المؤمنون كلٌ للآخر، وهي نهاية للعداوة القديمة وإطفاء للغضب، وتأتي بالسلام والسكينة، ومحبة كلٍّ للآخر، والمصالحة مع الله والملائكة القديسين.

٣- الشمامسة:

يشبهون اللاويين في القديم، ولذلك هم يقومون بخدمة الكنيسة، أي قراءة الأسفار والكرازة، وحراسة أبواب الكنيسة، ويصرخون ويطلبون من الشعب الهدوء أو الصمت، كما أنهم يجعلون كل إنسان يقف في مكانه الخاص به حسب رتبته وحالته (الروحية).

أمَّا الكاهن: فهو يقوم بثلاثة أمور رئيسية، فهو **أولاً** يُشَبَّه بالفادي معطي الحياة، الذي قدَّم ذاته لله أبيه لكي يصالحنا معه. **ثانياً**: هو اللسان في رأس الكنيسة، ولذلك فهو الناطق عنها، **ثالثاً**: هو الذي يعلن الأسرار.

٤- المذبح:

يدل على عمانوئيل نفسه، الذي هو شجرة الحياة، والخبز والخمر اللذان يوضعان عليه للدلالة على جسد ودم الله الكلمة، وهذان هما ثمرة شجرة الحياة. وعندما تُمزج الكأس المحلّى بالخمر والماء، فذلك للدلالة على الدم والماء اللذين نبعا من جنب المسيح الفادي وهو معلقٌ على الصليب.

الستر: الذي يوضع على القرابين[١] ويغطيها للدلالة على سرية وعدم إمكانية رؤية القوة الكامنة فيها. وعندما يرفعه الشماس، فهو للدلالة على أن السِّر يُعلَن لكلٍ حسب استحقاقه، ويدل على أن المسيح يأتي ليعلن هذا السر.

الستارة: التي تغطي باب الهيكل هي رمز للستر الذي يحجب الموضع السمائي، فهو لم يظهر بعد.

أما الذين يحضرون للتقدمة وتقديس الأسرار، ويخرجون بدون تناول، فإنهم رغماً عن إرادتهم يُحَاربون بواسطة الشياطين، وذلك لأسباب لا نعرفها نحن، وإنما يعرفها الله وحده.

وهؤلاء عندما يتصالحون مع الله يسقطون في تجارب متنوعة. وقد عَلَّمَنَا الآباء أن هؤلاء بإرادتهم يُقبِلون على التجارب ويُخطِئون ويُسَلَّمون إلى الشياطين حسب القول: "أسلمته للشيطان لكي يتعلم أن لا يجدِّف" (١ تيموثاوس ١: ٢٠). وربما يُجَرَّب هؤلاء لأسباب أخرى، لكن أهم هذه الأسباب الكسل (التواني) والخوف (الجبن).

الشمامسة مثل الملاكين اللذين شاهدتهما النسوة عند رأس وقدمي يسوع الفادي.

والبطرشيل[٢] على الكتف الأيسر علامة الخضوع للكهنة.

والمراوح التي يحملونها دلالة على انتسابهم للطغمة الملائكية، فهي مثل الأجنحة، ولكن للعقل وليس للجسد، فالعقل يطير دون سقوط.

---

(١) ديونسيوس الاريوباغي رئاسة الكهنوت فصل ٤ مجلد ٣ : ٤٨٤ – ايسيذوروس البيلوسي رسالة ١٣٩.

(٢) الكلمة اليونانية والسريانية هي Orarium وليست البطرشيل، ومع ذلك لأن البطرشيل شائعة عندنا فقد تركناها.

٥- السجود:

هو دلالة على سقوط آدم، أمَّا القيام من السجود، فهو دلالة على قيامتنا بقيامة المسيح. أمَّا في يوم الأحد والأسابيع السبعة للخماسين، فنحن لا نسجد؛ لأن هذه أيام قيامة المسيح التي بها صار لنا قيامة.

٦- أبانا الذي في السموات:

هي صلاة الجسارة[١] وهي التي تدل على أننا أبناء الله بالنعمة. وهي صلاة فيها اعتراف بأن الله هو الخالق وصاحب الصلاح الذي يكره الشر، كما أنها تُعَلِّم الرجاء ومغفرة الخطايا وطلب ما هو ضروري فقط.

٧- القدسات للقديسين:

تعني أن الأسرار المقدسة تعطى للأتقياء وليس للنجسين.

"**واحد هو الآب القدوس. واحد هو الروح القدس**"، تعلن وحدة جوهر الثالوث القدوس - الآب والابن والروح القدس - واعترافٌ بأن الطبيعة الالهية جعلت طبيعة البشر المائتين تستحق اسمه القدوس.

٨- تقسيم الأسرار:

وتقسيم الأسرار المقدسة للمؤمنين يدل على اجتماع المؤمنين معاً واتحادهم كلٌ بالآخر وبالمسيح طبقاً لما قاله النبي: "سوف أقسمه للكثيرين وهو يقسم ميراثه لكثيرين"

---

(١) نفس الكلمة التي تقال في القداس الباسيلي وتترجم دالة Παρρησια .

(أشعياء ٥٣: ١٢). أي ميراث مغفرة الخطايا.

٩- قبول الأسرار:

وهو اتحادنا بالله الكلمة ابن الله، واليد اليمنى التي تمتد لقبول الأسرار بينما تحملها اليد اليسرى هو علامة على إكرام العطية التي تُعطَى، وهو عربون حياة عدم الموت[١].

والكاهن الذي يقدِّم الأسرار يتناول قبل الكل، وبعده يتناول الشعب، وذلك ليكون مثالاً للتقوى ظاهراً أمام الجميع.

١٠- الصلاة التي تقال بعد تناول الأسرار:

هي شكر واعتراف يقدِّمه الكل بعد قبول العطية.

١١- الكاهن يغسل يديه أمام المذبح:

إعلاناً منه بأنه يقف أمام المسيح ديان الكل الذي يفحص قلوب الشعب وأسراره، وأن إليه هو يخضع الكل. وهذا يعلِّم الشعب أن يغسل عقله بعد التناول من كل الاهتمامات العالمية.

---

(١) كانت الافخارستيا توضع في أيدي المتناولين بشهادة كل آباء الكنيسة، حتى القرن السادس. راجع القديس كيرلس الاورشليمي العظة ٢٣: ٢١ تعليم الموعوظين، وأيضاً الآباء الحاذقون في العبادة – ميمر البساطة للقديس فيلوكسينوس ص ٥، طبعة دير السريان.

الشرح الثاني

شرح سرِّ القربان لموسى باركيفا

١- الأسماء التي تُطلق على هذا السر:

هي أسماء ستة: الاجتماع – الشركة – التقرب – القربان – السر – كمال الكمال.

يُقال له "**الاجتماع**"؛ لأن الكل يجتمع معاً، كما أن كل ما فينا يُجمع ليقدَّم في وحدة مع الله الواحد.

"**الشركة**"؛ لأننا جميعاً نشترك في جسد المسيح، ونصبح جسداً واحداً معه، كما قيل: "كل من يأكل من هذا الجسد ويشرب من هذا الدم، يكون فيَّ وأنا أكون فيه" (يوحنا ٦: ٥٦)، وأيضاً يقول الرسول: "نحن أعضاء المسيح" (أفسس ٥: ٣٠ – ١ كورنثوس ٦: ١٥).

"**التقرب**"؛ لأننا نحن البعيدين والقريبين، والذين في السماء، والذين على الأرض، صاروا قريبين كلٌ من الآخر، كما يقول بولس: "الذي فيه نقترب" (أفسس ٢: ١٨)، أي الشعب مع الشعوب، والسمائيين مع الأرضيين.

"**القربان**"؛ لأن المسيح صار قرباناً لله الآب عن خطايانا، كما يقول الرسول:

"الذي قدَّم ذاته قرباناً" (عبرانيين ٩: ١٤) عن خطايانا، وأيضاً وفي شريعة موسى كانوا يقولون "قربان" للذبائح التي تقدم عن الخطية.

"**السِّر**"؛ لأن المسيح قدَّم السر بشكلٍ سري، وخفي عن جماعة تلاميذه في العلية. ولأنه بعد أن سلَّم السر لتلاميذه، أعلن لهم سر آلامه.

"**كمال الكمال**"، لأنه يُكَمِّل الأسرار الإلهية الأخرى، فكل مَن يعتمد لا يُكَمَّل حتى يتناول الأسرار، كذلك كل من يُرسَم شماساً أو كاهناً تكمل هذه البركة ويَكمُل هو بالتناول[١].

٢- التفسير السري للناقوس:

يضرب الناقوس[٢] للأسباب التالية:

أولاً: لأن استخدام قطعة الخشب للدلالة على الخطية التي كانت بسبب الشجرة والتي كانت عصياناً للوصية وطرداً من الفردوس. وبخشبة الصليب صار لنا الفداء من العصيان، ولذلك كلما سمعنا صوته، نرشم ذواتنا بعلامة الصليب قائلين: "باركني يا رب"، أي اسمح لي يا رب أن أسبِّحك على الفداء الذي قيل عنه: "يا رب أفتح شفتي" (مزمور ٥١: ١٥).

ثانياً: لأن البوق كان يجمع الجيوش للملك، حتى يهتفون ويمجِّدونه، وهكذا يجمعنا الناقوس لكي نسبح المسيح ملكنا.

ثالثاً: لأن البوق يجمع جيوش الملك لكي تستعد للقتال ومنازلة العدو، وهكذا

---

(١) ديونيسيوس الأريوباغي رئاسة الكهنوت فصل ٤ مجلد ٣: ٤٢٤.

(٢) الكلمة السريانية "ناقوسا"، واليونانية Σεμαντρον .

يجمعنا الناقوس لكي نحارب الشيطان عدو جنسنا.

رابعاً: لأن البوق يجمع جيوش الملك لتوزيع العطايا عليهم، وهكذا يجمعنا الناقوس في حضرة المسيح ملكنا الذي يعطينا هذه العطايا: مغفرة الخطايا، وقبول صلواتنا، وكل العطايا الروحية الأخرى.

معنى قدوس الله:

يليق بنا أن نقول قدوس الله. **أولاً**: فمَن الذي علَّمَنا أن نقول له قدوس؟ **وثانياً**: لماذا نقول قدوس الله؟ **وثالثاً**: لأي أقنوم من أقانيم الثالوث نوجّه التقديس؟ **ورابعاً**: ما هو معنى "قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، الذي صُلِبَ عنا ارحمنا"؟

أمَّا مَن الذي علَّمنا أن نقول ذلك، فإن البعض يقول إنها مأخوذة من النبي أشعياء، الذي رأى رؤيا عجيبة من الله. السارافيم يقدِّسون رب المجد ويقولون: "قدوس ... رب الجنود" (اشعياء ٦: ٣)، ومن أشعياء أخذ الآباء القديسون هذه التسبحة لاستعمالها في الكنائس. بينما يقول البعض إن ربنا يسوع عند صلبه وبعد أن مات وأسلم الروح في يدي أبيه، جاء السارافيم معاً حول جسد المسيح، وقالوا هذه التسبحة، ولم يقولوا الذي صُلِبَ عنَّا، فهو لم يُصلب من أجل الملائكة، بل من أجل جنس البشر. وأثناء ذلك كان يوسف الرامي المشير حاضراً، وهو الذي جاء ليطلب جسد المسيح من بيلاطس لكي يكفنه بالحنوط، فسمع يوسف الرامي الملائكة يقولون "قدوس الله.. قدوس الحي الذي لا يموت"، فاستنار عقله وأضاف هو "الذي صُلِب عنَّا أرحمنا".

ويقول البعض الآخر إن أغناطيوس الناري[١] وهو تلميذ بولس الرسول هو الذي

---

(١) الشهيد إغناطيوس الأنطاكي، استشهد عام ١٠٧.

ثبَّت استعمال هذا التقديس، وهو الذي قسَّم الكنيسة إلى قسمين: قسمٌ يصلي، والآخر يجيب عليه مثل مجمع اليهود، ومن أغناطيوس إلى يومنا هذا ثُبِّتت هذه العادة. ويقولون إن أغناطيوس كان عقله يُخطف إلى السماء، ويرى أجناد الملائكة، بعضهم يرتل ويسبِّح والبعض يجيب، وسمع هذه التسبحة في السماء، وهذا الرجل القديس هو الذي ثبَّت ذلك في الكنيسة.

والسؤال الثاني: لأيٍ من أقانيم الثالوث نوجِّه التسبيح؟ نقوله للابن الذي تجسد وتأنس لأجلنا، ولا نشترك مع الهراطقة الذين يقولون، قدوس الله الآب، قدوس الابن القوي، قدوس الروح القدس الذي لا يموت.

ومعنى هذا أن الذي صُلِبَ عنّا ليس الابن، بل اقنوم رابع، وبذلك يعترفون بأربعة وليس بثالوث مثل المسيحيين.

ونحن نقول إننا نوجِّه التسبيح للابن نفسه، الذي لأجلنا نحن البشر صُلِبَ، ونقول له: "قدوس القوي... الذي صُلِبَ عنا ارحمنا".

والسؤال الثالث: لماذا نقول قدوس الله؟ نجيب: إننا نقدم الشكر للكلمة الذي تجسَّد لأجلنا وصُلِبَ، ومات وفدانا، ولذلك نقدِّسه بهذا التسبيح.

والسؤال الرابع: ما معنى قدوس الله؟ نقول: لأننا نفهم أن الله الكلمة وهو الغني، صار فقيراً لأجلنا، وصار إنساناً دون أن يفقد لاهوته، بل أظهر أنه الإله الذي صار جسداً دون أن يتغير، فنشكره قائلين قدوس الله.

أمَّا معنى الكلمات "قدوس القوي"، فهي تعني الله الكلمة الذي تجسد وتقبَّل الآلام والجلدات والصلب، ورغم أن هذا يبدو ضعفاً، إلَّا أنه ظهر القوي وحده بشكلين: لم يتألم لاهوته، وإنما ربط الشيطان الملعون، وخلَّصنا من سطوة الطاغية، "أشهر السلاطين جهاراً في جسده" (كولوسي ٢: ١١ – ١٥).

ونشكره، ونقدِّسه "قدوس القوي"؛ لأنه استطاع، وهو القوي أن يتجسد دون أن يتغيَّر، وأن يتألم ويصلب ويموت ويظل غير متألم وغير مائت.

وما معنى "الذي لا يموت"؟ لأن الله الكلمة نفسه الذي واجه الموت في جسده، ظل غير مائت، بل نزل إلى الجحيم، وأخرج نفوس الأسرى، وقام في اليوم الثالث، وأعطانا العربون العظيم بالقيامة من الأموات، وبالتالي حياة عدم الموت، فنشكره، الذي لا يموت.

أما معنى "الذي صلب عنا ارحمنا"، فإننا نفهم أنه احتمل كل هذا لأجلنا حتى أنه بذل ذاته على الصليب، ونقدم له الشكر قائلين: "الذي صُلِبَ عنا ارحمنا"، أي الآن كما في كل آن، أنت ترحمنا.

٤– قراءة الأسفار:

نقرأ الأسفار لهذه الأسباب:

أولاً: لأن الأسفار تقدِّم لنا الطعام الروحي للنفس، وتتغذى النفس بواسطة الكلمة مثلما يتغذى الجسد على الخبز والماء.

ثانياً: لأنها تعاليم الحياة والبشارة الأكيدة بملكوت السموات.

٥– المزامير وهليلويا:

تقال قبل قراءة الأسفار؛ لأنها مثل البوق، تجمع المؤمنين لسماع الكلمات الإلهية.

لماذا نقرأ العهد القديم قبل العهد الجديد؟ لأن العهد القديم هو شهادة عن الجديد، ولكي يعلِن الجديد تمام العهد القديم.

٦- ما معنى: "قفوا حسناً":

وهو ما يقوله الشماس قبل الإنجيل، أي لنكن في سكوت ولنسمع. والشماس يحُث الشعب على ثلاثة أمور: أن يقفوا حسناً، وأن يصمتوا ولا يتكلموا، أن يفهموا ما يسمعونه وأن لا يسمحوا لأفكارهم بالتجوال.

٧- السلام لجميعكم:

التي يقولها الكاهن قبل الإنجيل: نقول إن هذا يعني أنها تحمل بشارة بالخبر السار أي سلام المسيح. الذي جعل السماء في سلام مع الأرض، والشعب مع الشعوب، حتى أن الملائكة قالت: "ها أنا أبشركم بفرح عظيم" (لوقا ٢: ١٠). "وأيضاً ما أجمل أقدام المبشرين بالأخبار السارة" (أشعياء ٥٣: ٧ - رومية ١٠: ١٥)، ولأن الإنجيل "Ευαγγελιον" يعني الخبر السار.

٨- ما يقوله الشماس بعد الإنجيل:

يحُث الشعب على أن يقدموا الصلوات والتضرعات لله الكلمة الذي أكمل التدبير. ويقول الشماس: "أخرجوا أيها الموعوظون"، ويضيف إلى ذلك أيضاً الساقطين قبل تعميدهم، ولذلك لا يحضرون الأسرار، فهم لا يشتركون فيها لأنهم لم يعتمدوا، أي أن خطاياهم لم تغفر ولا تقدسوا بالمعمودية.

٩- ماذا يعني المذبح؟

يقول القديس ديونيسيوس إنه يدل على عمانوئيل الذي هو شجرة الحياة، والبعض يقول إنه يدل على الصليب الذي صُلِبَ عليه الرب وذُبِحَ وقُدِّمَ ذبيحةً. ومار يوحنا ذهبي الفم يقول إنه يدل على قبر المسيح.

ونحن نعلم أن المذبح يدعى المسيح، وشجرة الحياة، والصليب وأسماء أخرى، لكن المذبح يدل على القبر الذي وُضِعَ فيه المسيح بعد أن سُمِّرَ في الصليب، ولذلك عندما نبني المذبح نجعله طويلاً من ناحية الشمال والجنوب ليكون على شكل قبر.

وإذا كان المذبح يدل على الصليب -كما يقول البعض - ونحن نقدم عليه الجسد ودم المسيح، فمن الواضح أننا نفعل ذلك ذكرى صليبه وذبحه.

المذبح يدل على القبر لا سيما وأننا نقول: "نصنع ذكرى آلامه وموته وقيامته". وموته وقيامته كانا في القبر ومن القبر. إلى ماذا يشير وضع الخبز والخمر على المذبح؟ الخبز هو جسد الله الكلمة والخمر دمه.

١٠- لماذا نمزج الكأس؟

نمزج الكأس بالخمر والماء ولا يكون فيها خمرٌ فقط؛ لأن دماً وماء نبعا من جنب الرب عندما طُعِنَ في جنبه بالحربة، ولم ينبع دمٌ فقط، بل دمٌ وماءٌ كما شهد يوحنا (يوحنا ١٩: ٣٤).

١١- ما هي رتبة الكاهن؟

أولاً: الكاهن في مكان المسيح الذي كسر جسده أمام الرب ووزَّعه على تلاميذه وقال: "هذا هو جسدي". **وثانياً**: الكاهن هو اللسان في رأس الجسد، أي جماعة المؤمنين، فهو الذي يتضرع لله عن الكنيسة كلها. **وثالثاً**: هو الذي يرسم الأسرار أمام المؤمنين، **ورابعاً**: هو الوسيط بين الله والناس.

١٢- عن الشمامسة:

الشمامسة في رتبة الملائكة، وهم يخدمون خدمة الشاروبيم والسارافيم الذين

يغطّون المذبح بأجنحتهم، ليس لكي يبعدوا الذباب، بل لكي لا يسمحوا لأحد من الاقتراب من الأسرار، وما على الأرض هو مثل الذي في السماء. ويشغَل الشمامسة مكان اللاويين في العهد القديم. ويقفون عند المذبح مثل الملاكين الذين كانا عند الرأس والقدمين عندما كان يسوع المخلص في القبر.

١٣- عن البخور:

البخور الذي يخرج من المذبح إلى صحن الكنيسة ثم يعود إلى المذبح (الإشارة هنا إلى المبخرة) يعني هذه الأمور:

أولاً: صلاح الثالوث القدوس الذي يشمل كل القديسين، إلّا أنه لا يتغيَّر عن ثباته ولا يَقِل.

ثانياً: إنه يدل على الله الكلمة، الذي نزل من السماء وتجسد وصار رائحةً ذكيةً وبخور مصالحة. أي ذاته التي قدَّمها لله الآب عنّا، وصنع خلاصاً لكل العالم، ثم عاد إلى أبيه دون أن يتغيَّر أو يفقد لاهوته.

ثالثاً: ومبخرة البخور التي تخرج من المذبح تدل على عمانوئيل، وتدور في صحن الكنيسة على كل المؤمنين وتأخذ رائحة المؤمنين الذكية، وتعود لكي تقدمها إلى عمانوئيل، أي المذبح.

رابعاً: إننا في وليمة المسيح الملك نجلس معه ومع الكنيسة الجامعة، ويمر الشماس حاملاً للمبخرة على المؤمنين بعد أن يقدِّم البخور للملك والملكة وعظماء المدعوين في الوليمة، ثم الشعب، عوضاً عن العطور وغسل الأيدي والأرجل.

١٤- صلاة الصلح:

وهل يليق أن نقول: المجد لله في الأعالي بعد صلاة الصلح؟ بعد تلاوة الخبر السار وسماع كلمة التعليم، نصلي صلاة السلام (الصلح) والتي نختمها بتسبحة الملائكة؛ لأن وحدة السماء والأرض جعلت الكل يفرح ويهلل ويمد يد السلام بالقبلة الرسولية.

السلام لجميعكم:

بعد أن يقبِّل الشعب بعضه البعض، يقول الكاهن: "السلام لجميعكم"؛ لكي يكون السلام من الله كاملاً، وهو السلام الذي قال الرب لتلاميذه عنه: "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌ بعضكم لبعض" (يوحنا ١٣: ٣٥)، وأيضاً يعرف الشعب أن غاية الوصية أن "تحب الرب إلهك مثل نفسك".(متى ١٩: ١٩).

ومع روحك أيضاً:

يجيبون الكاهن، كما لو كانوا يجيبون المسيح، ويقولون: "ومع روحك"؛ لأن هذا الذي أعطيته لنا في المعمودية أي السلام، وهو منك: "سلامي أترك لكم سلامي أنا أعطيكم" (يوحنا ١٤: ٢٧)، نعترف به وأيضاً نقول للكاهن - حسبما ذكر القديس غريغوريوس - "السلام الذي تأخذه هو السلام الذي تعطيه".

١٥- قبلة السلام:

السلام الذي نعطيه كلٌ للآخر في هذا الوقت يعني ما يلي:-

أولاً: لأننا نستعد للشركة مع الله بجسده، فلا يمكن أن نشترك إذا كنّا منقسمين وضد بعضنا البعض، ولذلك نعطي السلام كلٍّ للآخر، وعندما نُقَبِّل بعضنا البعض، فإن المصافحة من الخارج تعني أيضاً المصافحة من الداخل، وليكُن لنا في الداخل محبة

واتفاق.

ثانياً: عندما نكون في سلام كلٌ مع الآخر، فإننا في سلام مع الله.

ثالثاً: السلام الذي نتبادله يزيل ويطفئ العداوة المتبادلة.

رابعاً: وبالسلام نعرف أن المسيح وضع حداً للعداوة بين الله والإنسان، والشعب والشعوب، والنفس مع الجسد. وجعل السلام والمحبة يملكان علينا.

خامساً: بالسلام الذي نعطيه، نتمم كلمة الرب الذي قال: "إذا قدَّمت قربانك على المذبح ... اترك قربانك واذهب اصطلح مع أخيك" (متى ٥: ٢٣ – ٢٤).

١٦– غسل يد رئيس الكهنة والكاهن قبل الأسرار:

لماذا يغسل الكهنة أيديهم في هذا الوقت بالذات، وأمام المذبح؟

لكي يتعلم الشعب كله أنه يجب عليهم أن يغسلوا ذواتهم من كل الاهتمامات الدنيوية. وغسل الأيدي أيضاً يعني أنه يعلن أنه طاهر الضمير أمام الرب؛ لأن المسيح هو فاحص القلوب وعارف الخفيات، وإليه وحده يسلِّم فكره وحواسه. وغسل اليدين يعني أنه طاهر من كل خطية، ولكنه ليس كاملاً أمام الله[١] وأخيراً أنه مثل استعداد كهنة العهد القديم للخدمة.

١٧– رفع الابروسفارين:

لماذا يوضع الابروسفارين ويغطي الأسرار، ولماذا يُرفع ويُوضع ثلاث مرات؟

---

(١) ديونيسيوس الاريوباغي، رئاسة الكهنوت فصل ٣ مجلد ٣ : ٤٣٧.

أولاً: لأنه يدل على سرية وعدم ظهور اللاهوت المخفي في هذه الأسرار.

ثانياً: لأنه رمز للحجر على الذي وضع على القبر.

ثالثاً: لأن عمانوئيل غطَّته ذبائح الناموس والخدمة الرمزية، ولكن الآن كل هذا قد أزيل. ولأن اللاهوت المخفي في الأسرار غير مُعلَن لغير المعمَّدين وغير المؤمنين.

يُرفَع الأبروسفارين ويوضع ثلاث مرات، لهذه الأسباب: لأن الرسول بطرس لم يدرك أن نعمة المعمودية لمغفرة الخطايا، قد أعطيت للأمم أيضاً؛ لأن الرؤيا التي رآها أي الوعاء الذي يجمع كل حيوانات الأرض من طيور وزواحف، الطاهر وغير الطاهر، وكان الله يريد أن يدله على أن المغفرة ليست فقط لشعب اليهود الذين طهَّرهم الناموس، وإنما لأن نعمة المعمودية المقدسة أعطيت للشعوب أيضاً، أي النجسين.

وعندما يرفعون الابروسفارين ويُنزِلونه يدلُّون على أن عطية الأسرار قد وَهَبَتْ المغفرة لكل الذين يؤمنون بالمسيح من اليهود والأمم.

١٨ – رحمة السلام وذبيحة التسبيح:

لقد انسكب سلام الله علينا، وها هي الذبيحة التي قُدِّمَتْ عن جنسنا وأَعطت لنا الغفران. ويقول الشعب السلام؛ لأن الذبيحة أعطت السلام بين السماء والأرض والشعب مع الشعوب، ثم ذبيحة التسبيح هو الاعتراف الذي قدَّمه المسيح في العلية عندما شكر الله الآب نيابةً عنّا، كما يقول بولس: "الخبز الذي نباركه والكأس التي نعترف بها..." (١ كورنثوس ١٠: ١٦).

١٩ – محبة الله الآب:

هنا ينتهي القسم الأول من القداس، ويبدأ الكاهن القسم الثاني بقوله:

"محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد، وشركة الروح القدس ... مع جميعكم".

فالكاهن يسلِّم الشعب للثالوث الأقدس، ويرشم الكل بثلاثة صلبان؛ لكي يكون وقوفهم في الكنيسة نقياً وبلا عيب.

عندما يقول الكاهن: "محبة الله الآب"، يعلِن أن الله في محبته قدَّم ابنه للموت عنَّا، كما يقول الرسول.

وبقوله: "نعمة الابن الوحيد"، يعلِن أنه بالنعمة ذاق الابن الموت عن الكل، دون أن يكون أحدٌ مستحقاً لموت الابن الوحيد.

وبقوله: "وشركة الروح القدس"، يعلِن أن حلول الروح القدس سوف يتم لتقديس الذبيحة.

٢٠- ارفعوا إلى فوق قلوبكم:

أي أن الأسرار سوف تُعلَن، وأبواب السموات قد فُتِحَتْ، والأرواح المقدسة والقوات والأبرار سوف يحضرون هذه الكرامة العظيمة، فإلى فوق نرفع عقولنا وأفكارنا ولا نعود بعد نتطلع للأمور الأرضية.

ويجيب الشعب: "هي عند الرب". والبعض يقول: "نحن عند الرب الإله"، ومعنى "هي عند الرب"، أي عند الله الآب إلهنا الذي منه الرحمة، وعند الابن المتجسد الذي خلَّصنا، وعند الروح القدس الذي أعطانا التبني بالمعمودية المقدَّسة وسجَّل أسمائنا في سفر الحياة: "افرحوا لأن أسمائكم قد كُتِبَتْ في السموات" (لوقا ١٠: ٢٠).

لنعترف للرب[١]:

نحن نقدم الشكر للرب بخوف:

أولاً: لأن الأسرار الخفية ستُعلَن.

ثانياً: لأن الملائكة والقوات السمائية تقف حول الذبيحة.

ثالثاً: لأننا سوف ننال عطية الحياة العظمى.

مستحق وعادل:

أي مستحقٌ وعادلٌ أن نعترف لله بخوف. ولأن الكاهن والشعب يرون أنهم قد صاروا جسداً واحداً، ولذلك – بعد أن يأخذ موافقة الشعب – ينحني لهم معلِناً أنه سوف يقدِّم الذبيحة ويقول معهم سراً: "مستحقٌ وعادلٌ ..."، وهذا هو بداية الأنافورا.

يقف الكاهن ويسبِّح ويعطي المجد لمن تسبِّحه السموات؛ لأن الله الخالق العظيم هو وحده الذي يستحق التسبيح، وتنضم الكنيسة مع الخليقة المنظورة وغير المنظورة في التسبيح.

٢١– السارافيم الذين لهم ستة أجنحة:

باثنين يغطُّون وجوههم، وباثنين يغطُّون أرجلهم ويطيرون باثنين، وهم يصرخون كل واحدٍ: "قدوس.. رب الجنود". يغطُّون وجوههم لأن الله أزلي بلا بداية، فهو غير مُدرَك. ويغطُّون أرجلهم لأن الله بلا نهاية، فلا نهاية لخدمته. ويطيرون باثنين، أي دوام التسبيح.

---

(١) الاعتراف والشكر بمعنى واحد ولذلك جاءت كلمة نعترف أو نشكر في بعض النسخ لا سيما في الترجمات العربية.

والتقديس المثلث يعني أن الله الذي بلا بداية وبلا نهاية، هو الثالوث القدوس المثلث الأقانيم. وبقولهم: "رب الجنود" يدلُّون على أن الثالوث له طبيعة واحدة، والجنود (الصباؤوت)، أي قوته التي تعلو على كل الكائنات، القادر على كل شيء.

(أ) لقد رأى أشعياء أقنوم الابن، جالساً على عرشٍ عظيم، والساروفيم حوله وهم يغطُّون وجوههم؛ لأنهم لا يدركون أزليته. ويغطُّون أرجلهم؛ لأنهم مندهشون من اتضاعه الذي جعله يتجسد ويصبح إنساناً، ويعبِّرون عن عدم قدرتهم على الوقوف على سر اتضاعه. وهم يطيرون باثنين؛ لأنهم يسبِّحون على الدوام ويقدِّسونه بغير سكوت ويقولون ثلاث مرات: "قدوس"، أي أنه قدوس مع الآب والروح القدس. ويقولون له: "الرب"؛ لأنه من ذات جوهر الآب والروح القدس؛ ولأنه القادر على كل شيء، فهو رب الجنود الذي رغم تجسده لم يفقد إلوهيته، بل غلب الشيطان والموت، وخلَّص الجنس البشري.

(**ب**) يغطُّون وجوههم لكي يعلنوا لنا أنه رغم أنهم من طغمة عالية، إلَّا أنهم لا يتجاسرون على أن يُفصِحوا عما هو غير مسموح لهم حسبما قيل بواسطة أحد الحكماء: "لا تبحث الأمور التي تعلو عنك" (الجامعة ٣: ٢٢). ويغطُّون أرجلهم، أي لا يقدرون على الاقتراب من سر الله الفائق، لا سيما الدينونة، حسبما قيل: "ما يعلو عليك لا تفحصه" (جامعة ٣: ٢٢). ويطيرون بالجناحين اللذين في الوسط للدلالة على أنهم يحتفظون بما لهم باعتدال، أي الأمور التي أُعطيت لهم بواسطة الله؛ لأنهم لا يتعدُّون الشريعة التي ثبَّتها الله خالقهم ولا يتشبَّهون بالشيطان الذي احتقر شريعة الله.

ويجيب الشعب: "قدوس... السموات والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس". أوصنا في الأعالي مبارك الآتي باسم الرب..".

يقول الشعب هذه التسبحة للأسباب التالية:

أولاً: لأن الساروفيم يسبِّحونه بها فهو رب الجنود.

ثانياً: لأنه أتى بالكون من العدم.

ثالثاً: لأنه يحفظ الكون، فلا يذهب إلى العدم.

رابعاً: وتجسد دون أن يتغيَّر، فهو الرب.

خامساً: وغلب الخطية والموت والشيطان وخلَّصنا.

سادساً: ورغم أنه تجسد في جسد ضعفنا، إلَّا أنه ظلَّ الرب الإله القادر على كل شيء.

لهذه الأسباب نقول إن السماء تسبِّحه، وكذلك كل الأرض.

"هوشعنا" هي عبرانية، و"أوصنا" يونانية، ومعناها الخلاص ويُضاف إليها في اليونانية "المجد"؛ لأن يسوع هو المخلِّص وهو رب المجد، حسب شهادة، جبرائيل الملاك الذي قال ليوسف: "ودعى اسمه يسوع (يهوشع) لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم". (متى ١: ٢١)، وقد خلَّصنا من الخطية والشيطان والموت.

وهنا نحن نسبِّحه على الخلاص الذي أعده للخليقة كلها.

"مبارك الآتي باسم الرب"، والمقصود هنا مجيئه الأول للخلاص، ولكنه سيأتي مرةً ثانيةً؛ لكي يدين ويكافئ الكل.

"باسم الرب"؛ لقد جاء باسم "الآب" في المجيء الأول، كما قال، وسيأتي أيضاً كذلك باسم "الآب" في المجيء الثاني؛ لكي يكون من الواضح أنه لم يأتِ باسم آخر، أو أنه غريب عن الآب، بل هو واحدٌ معه في الجوهر: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، وقال أيضاً: "كل ما للآب هو لي" (يوحنا ١٦: ١٥)، "والذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩).

٢٢- التقديس للثالوث:

وبعد ذلك يقف الكاهن ويقدِّم التقديس للثالوث، ويشترك مع السارافيم ومع الشعب في تقديم التقديس للثالوث للآب والابن والروح القدس. ثم يوجِّه الكلام لأقنوم الآب، ويعلِن تدبير الابن الذي أكمله لأجلنا، وبعد أن يتحدث عن تدبير الابن يُخبر بما حدث في العلية، وكيف عندما جاء الابن لآلامه الطوعية (الاختيارية)، أخذ خبزاً وشكر وبارك وقدَّس. وعند ذلك يمسك بالخبز لكي يعلِن أن الابن أخذ جسداً من العذراء، ويقول: "ونظر إلى فوق إلى الآب"، لكي يعلِن مسرة الآب، وأن الابن هو واحد مع الآب.

وعندما يقول: "**شَكَرَ**"، يعلِن أمرين:

الأمر الأول: أنه شكر الآب، وهو في أقنومنا[١]، على تدبير ابنه.

والأمر الثاني: الشكر هو قبولٌ بإرادة الآب، وكما لو كان يقول له: أشكرك لأنني قبلت إرادتك أيها الآب أن أتألم، وأن أموت عن الجنس البشري.

"**وبارك**" تعني أنه:

أولاً: رَفَعَ اللعنةَ التي كانت ضد جنسنا بسبب الخطية، وبارك الجنس البشري بسبب تجسده، وعبَّرت عن ذلك أليصابات بقولها: "مباركة أنت في النساءِ ومباركة هي ثمرة بطنك" (لوقا ١: ٤٢).

وثانياً: أنه يعلن لنا أنه ليس أقل من الآب، فالآب هو الذي يبارك، ولكن عندما يبارك الابن يعلن مساواته بالآب.

---

(١) أو في شخصنا، أي نيابةً عنَّا.

"**وقدَّس**" يعلن هنا أمرين:

أولاً: أنه قدسنا من الخطية، كما قيل: "ها هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا ١: ١٩).

وثانياً: لقد قدَّس نفسه لأجلنا، كما قال: "لأجلهم أقدِّس نفسي ليكونوا مقدَّسين بالحق" (يوحنا ١٧: ١٩).

و "**كَسَرَ**"، وبذلك علَّمنا آلامه وصليبه، وأنه سوف يُذبح وسيُطعَن بالحربة ويموت. ومن الضروري أن نعرف هنا، وفي هذه المناسبة بالذات أن الكاهن عندما يأخذ خبز الافخارستيا ويكسرها دون أن يفصل، فهو يعلِن أن المسيح مات على الصليب، وأنه مات وانفصلت نفسه عن جسده، ولكن لاهوته لم ينفصل أو يفترق عن نفسه أو جسده، ولكنه ظلَّ الأقنوم الواحد غير المفترق[1]، وأنه ظل متَّحداً بنفسه وجسده. فعلى الكاهن أن يكون حذراً حتى يكسر القربانة كسراً قليلاً حسبما شرحنا دون فصل، والكسر هنا يشير إلى انفصال النفس عن الجسد، كما قلنا دون انفصال اللاهوت عن النفس أو الجسد.

وأعطى تلاميذه قائلاً: "**خذوا كلوا**"، فأكل التلاميذ الجسد بدون تردد. "**هذا هو جسدي** ..."، إنه هو جسده ودمه الذي أخذه من العذراء، فالروح القدس الذي حلَّ في أحشاء العذراءِ وجعل جسده من جسدها ودم الله الكلمة. هو نفسه ينزل على المذبح، ويجعل الخبز والخمر اللذين على المذبح جسد ودم الله الكلمة الذي أخذه من مريم.

ومن اللازم أن نعرف أنه منذ الخروج من مصر حتى علية صهيون، كان هذا السر يُقام بشكل رمزي وبدم وذبائح حيوانية حسب شريعة موسى، ولكن من العلية حتى

(1) هذه إشارة واضحة إلى كسر القربانة عند قوله "كسر".

نهاية الدهور يقدِّم الدم والجسد حقاً وليس بشكل رمزي.

"**الذي يُكسر عنكم وعن كثيرين**"، ليس عنكم أنتم فقط، بل عن كثيرين، فهو يعطى لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية، ولكنه يعطى للمؤمنين فقط لسببين:

أولاً: لأنه يغفر الخطايا، وهذا لا يتم إلَّا لمن يؤمن.

وثانياً: لأنه يعطي الحياة الأبدية والملكوت السماوي، كما قال هو في موضع آخر: "كل من يأكل جسدي يحيا إلى الأبد" (يوحنا ٦: ٥-٥٨).

"**وبعد العشاء مزج الكأس ... دمي الذي للعهد الجديد**"، ما هو هذا العهد؟ وكيف نشأ؟ وكيف يؤثِّر ولا يؤثِّر؟

العهد هو وصية لإتمام عمل من الأعمال، وعندما يموت صاحب الوصية يتم تنفيذ الوصية فوراً (عبرانيين ٩: ١٧)، دون أي تغيير في الوصية. وإذا لم يمت الموصي، لا يمكن تنفيذ الوصية. وطالما هو حيٌّ، فهو وحده القادر على أن يغيِّر، أمَّا بعد موته فلا تغيير. وهذا يعلن أمرين:

أولاً: إن الموت هو الذي أسس العهد.

ثانياً: إن الميراث الذي أوصى به، أو سيوصي به لمن يريد أن يعطيهم، قد تأسَّس بدم المسيح.

فالعهد الجديد قائمٌ على دمه؛ لأن الرسول يقول: "بدون سفك دم لا توجد مغفرة" (عبرانيين ٩: ٢٢)، وكان سفك دم الذبائح هو أساس العهد القديم.

لكن ما الذي أوصى به المسيح بسفك دمه، وما هو العهد الذي أقامه؟

أولاً: لقد جعلنا أبناء للآب بالمعمودية.

وثانياً: غفر لنا كل ما علينا من ديون بجسده ودمه.

وثالثاً: أعطانا ميراث الملكوت.

ورابعاً: الفرح الذي لا يمكن أن نتحدث عنه، والذي يحفظنا في هذه الدنيا.

٢٣- "هذا اصنعوه لذكري":

أي افعلوا هذا كما فعلته أنا؛ "لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تخبرون بموتي وتعترفون بقيامتي"، أي أنه بالإضافة إلى أنه يغفر خطاياكم، كلما أقمتم هذا السر، أنتم تعملون أمرين:

أولاً: تذكرون موتي.

ثانياً: تعترفون بقيامتي.

"إلى أن آجيء". من الصواب أن نعرف أنه من مِصرَ حتى العلية كان السر يُحتفَل به رمزياً، أي بدم ولحم الحمل، أمَّا من العلية حتى نهاية العالم، فبدم وجسد المسيح ربنا.

ويجيب الشعب: "بموتك يا رب نبشر..."، أي حسب وصيتك نحن نبشر بموتك؛ لأنه بموتك أنت أمتَّ الموت. "وبقيامتك نعترف"؛ لأنها صارت عربون القيامة وباكورة ثمار الحياة الجديدة. وأيضاً: "ننتظر مجيئك"، أي أن نشرب من الثمار الروحية للخمر الروحي في ملكوت أبيك. والخمر الذي سوف نشربه معه في الملكوت هو التعليم الروحي الجديد الخاص بالأمور العتيدة أن تحدث.

يقول الشماس: "بهدوء وخوف قفوا"، أي أنه يطلب من الشعب أن يستعد لنزول الروح القدس، وأن يقفوا في هدوء؛ لأن عطايا الروح القدس تعطى في صمت

وبخوف حتى لا يحدث تشويش ويصبح الشعب مثل الإسرائيليين يطلبوا أن لا يسمعوا الرب، بل موسى (خروج ٢٠: ١٩).

٢٤- استدعاء الروح القدس:

من اللازم أن نسأل عن حلول الروح القدس، لماذا ينزل على الخبز والخمر اللذين نضعهما على المذبح، وهو يحل عليهما أقنومياً[١] لماذا يحل عليهما الروح القدس؟

للأسباب التالية:

كما حلَّ في أحشاء العذراء مريم، وحسبما قال الملاك: "الروح القدس يحل عليك" (لوقا ١: ٣٥)، وكَوَّنَ الجسد من العذراء، أي جسد الله الكلمة، هكذا يحل على المذبح على الخبز والخمر لكي يجعلهما جسد ودم الله الكلمة الذي وُلِد من العذراء. وأيضاً - كما في التجسد - أراد الآب أن يولَد الابن من العذراء ويتجسد وأن يحل عليها الروح القدس، هكذا في المذبح، يريد الله الآب أن يأتي أقنوم الابن وأن يتحد بالخبز والخمر لكي يصبحا جسده ودمه. وهكذا يأتي الابن لكي يتحد بهما (الخبز والخمر) ويجعلهما جسده ودمه، وهكذا يأتي الروح القدس ويتحد بهما لكي يجعلهما جسده ودمه كما فعل في العذراء مريم. ولذلك ينحني الكاهن بخوف ويصرخ من قلبه في صمت لله الآب، ويسأل ذاك الذي هو أصل كل شيء قبل الأزمان والذي منه كل عطية صالحة (يعقوب ١: ١٧)، أن يرسل على القرابين وعلى الشعب، ولأنه توجد أرواح كثيرة مقدسة ليست هي الروح القدس، يقول الكاهن: "روحك القدوس"، ويضيف: "الرب المحيي الذي يعطي الحياة للملائكة"، ويقول: "المساوي لك في الجوهر"، أي الذي ليس مثل الأرواح المخلوقة، بل الذي هو واحد مع الآب والابن في الجوهر.

---

[١] في النص السرياني qenomaith "قنومث" وهو اسم الفاعل من "قنوما" أي أقنوم. ويمكن مراجعة نفس الكلمة في صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي.

ويصرخ الشعب ويقول: "يا رب ارحم"، لماذا؟

لأنهم أبصروا بالإيمان أن الروح القدس نزل وكمَّل الأسرار[١]، ولذلك يصرخون للآب بخوف قائلين ثلاث مرات: "يا رب ارحم" للدلالة على سرعة الطلبة وأهمية استجابتها.

٢٥- قرع الصدر:

وبعض الكهنة غير المتعلِّمين يقرعون صدورهم أو جباههم، وهذه ليست المناسبة التي تقتضي مثل هذا التصرف؛ لأن:

أولاً: عطايا الروح القدس تعطى في صمت وبدون ضوضاء.

وثانياً: لأن الله الكلمة أتى وحل في مريم في هدوء وتجسد منها بدون جلبة أو ضوضاء، وهكذا يليق في هذه المناسبة أن يأتي هو بأقنومه ويتحد بالخمر والخبز على المذبح.

وثالثاً: لأننا نحن لم نأخذ روح العبودية للخوف (رومية ٨: ١٥). ولذلك علينا أن لا نقوم بجلبة لأننا أخذنا روح البنوة الذي نصرخ به: "أبَّا أيها الآب" (رومية ٨: ١٥). ولأننا أبناء نصرخ: "أبَّا أيها الآب" (غلاطية ٤: ٦). ولأن الروح القدس لم ينزل كما نزل على جبل سيناء في بروق ورعود، إلَّا لأن الإسرائيليين كانوا في حالة العبودية.

٢٦- تذكار الراقدين:

وبعد ذلك يذكر الكاهن والشماس، الراقدين لكي يستريحوا في أحضان ابراهيم

---

(١) راجع كلمة أكمل في بداية الدراسة.

واسحق ويعقوب. ويطلب غفران الخطايا، ويجيب الشعب: "كما كان وهكذا يكون من جيل إلى جيل"، وهذا يعني الماضي والحاضر، ولكن دهر الدهور هو المستقبل والعالم الحاضر والآتي أيضاً، وكما أن اسمك أيها الآب وابنك الوحيد وروحك القدوس يمجَّد ويسبَّح في الماضي، وفي الحاضر وفي المستقبل أيضاً، وليس فقط في أبعاد الزمان الثلاثة، بل في هذا العالم والعالم الآتي أيضاً.

٢٧- القسمة:

ماذا يفعل الكاهن في هذه اللحظة؟

يمسك بالقربانة، ويقسِّم إلى اثنين لكي يؤكد أن الله الكلمة مات بالجسد وذُبِحَ وانحنى بالصليب. ويأخذ جزءاً من الجسد ويغمسه في الدم ثم يرشم الجسد، لكي يعلِن أن الذي ذُبِحَ قد غُمِسَ كله في دمه، ذاك الذي أعطاه في العلية، ثم قدَّمه على الصليب، عندما طُعِنَ في جنبه بالحربة وخرج منه دم وماء. وعندما يأخذ الدم لكي يرشم به الجسد يؤكِّد وحدة النفس والجسد. ويعلِن أن النفس الإنسانية للكلمة المتجسد قد انفصلت عن جسده، وأن نفسه عادت واتحدت بجسده، لكن لاهوته لم ينفصل عن جسده أو نفسه[1] وأيضاً لكي يعلن أن الخبز هو الجسد وأن الخمر هو الدم؛ لأن الدم هو النفس، كما هو مكتوب أن نفس كل جسد في دمه (لاويين ١٧: ١١ - ١٤)، كما يؤكِّد وحدة عمانوئيل الذي لا ينقسم من بعد اتحاد الاثنين، وأن قسمة الجسد كاملة هي عدم انفصال عمانوئيل إلى اثنين، وأيضاً لكي يؤكد أنه بعد أن صُلِبَ على الصليب جعل الكل واحداً بدم صليبه (كولوسي ١: ٢٠)، ووحد السمائيين مع الأرضيين.

وأمَّا الجزء الذي في الوسط، فعندما يأخذه وهو على شكل دائرة، فهذا يعني أن الخلاص عن العالم كله.

---

(١) هذا ما نراه في النص المعروف باسم القسمة السريانية وهنا الإشارة إلى الرشومات التي تأتي بعد القسمة.

لماذا يأخذ بعض الجسد إلى الدم ويرشم به الدم؟

لأن النفس هي في الدم، ولأن النفس عادت واتحدت بالجسد عندما قام من الأموات، وليس لأن الجسد هو الذي ذهب واتحد بالنفس[١].

ولماذا يأخذ جمرةً ويطرحها في الكأس؟

لكي يؤكد أن الدم والجسد واحد، ولكي يعلن أن الدم نابع من الجسد وليس الجسد من الدم حسب طبيعة الكائنات الحية. ولكي يعلن أنه مع وجود الدم في الكأس والجسد في الصينية، إلَّا أنه جسد ودم الله الكلمة الواحد.

٢٨- رشم الجسد بالدم:

وما هو سبب رشم الجسد بالدم بالصليب عدة مرات؟

لأن كل شيء يتقدس ويكمُل في الكنيسة بالصليب، سواء كان الميرون أم مياه المعمودية أم دم وجسد الكلمة، أم وضع اليد، وأيضاً تقديس المذابح والكنائس والمنازل.

فالصليب هو الذي يقدِّس الميلاد الثاني في المعمودية، ويكمِّل الذبيحة غير الدموية وكل خدمة الكهنوت المقدسة. والصليب يقدِّس كل شيء في الكنيسة ولا يتقدس، هو فهو حضور المسيح.

ورشم الصليب ثلاث مرات هو تكريم للثالوث؛ لأن الصلبان الثلاثة دلالة على أن واحداً من الأقانيم هو الذي تجسد، أي الكلمة ابن الله.

---

(١) هذا ظاهر في الطقس القبطي عندما يرفع الكاهن الصينية ويقربها من الكأس في النهاية، ثم وهو يحمل الجسد على يده ويضعه قرب الكأس.

والثلاثة صلبان تدل على دفن الرب وقيامته في اليوم الثالث. والرشومات الثلاثة التي تتم عندما يقول: "أخذ خبزاً وشكر وبارك وقدس"؛ لكي يؤكد أن الآب يريد، والابن يقبل، والروح القدس يقدس، وهو نفسه ما يحدث في استدعاء الروح القدس لأن الآب يريد والابن يقبل والروح القدس يقدس.

"أبانا الذي في السموات": هي صلاة الثقة التي تعلن أننا أبناء الله بالنعمة.

الشرح الثالث

شرح القداس الإلهي

لآباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

المنسوب لسمعان بن كليل[١]

---

(١) هذه الدراسة تقوم على شرح القداس الإلهي كما ورد في كتاب "حكمة الآباء المصريين" وقد أُضيفت لها ملاحظات ودراسات أخرى من مصادر مختلفة وضعت في الحواشي حتى يبقى النص المطول متآلفاً وبلا فجوات. وكتاب حكمة الآباء المصريين قد نُشر قسمٌ منه في كتاب "شرح معاني رشم الصليب"، وقد ساعد الإقبال عليه وتوزيعه على نشر هذا الجزء. ويأتي شرح القداس الإلهي هنا ابتداء من صلاة عشية حتى صلاة باكر ثم القداس الإلهي نفسه. ومع أن الشارح لا يذكر إلَّا القليل إلَّا أنه يضع الخطوط اللاهوتية الأساسية ويتخذ من الطقس الأساس الذي يبني عليه شرحه مما يجعل هذا الشرح من أهم ما يمكن أن نقرأه وندرسه في العصر الحالي. العناوين والتقسيم إلى فصول من وضع المؤلف. إلهنا الذي أعطانا صلوات وطقوس الكنيسة هو قادر أن يجعلها قوة فعالة في حياتنا لكي تقوى بها نفوسنا وأجسادنا ويثبِّتنا على الإيمان الأرثوذكسي حتى النفس الأخير.

الفصل الأول

العشية، وهي بداية اليوم الجديد

يخبرنا الإنجيل المقدس بأن ربنا يسوع المسيح له المجد كان يختم أيام أعماله بمعجزات كثيرة في العشية أو في المساء. لقد أسَّس الرب الخلاص بمجيئه في آخر الأزمنة؛ لأنه كان مزمعاً أن يظهر عندما تغرُب شمس العتيقة (العهد القديم) ويأفُل الناموس الموسوي، ولذلك جاء لكي يجدد حياتنا ويظهَر في عتمة المساء لكي يحول ذلك المساء إلى نورٍ كقول النبي: "أنه يكون نور في وقت المساء". وقد أشرق النور "للجالسين في الظلمة وظلال الموت" (متى ٤: ١٦)، ولذلك السبب عينه مع غروب شمس النهار، يبدأ يوم الخلاص بربنا يسوع المسيح. فإذا جاءت الظلمة الطبيعية تذكَّرنا نور الحياة الجديدة، ربنا يسوع المسيح له المجد الذي أشرق لنا، ليس بنورٍ من هذه الطبيعة، بل بالنور الحقيقي الذي من عند الآب. وقد أشرق لنا عندما تجسد من العذراء والدة الإله القديسة مريم. وبانقضاء اليوم وحلول العتمة؛ يجتمع الشعب لتذكار الخلاص العظيم، وهو عبورهم بحر هذا العالم ودخولهم أرض الراحة الحقيقية، أي أرض كنعان، وهي أرض الأمم التي بالإيمان يستقرون فيها، ويعيِّدون سبت السبوت، أي يوم قيامة ربنا من الأموات.

مباركٌ من يرتل مزامير الخروج من أرض مصر؛ لأنه يعبر مع ربنا يسوع المسيح ليس فقط بحر العالم، بل بحر مياه التقديس الذي كان البحر الأحمر مثاله. من أجل ذلك تجتمع الكنيسة وترتل هذه التراتيل الشجية المقدسة بفرح وباهتمام؛ لأن الشعب يتأمل فيها ميراثه الروحاني الذي أخذه بعبور البحر الأحمر، أي المعمودية المقدسة، ودخوله

أرض الموعد مباشرةً. فنحن لم نَسِرْ في أرض التيه (سيناء)، وإنما من بعد عبور البحر الأحمر، دخلنا مباشرةً في ملكوت ربنا يسوع المسيح كملوك نالوا المسحة الملوكية التي اشتاق إليها أنبياء العهد القديم وملوكه، وهي تلك التي تقول عنها أوشية الإنجيل: "إن أنبياء وأبراراً كثيرين قد اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروه وأن يسمعوا ما أنتم تسمعوه".

وأعلم أن الرؤية والسمع هي البشارة المفرحة؛ لأننا رأينا المسحة عندما مُسح ربنا في الأردن وسمعنا صوت الآب يشهد عن وحيده، وهو ما نأخذه نحن في سر التبني، أي الحميم الجديد.

وأعلم أننا نجتمع في البيعة في المساء؛ لأن سفر الخليقة (التكوين) قال كان مساء وكان صباح (تكوين ١: ٥). فالمساء بدأ به كل يوم من أيام الخليقة؛ لأن الرب كان مزمعاً أن يفتقدنا، وأن يخلق من جديد الجنس العاصي والساقط، ويجدد وجه الأرض كقول المزمور (١٠٤: ٣٠). والذين يجتمعون في البيعة، إنما يبدأون بذكرى عبورهم البحر الأحمر؛ لأنه في مثل هذا المساء تمَّت المعجزة الخلاصية التي بها أغرق الرب فرعون وكل مركباته وأجاز شعبه إلى الأرض التي أقسم لإبراهيم أنها ستكون له ولنسله إلى الأبد، أي الأرض التي تفيض بالبركة، أي بركة الإيمان، وهي الكنيسة الجامعة الرسولية.

ومتى اجتمع الشعب، فإن الترتيل يصير استحساناً للخلاص العظيم، وهو ترتيل الهوسات الذي يبشِّر بمجيء يوم الرب أي يوم قيامته أو سبت السبوت يوم الأحد لمخلصنا الصالح.

ومتى رتَّل الشعب ذلك، فإن الجماعة يقوى قلبها ولا تعود تنظر إلى الوراء إلى أرض العبودية، بل إلى أرض الراحة والحرية التي وعد بها الآب السماوي. لأن أول الترتيل هو مزمور ١١٦: "يا جميع الأمم باركوا الرب". وهو أيضاً ذات المزمور الذي يرتِّله الشماس في بداية القداس الإلهي عند تقديم الصعيدة؛ لأنه دعوة الآب السماوي للأمم لأن يكونوا شعبه الذي نال رحمة الرب العظمى ببشارة الإنجيل. ويسبِّح بالهوس الرابع، ومتى شكر الرب الصالح على إحساناته؛ يطلب عن تخوم البيعة، فالأواشي تتكرر في كل

صلاة؛ لأن من يجلس في البيعة الرسولية يعرف أن تخوم البيعة هي السلامة والآباء والاجتماعات، وما يُضاف إليها من توسلات أخرى (باقي الأواشي).

أمَّا عند نصف الليل، فإن صراخ الشعب يرتفع بأن العريس آتٍ بقولهم "ننظر إلى قيامة المسيح، ونسجد للقدوس يسوع المسيح ربنا الذي وحده بلا خطية"، فقد عاينوه قائماً فيهم بعبورهم من جهة الشمال إلى جهة اليمين، أي من كونهم جداء إلى كونهم قطيع حملان الرب. وهو رتَّب لهم ذلك العبور بتجديد طبيعة الإنسان وإعادة خلقتها من جديد على صورة مجده وبهائه.

وهكذا يخرجون لملاقاة العريس بالتسبيح وببشارة قيامته ودخول أرض الموعد وأرض الراحة. ويجتمعون مع الآباء البطاركة والأبرار الشهداء والنساك وكل الصديقين، ويطلبون بصوتٍ عظيم أن يصلوا هؤلاء عنَّا لأن الوليمة السماوية سوف تُقام وسوف نجلس في حضرة الملك العظيم.

التذاكيات ومديح والدة الإله:

وقد رتَّب الآباء أن يُقام تمجيد لوالدة الإله؛ لأنها مثال الخلاص وأيقونة حكمة الله المحاطة بتواضع تدبير التجسد وبهاء الابن الوحيد. وأعلم أن مَن لا يشترك في هذا، إنما ينمو فيه تعليم نسطور المخالف الذي جرَّده الآباء من رتبته وأنزلوه من مقامه وجعلوه أقل من الموعوظين. وكل مَن لا يعاين سر تدبير التجسد لا يمكن أن ينال درجة الإيمان الحسن ولو ظل طول عمره يرتل كل المزامير. فالرب وحده هو الذي أكمل الإيمان ورفع الستار الذي كان يحجب النور ويبقى على المِثالات، أي معجزات وعلامات العتيقة. لقد ظهر في خفاء نار العليقة ونادى موسى وكان ذلك مثالاً لنزوله واتحاده بالجسد في أحشاء القديسة مريم، وهو سبب استعمال هذه التسبحة في الكنيسة الجامعة الرسولية.

وأمور الرب لا تنتهي لأنه إذا صنع أمراً، فهو يكمِّل بأمرٍ آخر أعظم منه والاثنين يكمُلان بظهوره المحيي. فقد ظهر في العليقة وأكمل ذلك بالتجسد، وأكمل

التجسد باتحاده بنا في الأسرار الفائقة السماوية. والأسرار تكمُل بدخولنا قدس الأقداس، أي أورشليم السماوية، ودخولنا أورشليم يجعلنا نتكئ في حضن الآب السماوي مع إبراهيم واسحق ويعقوب وكل الأبرار والصديقين.

عظيمة هي أعمال الرب ولا إحصاء لفهمه؛ لأنه يبدأ بالخِلقة ويكمِّل الخلقة بالتجديد، ويكمِّل التجديد بالميراث السماوي. من أجل ذلك الأمر تقف العذراء والدة الإله كشاهد حقيقي على سر تجسده، ومن يتأملها لا يسقط في فخاخ الهراطقة المميت. وكلما قيل شيءٌ عن والدة الإله، فهو إنما يبشرنا بالتجسد، وأنه حقاً حلَّ في أحشائها البتولية؛ لكي يحل فينا نحن الذين بالمعمودية نلنا البتولية الروحانية. فقد كنّا قبل المعمودية نحيا في الوثنية ونجاستها والخضوع للأرواح النجسة التي استعبدت الإنسان. أمَّا بعد جحد الشيطان والاغتسال الروحاني، فإن نفوسنا تلمع بذات بهاء وطهارة آدم قبل خضوعه للأرواح النجسة وعهده مع الشيطان. هذا البهاء سطع من والدة الإله لما جاء عليها الروح القدس وصارت في حالة أعظم من تلك التي كان فيها آدم قبل السقوط. والسبب في أن النفس الإنسانية كانت مستنيرة ببهاء ابن الله وبسكنى الروح القدس، ولكنها لم تكن قد تشرَّفَت بحلول الابن الكلمة المتجسد فيها على النحو الذي تم في والدة الإله. لأن ابن الله سكن فيها بلاهوته وناسوته منذ أن بشَّرها الملاك وأطاعت كلمة البشارة. فصارت فائقة؛ لأن الكلمة ذاته حلَّ فيها بعد أن طهَّرها الروح القدس وقدَّسها وجعلها السماء الثانية كما نقول في التذاكيات. من أجل هذا نمدح ميلادها الفائق لأنها أمٌ لكل الأمهات ومثال البتولية النقية لكل الذين يسيرون في خطواتها.

وأعلم أن مديح العذراء يكون مثل مرآةٍ للنفس ترى فيه النفس جمال الإيمان وعِظَم الرحمة الإلهية؛ لأن الساكن في الأعالي قد نظر إلى جنسنا وأشفق عليه، فجاء وحلَّ في الأحشاء البتولية. هذا ترياقٌ ضد اليأس، ودواءُ عزاءٍ، ومرهمٌ إلهيٌّ كل من يناله لا يخزى ولا يعود يتكل على أعماله مهما كانت، بل على الرحمة الإلهية التي أحيت جنسنا.

وقد رتَّب الآباء اللابسون الروح أن تقال التذاكيات كاستعداد لتناول الأسرار الإلهية النارية؛ لأن الذين يزمعون الاقتراب من السر المجيد، إنما يتطلعون إلى الرحمة الإلهية التي ثبُتت بتأنس الكلمة وحيد الآب.

فلنرتل بكل قوة، ونمدح فخر الخليقة الجديدة مريم والدة الإله؛ لأن هذا نافعٌ جداً لأرواحنا؛ إذ يجعلها تفيق من الغفلات، وتنهض من الكسل، وترتفع إلى عظم بهاء العطية الإلهية. ونحن نطلب شفاعة العذراء لكي نكون على مثال طهارتها، وعلى مثال نقائها، ولأن بشارتها كانت قائمة بالكلمة الإلهية: "لأن ليس شيء غير ممكن لدى الله" (لوقا ١: ٣٧)، فلنُصلِّ التذاكيات بفرح لأنها بشارة معتمدة لخلاص الجنس البشري.

عبور البحر الأحمر مع المسيح:

أمَّا علة اختيار الهوسات التي تخبرنا بعبور البحر الأحمر، وهي الهوس الأول مع لُبشه، والهوس الثاني مع لُبشه والذي يُختم بتمجيد الخليقة للثالوث، وإبصالية الفتية الثلاثة القديسين، فهو مثل صعود النفس من أرض مصر ودخولها أرض الراحة، الكنيسة الجامعة. فالنفس المشتاقة إلى الله تهرب من قوات فرعون الشيطان وانشغالات الحياة الأرضية، فتعود إلى حصن النفس المنيع، أي المعمودية المقدسة؛ ولذلك ترتل تسبحة العبور مع المسيح الذي أغرق كل القوات التي تحاصر النفس وتريد أن تأسرها وتمسك بها في أرض العبودية. وبعد أن ترتل النفس الهوس الأول مع لُبشه، تتأمل كيف حاصر الرب العدو وأغرقه، ثم تمجِّده على أعماله العظيمة؛ لأنه قتل الملوك والعظماء، أي أجناد الشر الروحية التي تقاوم الأمور السماوية (أفسس ٦: ١٢).

ثم تتأمل ذلك كله، وتقدم التمجيد اللائق لأن الرب أعطاها أن ترى الخليقة وهي تسبِّح وتخدم الثالوث.

أمَّا أن صراعنا قد يعود من جديد حسب نقاء النفس واستعدادها، فهو ما يجعل النفس تُسبِّح مع الفتية الثلاثة القديسين؛ لأن أتون النار هو مصير القوات المعاندة.

أمَّا الذين يسيرون مع ابن الله، فهؤلاء إنما يرتِّلون مع سدراك وميساك وابدناغو.

وبعد أن نفرغ من هذا، فإن عيون النفس ترتفع إلى المن والسلوى في أرض الراحة والهدوء، ميراث إبراهيم الحقيقي، وترى الجالسين في وليمة الملك العظيم ربنا يسوع المسيح، أي المدعويين من كل جنس وقبيلة ولسان، أي مجمع العذراء والملائكة والرسل والشهداء والأبرار من كل مكان ولسان، وهم الذين رآهم يوحنا في الجُليان([1]) حاملين أغصان النخيل ويهتفون للحمل مخلِّص الذين يدعُون باسمه.

وهكذا تعبر نفوسنا مياه البحر الأحمر مع المسيح، أي هموم هذا العالم تاركةً خلفها أفكار ونيات وإرادة أرض العبودية؛ لكي تنال المن قوت النفس الحقيقي الذي يُشبع ويعطي عدم الموت.

الإبصاليات:

وبعد أن نشبع من التسبيح ويتطهر فكرنا بعبور بحر العالم، نتقدم إلى طعامٍ قويٍ مُشبعٍ للنفس، وهو الإبصاليات. ترتيب حكيم رتَّبه الآباء أن تسبق الإبصاليات التذاكيات؛ لأن اسم ربنا يسوع المسيح يفوق كل الأسماء، فهو الذي به اعتمدنا، وتتلوه نفوسنا لكي تحيا. ومتى لازمته النفس مع كل نَفَسٍ يدخل ويخرج، يلازم إنساننا الداخلي حلاوة حضوره الإلهي. فالنفس تعرف اسم مَن تحب، وتدعوه باسمه قبل أن ترتمي في أحضانه الإلهية، فلا تعود تعرف اسماً آخراً سواه. ومتى ذاقت النفس من هذه الحلاوة، فإنها تعلم أنها تستعد لتكون على مثال والدة الإله، أي تحبل حَبَلاً سماوياً بقبول الابن الكلمة في الأحشاء الداخلية، أي الذاكرة والمخيلة وحركات نية القلب. ومتى حلَّ ابن الله على هذا النحو، قالت النفس التذاكية وهي متنعمة بجمال هذا الحَبَل الإلهي الفائق الذي لا يحدث حسياً، وإنما عقلياً، وهو علة بقاء الفكر في جوهره الأصلي، أي عدم الموت

([1]) سفر الرؤيا.

والفساد.

أمَّا النفس التي تشبع من اسم ربنا يسوع المسيح، فهي تشتاق إلى السر المجيد ولا تفارقه؛ لأن الاسم الحسن يُلهِبُ أشواقها ويجعلها تطلبه دائماً، وتعطش إليه، وتشبع منه. فلنرتل الإبصاليات كلٍ حسب اليوم المعيَّن لها؛ لكي نفوز بهذه العطية الفائقة، وننال رحمة ربنا يسوع المسيح.

الفصل الثاني

باكر، وهو سَحَر قيامة ربنا يسوع المسيح

مكتوبٌ في الكتب الإلهية أن المحبة هي كمال الناموس، وأنها ترضى بكل شيء. وقد رضى الآباء الرسل والشهداء الظافرين بالعُري والجوع والمرض وأتعاب الجسد والموت بوسائل كثيرة، وأحبُّوا هذا لأن محبتهم كانت عظيمة لربنا يسوع المسيح. هؤلاء كانوا يقومون باكراً كل يوم، ويذهبون للبيعة لمعاينة قيامة ربنا يسوع المسيح.

وأعلم أننا نبارك الرب الإله الثالوث القدوس لتجسد وموت وقيامة ابنه الوحيد وحلول الروح المعزِّي علينا في الأسبوع على هذا النحو:

أيام الاثنين والثلاثاء، خِلقة آدم وحواء وسقوط الجنس البشري.

والأربعاء، تشاور اليهود على المخلص لكي يصلبوه، وهو ما يستدعي صومنا لكي لا نشترك في أي أعمال غريبة تبعدنا عن ربنا يسوع المسيح.

وفي يوم الخميس، نعترف بالإيمان الأرثوذكسي وبمجيء الخلاص.

أمَّا في يوم الجمعة، فإننا نعترف فيه بموت ربنا بالجسد عنَّا، ولذلك نصوم مثل الأربعاء ما عدا الخماسين المقدسة ونرتِّل لصليبه المحيي وعلامة الخلاص العظيمة التي تتحد بها نفوسنا. وهكذا نجيء إلى يوم قيامة المخلص أي يوم الأحد، بل راحة السبت

والترتيل اللذيذ وتأمل الخليقة.

وبعد أن نجوز مع الرب البحر الأحمر، ونسمع مجيء صوت العريس، نعاينه حياً من بين الأموات في صلاة باكر؛ لأنه وهو حي يقودنا إلى الحياة الجديدة ويُنهِض جنسنا الميت. ويكون إن إشراق النور مع بداية يوم قيامة ربنا هو إشراقة الحياة الجديدة التي يطلع عليها نور النهار الجديد، وقد تطهَّرت بالتسابيح، وتذوقت اسم الخلاص وشبعت منه، فاستعدت أن تسمع بشارة الإنجيل المقدس، أي مجيء ربنا يسوع المسيح لكي يبشرنا بالقيامة.

وأعلم أن كل أناجيل باكر هي خاصة بالقيامة، ما خلا بعض الأيام، وعلة هذا الترتيب أن الآباء الذين شيَّدوا البيعة، إنما كانوا يعاينون الرب حيَّاً عند الغَلَس[١] ويشاهدونه ويتكلمون معه، فصار ترتيب صلوات القداس أن يبدأ بالقيامة وذكرها المحيي.

الأواشي تخوم البيعة:

تعلَّم يا إنسان كيف تحيا لله وحده بالصلاة والطلبة لأجل الآخرين. أمَّا الذين يهجرون الصلاة لأجل غيرهم ويتأملون في حياتهم وحدها ويطلبون لأجل حياتهم فقط، فهؤلاء لا يقتنون شجاعة الصلاة؛ لأن كثرة تأملهم في حياتهم فقط؛ تجعلهم أسرى للوسواس والخيالات، فالقلب الذي لا يخدم غيره لا يخلص إلَّا بأتعابٍ كثيرةٍ، ولا تنمو قوة الدالة عنده؛ لأنه لم يتذوق كيف يتراحم الرب على الخليقة. ترتيبٌ حسن أن نتطهر من محبتنا الزائدة لأنفسنا بأن نطلب عن كل مَن له احتياج، وكل من هو غُرسٌ حي في البيعة المقدسة.

وأعلم أن الأواشي هي حقاً تخوم البيعة، ليس لأن البيعة محدودة كقطعة أرض،

---

(١) الغَلَسُ: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

ولكن لأنه حيث توجد البيعة فلا حدود لها، وإنما تخوم البيعة هي حيث شعب البيعة كائنٌ من الخدام وكل ملء الكنيسة الجامعة الرسولية.

وكما كان الرقيب يُقام على الأسوار قديماً لحفظ المدينة وإنذار سكانها من الأعداء، هكذا يُقام الأسقف والقس والشماس لحفظ تخوم البيعة والدعاء ليل نهار بالطلبة لكي يحفظ الرب البيعة بسلام. وهذه هي علة ترتيب الأواشي، فأول كل شيء أن نطلب سلامة البيعة، وبعد ذلك نطلب عن حُسن خدمة الخدام الناظرين كل حين هدوء واستقرار شعب المسيح، وبعد ذلك نطلب عن الاجتماعات الكائنة في كل كنيسة لكي يفتح الرب الإله أمام القاطنين في كل منزل طريق الحياة الأبدية. ولأننا نعاين المسيح قائماً من بين الأموات، فإننا نتوسل إليه بالأواشي سائلين من قوته الإلهية أن يُحيي الكل. وعندما نتوسل بالطلبة، فإننا نقدم احتياجات الكنيسة وسؤالات أبنائها لكي نجوز هذه السِّحرية ونحن في هدوء وعفاف وطهارة.

الفصل الثالث

البخور رائحة حياة الابن الوحيد

في العتيقة أمر الله موسى أن يُقدَّم له بخوراً، ولم يكن يُقدَّم في زمن الآباء البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب؛ لأن هؤلاء لم يضعوا أساس خيمة الاجتماع ولا عبدوا الرب الإله حسب الشريعة، لأن الشريعة لم تكن قد أُعطيت، ولا ظهر الله على الجبل في سحاب وضباب ونور ونار ومنظر مخيف أدخل الرعب على قلوب بني إسرائيل.

فإذا كان البخور من القواعد الأساسية التي أرستها الشريعة لعبادة الرب الإله، فإننا نقدِّم البخور للثالوث القدوس كرائحة حسنة طيبة وتقدمة وصعيدة؛ لأن الكاهن الذي أستوعب أسرار الخلاص، موسى العظيم قد وضع أساسات البيعة الجامعة الرسولية (القاثوليقية)، فأُعلِن له عن تقسيم الهيكل إلى قدس أقداسٍ، وقدس. وأقام مذبح البخور في القدس وليس في قدس الأقداس؛ لأنه مذبحُ شفاعة ووساطة لدى الله الآب. وهكذا في كل صلوات الشفاعة والتوسل يُقدَّم البخور عوضاً عن الشعب رائحةً مقبولةً لدى الله الآب، وهي رائحة الابن الوحيد الذي أصعد ذاته بخوراً ورائحةً ذكيةً عن خلاصنا، فاشتمَّه الآب الصالح وقت المساء عندما مات على الجلجثة (الجلجلة).

من أجل ذلك كان البخور يُقدَّم مع التضرعات والصلوات لله حسب خدمة العتيقة، ويقول معلمنا داود النبي: "لتدخل صلاتي إليك كرائحة بخور" (مز ١٤١)، وهو قولٌ ثابتٌ؛ لأن البخور كان يُقدَّم في أوقات الضيق وعند الحصار طلباً لرضى الرب

واستجلاب مرضاته. وقد وقف الكاهن النبيل فينحاس بالمجمرة وفيها البخور، فتوقف الوباء لأنه أدرك بروح النبوة أن حياة عدم الفساد للابن الوحيد سوف تُقدَّم عنَّا؛ لكي يرفع الله الآب وباء الموت عن الإنسانية. وهكذا صار مثالاً لرئيس الكهنة الذي أصعد ذاته رائحةَ بخورٍ ذكيةٍ لكي يسترضي الآب الصالح.

وكما كان البخور يقدَّم في القدس – وهو الترتيب النبوي القديم – صار يُقدَّم أيضاً في القُدس، أي الأواشي المقدسة التي تسبق دخولنا إلى قُدس أقداس الرب، أي صعيدة وذبيحة ربنا يسوع المسيح نفسه؛ لأنها هي التي بها ندخل إلى قُدس الأقداس، أي حضرة الآب السماوي. من أجل ذلك يطوف الكاهن بالمجمرة حول المذبح أثناء تلاوة الأواشي لأنه يطلب قبول الصلوات والطلبات في وساطة الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح الذي قدَّم ذاته عنا.

أمَّا سبب الطواف حول المذبح، فهو عظة للكاهن والشعب معاً؛ لأن تقديم الصلوات بالطواف هو إعلانٌ على أن المذبح هو الذي يتوسط طلبات وتوسلات الكنيسة الجامعة (القاثوليقية)، وإننا به نبدأ وإليه ننتهي. وكل مَن يقترب من المذبح، إنما لا يقترب إليه بمفرده، وإنما معه توسلات وسؤالات الكنيسة. وهذا هو معنى العظة للكاهن الذي يطلب عن الكنيسة، وللشعب الذي يتوحَّد معه في الطلبة، والكل واقف عند مثال الاتحاد السري، أي المذبح الإلهي الذي أقامه الروح القدس في الكنيسة الجامعة (القاثوليقية). وهكذا يذكر الشعب أن هذا هو الذي قالوا له: أكسيوس. أكسيوس. أكسيوس عندما رُسم وأُقيم لخدمة المذبح، وأن هذا هو الذي اختاروه لكي يُقدِّم ويتوسل عنهم ويخدم مذبح الكنيسة الجامعة (القاثوليقية) في كنيستهم التي هي كنيسة الله التي اقتناها بدم ابنه الوحيد.

ولذلك السبب أيضاً يُقدَّم البخور أثناء الطواف بالمذبح؛ لأن الذي أعطى الخدمة المقدسة الشريفة هو الكاهن الحقيقي ربنا يسوع المسيح، وهو الذي بحياته الغالبة للموت والفساد يقف في وسطنا مُعلِناً برائحة حضوره، قيامتنا وغلبة الفساد بالبخور

المختار الذي يُقدَّم عنا في كل صلوات التوسل، وفي كل طقوس البيعة مثل المعمودية ومسحة الميرون والأكاليل والجنازات وسائر الطقوس الأخرى.

وأعلم أننا نرفع البخور أثناء قراءة الكتب الإلهية؛ لأن البخور شهادة على حقيقة تجسد ابن الله، وأن التجسد هو ختم الوحي المبارك الذي أُعطي للأنبياء في العتيقة كلمة نبوية، ووُهِبَ عياناً وحقائق ظاهرة لمسها الرسل بأيديهم كقول الإنجيلي يوحنا (١ يوحنا ١: ٣).

ومتى رأيت البخور سبِّح بفكرك مَن جاء وتنازل وأخذ صورة العبد لكي يرفع العبيد من مزبلة العبودية إلى شرف وكرامة البنوة السماوية. هذه رائحة الحياة الجديدة التي أدخلتنا في شركة السماويات ومع السماويين.

وأعلم أيضاً أننا في خدمة العهد الجديد نجلس في وليمة السماويين، وأننا معهم نقدِّم التسبيح والشكر للثالوث القدوس الذي افتقدنا بمجيء الابن الكلمة في الجسد وميلاده من العذراء وموته وقيامته وصعوده إلى السماء، ثم مجيء البارقليط المعزي. هذه هي رائحة البخور الحقيقي. ولما وُلِدَ سيدنا وربنا له المجد من العذراء أدرك المجوس أنه الكاهن الحقيقي فقدَّموا له البخور؛ لأن حياته قد أشرقت بالنور والفرح، إذ جاء بميلاد بلا زرع بشر، ومن بتول لم تعرف رجلاً فوُلِد على خلاف الطبيعة لكي يؤسِّس ميلاداً جديداً للبشرية على خلاف الطبيعة، أي ليس من الزواج ولا من زرع الرجل ولا من امرأة كقول الإنجيلي يوحنا (يو ١: ١٣).

هذا هو البخور المختار الذكي، ورائحة حياة إلهية سماوية آتية في الجسد لكي تطهِّر الطبيعة الإنسانية من الفساد والموت. أمَّا عندما مات ربنا، فقد انفصلت نفسه الإنسانية عن جسده، ولكن لاهوته لم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده. وهكذا فاحت رائحة الاتحاد السري، أي أقنوم الابن الكلمة الذي لبس طبيعتنا لأن جسده لم يرَ فساداً بسبب اتحاد اللاهوت به، أمَّا نفسه، فقد أنارت الهاوية وجعلت العالم المظلم يرتعد، وأصعدت معها آدم وبنيه من الجب الأسفل، أي المواضع المظلمة التي كانت فيها

النفوس مأسورةً. وهكذا عطَّر الربُ الهاويةَ بعدم الفساد؛ لأنه حلَّ فيها ولم يقدر الموت أن يمسكه، رائحة غلبة وخراب للهاوية.

ولما قام ربنا وإلهنا، فقد عادت نفسه واتحدت بجسده، فقام حياً معلِناً نهاية موت الإنسانية ومبشِّراً بالفرح الحقيقي، أي فرح القيامة المقدسة. وهكذا أباد الفساد وأذل الشيطان وكسر الهاوية ورفعنا لله أبيه من الجب الأسفل وأظهر الحياة القاهرة الموت. لذلك عندما يقدِّم الكاهن البخور، فهو يضع خمسةَ أيادٍ: للميلاد والصليب والقيامة والصعود وحلول الروح القدس المعزِّي. خمسةُ ينابيعٍ فاضت بالحياة الغالبة. وبعد قيامته صعد إلى السماء ولم يترك جسده الذي أخذه من العذراء، بل حمله معه ودخل به أمام عرش الآب وهناك رآه يوحنا الحبيب في سفر الرؤيا (الجليان) في شكل حمل.

وأعلم أن الرب لم يتحول إلى حمل بعد صعوده، وإنما اختار الرب أن يعطي هذه الصورة السرية من أجل الذبيحة التي أقامها في البيعة؛ لأن يوحنا رآه مثل حملٍ مذبوح (رؤيا ٥: ٦ ، ١٢)، وهكذا شرح لنا أن الصعود لم يكن نهاية الخلاص، بل نهاية ما عمله الرب لأجلنا، وبداية ما نناله نحن من اشتراك حقيقي في الأسرار السماوية العظيمة، أي ميلادنا على مثال ميلاده وموتنا معه ودفننا وقيامتنا على مثال قيامته واتحادنا بالروح القدس الذي حلَّ وطهَّر الأحشاء البتولية، ومسحه في الأردن، وقرَّبه للآب قرباناً عنّا (عبرانيين ٩: ١٤)، ثم أقامه من الموت وأصعده إلى السماء، وبعد ذلك سكبه الابن الوحيد مثل غنيمةٍ عظمى على الكنيسة، فقد فاز الابن الوحيد بما لا يمكن أن يفوز به بشر لأنه ليس ابن البشر فقط، بل ابن الله أيضاً الواحد وغير المنقسم من بعد الاتحاد إلى اثنين. ولما فاز بعدم الفساد لأجلنا من قِبل الاتحاد، وبعدم الموت من قِبل القيامة، وببداية سماوية من قِبل ميلاده من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم، سكب الروح القدس الذي اشترك في كل هذه، ووزَّع الروح هذه علينا، وأضاف إليها المواهب الروحية السماوية التي يوزِّعها حسب إرادته كقول بولس الرسول (١ كو ١٢: ٧ – ١١).

وعندما يقدِّم الكاهن هذه الخمسة الأيادي، فهو يعترف بالإيمان الأرثوذكسي

معلِناً أن الرب افتقدنا وأفاض علينا الحياة العديمة الموت الغالبة الفساد.

وقد سبق وقلنا إن يوحنا الحبيب رآه في صورة حمل؛ لأنه واقف مثل الذبيحة الطاهرة عديمة الفساد عنَّا وعن جنسنا يشفع فينا بجلوسه عن يمين الآب وعلى عرش مجده.

وكلما قدَّم الكاهن البخور أثناء التوسلات، فهو يعرِّفنا مسبقاً أن الطلبات مقبولة لأن حياة ربنا هي التي تشفع فينا وتجعل صلواتنا تدخل إلى قدس الأقداس بلا مانع ولا عائق.

ومن بعد الإنجيل لا يلمس الكاهن البخور ولا يمد يده إليه حتى قوله: "تجسد وتأنس"، وعند الطلبة من أجل الراقدين. وعلة ذلك أن الحياة التي يشير إليها البخور سرياً تكون معلَنةً بكلمة الله والصلوات، أمَّا بعد ذلك، فإن الذي يقدِّم لنا ويعلن حياته هو الرب نفسه، ويكون أنَّ مَن شم رائحة عدم الموت في مواعيد كلمة الله وعاين القيامة بالاعتراف الرسولي (قانون الإيمان)، هو الذي ينال قوة وإشراق حياة الابن الوحيد عندما يضع ذاته عنّا ذبيحةً مقبولةً لله الآب. وأنت يا من ترتل مؤكداً ان الابن الوحيد ولد من العذراء وقد رأيت ذلك في المجمرة[١] التي تخبر باتحاد اللاهوت بالناسوت، تراه هو ذاته ليس رؤية العين، وإنما رؤية الروح التي يعلنها الروح القدس للفاهمين، ولذلك يتوقف المثال متى جاء النور.

أمَّا عندما نقول تجسد وتأنس، ويضع الكاهن البخور، فهو اعترافٌ بالأمانة الأرثوذكسية، أي اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن هذا هو أساس السر المجيد. وإن لم يكن ربنا هو أقنوم الكلمة والابن الوحيد ما كان قد قال: "إن مَن يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية" (يوحنا ٦: ٥٤)، فأكل الجسد وشرب الدم هو اتحادٌ بالابن

---

(١) الإشارة هنا إلى اللحن الكنسي "المجمرة الذهب ..".

المتجسد، واتحادٌ بلاهوت الكلمة واهب الحياة. هذه هي علة تقديم مثال الاتحاد، أي المجمرة لكي يصعد منها البخور الذكي معلِناً لنا حياة الابن الغالبة الموت.

وكذلك أيضاً عندما يقول: "وضع لنا هذا السر العظيم الذي للحياة"، فهو يأخذ من ذات البخور الذي قدَّمه عند قوله: "تجسد وتأنس"؛ لكي يُعلن السر الواحد، أي حلول الابن الوحيد وكينونته على المذبح وقيامه عنّا نحن المذنبين.

ومتى تم السر، وحلَّ الروح القدس، لا يُقدَّم البخور في الأواشي بعد استدعاء الروح القدس؛ لأننا لسنا أمام المثال، وإنما أمام السر الكامل.

أمَّا علة تقديم البخور في الطلبات التي تُقدَّم عن الراقدين، فأعلم أنها بشارة للأحياء وأن الرب قد ضم هؤلاء إلى مجده وأنه يأخذهم كراعٍ صالحٍ إلى المياه الحية وأنه يغذِّيهم في أورشليم السماوية.

الفصل الرابع

كيف تقدِّس طقوس البيعة حواس الجسد؟

لما سقط الإنسان الأول، انقسم عقله وانقسمت النفس وصارت تنفصل عن الجسد بالخطية حتى يكمل انفصالها بالموت. وصارت الأهواء تُقاتِل النفس، فتظن هي خطأً أن هذه الأهواء نابعةٌ من الجسد، ولكنها بالحقيقة نابعة من المخيلة التي تنشط بسبب فراغ النفس من حضور الله فيها، وتبحث في كل اتجاه عن الأمور غير النافعة وتخلقها لذاتها صوراً وتُجسِّم أمامها ما تريده دون أن تدرك أن هذه الأمور تزيد من ابتعادها عن الله وتزيد من انقسامها الداخلي.

وبسبب السقوط صارت حواس النفس معطلةً؛ لأنها عدمت النور الإلهي، أي الروح القدس الذي يرشدها وينيرها وصارت النفس – وقد أهملت حواسها الداخلية – تظن أن حواس الجسد، وهي السمع والشم واللمس والرؤية هي حواسها الأساسية التي تعتمد عليها، فأهملت حاسة التمييز التي كانت فيها أصلاً على مقتضى الطبيعة واستنارت بالروح القدس، فصارت بلا تمييز حقيقي؛ لأنها اعتقدت أنها بدون الروح القدس تستطيع أن تُقدِّر لذاتها ما هو الخير، فوقعت البشرية بسبب سوء التمييز في شِرك الوثنية، وأهانت ذاتها بعبادة المخلوقات دون الخالق. لأن العبادة الوثنية أزالت من النفس الإنسانية قدرتها الطبيعة على التمييز، وجعلت النفس عديمة الإدراك، فلا هي صارت تعبد الخالق، ولا صارت تدرك الفرق بين الخالق والمخلوق.

وقد رتَّب معلمنا الرسول بولص في رسالته إلى رومية كيف كانت البشرية في أول عهدها بعد سقوط آدم تعتمد على معرفة الله من الطبيعة (رومية ١: ١٩)، ثم عدمت هذه المعرفة (رومية ١: ٢١)، وفنى التمييز بقوله: "وبينما هم يدَّعون أنهم حكماء برهنوا بادعائهم على أنهم جهلاء، وذلك لأنهم أبدلوا مجد الله الذي لا يضمحل بما يشبه الإنسان وصورته الذاهبة إلى الاضمحلال حتى أنهم عبدوا الطيور والزحافات والدواب" (رومية ١: ٢٢ – ٢٧)، عند ذلك تركهم الله لكي يفعلوا ما يشاءون، فكانت النتيجة الحتمية أنهم أهانوا ذواتهم وانحطوا وصاروا مثل الحيوانات التي يعبدونها (رومية ١: ٢١ – ٢٤).

تلك هي الأسباب الحقيقية وعلة وضع الطقوس الكنسية على النحو الذي نراه في البيعة. ذلك لأن الطقوس ترفع العقل والحواس من الحياة السفلية الأرضية إلى حياة سماوية عاقلة مستنيرة بالروح القدس. الطقوس تنقل الحواس من الإدراك الأرضي إلى إدراك السماويات، أي أسرار البيعة المقدسة.

وأعلم أن الإنسان عندما خُلق على صورة الله وحسب مثاله كان قادراً على رؤية الله ومخاطبته وسماعه. وبسبب عدم وجود شجار بين النفس والجسد، كان اتحاد الإنسان مع جسده لا يجعله يفرِّق بين ما هو مرئي بالعينين وما هو مرئي بالنظر؛ لأن عدم انقسام قوى النفس الداخلية جعل ما تراه النفس بقواها العاقلة واضحاً صحيحاً حتى أن العينين كانت تشارك بالتركيز على ما تراه النفس، وهذا هو المعنى وراء الكلمات في الأسفار الإلهية عن رفع القلب ورفع العينين؛ لأنهما فعلٌ واحد في حالة اتحاد النفس والجسد، وفعلين مختلفين في حالات الانقسام.

وكانت قوى النفس العاقلة مثل المخيِّلة والذاكرة والإرادة تعمل كلها في وحدة واحدة بلا انقسام لأن الموت لم يكن قد قبع في مخيلة الإنسان، ولم تكن الإرادة تنفر من الصلاح والخير، بل تتأمله في الآب والابن والروح القدس، وتدرك أنها بدون الثالوث عاجزةٌ بلا حياة، فتنجذب بقوة التشبُّه بالله الذي خُلقت على مثاله إلى المحبة والخير بلا

فزع وبلا اضطراب. وسوف نصير على هذه الحالة بعد أن نتقدس، وينزع ربنا يسوع المسيح قوة الموت الكامنة فينا، ويحرر المخيلة من فزع الفساد والانحلال، ويصبغها بقوة القيامة وبصبغة عدم الموت؛ لأنه يكشف لقوى النفس كيف كسَّر الجحيم وحطَّم متاريسه وأهان القوات الشيطانية التي تملك في الظلمة البرانية؛ لأنه فضحها وجعلها كلا شيء.

أمَّا قبل التجديد، فقد كانت النفس تنظر إلى ذاتها فلا ترى فيها صورة الله، إنما ترى فيها الموت، وترى فيها الصورة الفاسدة التي آلت إليها بسبب السقوط، وترى أيضاً إنها عاجزةٌ عن الصلاح وأسيرة في يد العدو الشرير ومحدودة بحدود الموت. ولما أدركت هذا، لم تكن قادرة على العودة إلى الله؛ لأن الموت الذي سكن فيها وصار قوة دمار وخراب، جعلها تنفر من الله نفسه، وجعل المخيلة تخلق – من الفساد والموت الذي فيها – صوراً فاسدةً ميتةً بلا قوة حياة لأنها نابعة من الموت.

وأعلم أنه، حتى الكلمة التي ينطقها الإنسان، لم تعد قادرة على أن تكون وعاء الطهارة والفطنة، بل صارت أوعية الفساد والموت، وصار كل ما ينبع من الإنسان الميت بالضرورة ميتاً أو ملوثاً بالموت. هذه هي علة شريعة التطهيرات في العتيقة؛ لأن إفرازات الجسد ولمس الجثث وما إليها صار مثل علامات تحذير للإنسان بأنه يعيش تحت سلطان الموت، وأن النجاسة التي فيه نابعةٌ منه، ومن الأشياء التي يتصل بها، وهذه النجاسة ليست كما علَّم المنشقين والهراطقة هي شرٌ ومن صنع إله الشر، وإنما كتحذير لعدم طهارة الإنسان، وبأن الخليقة أُخضِعت للبُطلِ كقول الرسول بولص (رومية ٨: ٢٠).

وإذا صارت المستقيمات معوجات، وانحرفت الخليقة عن الله، فقد صار من الضروري تحذير الإنسان ومحاصرة اهتمامه لكي لا ينحرف إلى الفساد. وهذه هي علة زيادات الشريعة وكثرة وصاياها وصعوبة طقوسها. وكما كان الإنسان يعبد الحيوانات عديمة النطق، صارت هي بذاتها ذبائحَ تُقدَّم لله الحي خالق الكل، ومع أنه لا يحتاج إلى ذبائح بالمرة، وقد حذَّر بني إسرائيل مراراً كثيرة بواسطة الأنبياء من أنه لا يحتاج إلى دماء

الثيران أو لحومها؛ لأنه هو خالق كل الأشياء. ولكن صارت تلك المعبودات وسيلة الاقتراب من الله، وصارت تلك التي يعلن عن إلوهيتها في الديانات الوثنية هي بذاتها التي تقرَّب قرباناً لله الحي دلالةً على ضعفها، وإرشاداً للإنسان بأن الله خالق الكل، وتحذيراً لكي لا يقع في الوثنية.

وهكذا صارت طقوس العتيقة قائمة بفرائض واغتسالات وذبائح وصفها الرسول بأنها مؤقتة وموضوعة إلى وقت التجديد[١] (عب ٩: ١٠). أمَّا طقوس البيعة الجامعة (القاثوليقية)، فهي ليست كذلك، إنها اغتسالات عقلية تغسل العقل من ارتباك الفكر، وذبائح روحية تقدِّم الإنسان إلى خيرات الثالوث القدوس. ومن يغسل فكره ليس كمن يغسل جسده؛ لأن الأول إنما يغسل جوهره الدائم، والثاني يغسل ما هو ذاهب إلى التراب الذي أخذ منه.

وطقوس البيعة تنزع من الفكر التهاون والتراخي والكسل، وتحرِّض النفس على المثابرة وطلب السماويات. إنها تغسل النفس من خطاياها؛ لأنها تقود النفس إلى تأمل السماويات، وإلى إدراك ما نالته في الأسرار. وتفتح الطقوس عيني العقل أي المخيلة وتنيرها وتجعلها تتحرك في اتجاه الخير والحياة لا في اتجاه الموت والفساد؛ لأن الله وضع المخيلة كعينين للروح ترى بهما الأمور السماوية وتدركها في سهولة وتتعزى بها إذا نالت استنارة الروح القدس.

والنفس التي رتَّلت في نصف الليل، وسبَّحت لقيامة المسيح وانتظرته كعريس واعترفت بقيامته، هذه النفس التي تطهَّرت بالتسبيح، ترى الشمعتين على المذبح، فتعرف من نور القيامة الذي امتلأت به من التسبيح أنها أمام المسيح القائم والحي قاهر الموت وغالب الجحيم، وترى في الشمعتين الملاكين الذين بشَّرا النسوة بالقيامة، فتقبل النفس هذه البشارة التي استعدت لها منذ نصف الليل.

---

(١) في الترجمة البيروتية "وقت الإصلاح" والإصلاح والتجديد بمعنى واحد.

وعلى هذه الحال نرى كيف تغتذي النفس من التسبيح العقلي ومن كلمة الله وكيف تنهض من سُبات نومها الثقيل متوجهةً إلى البيعة سائلةً من رحمة الرب أن تُحسب مع طغمات الملائكة. ومتى سبَّحت مع الملائكة في "الكنيسة بيت الملائكة"، وعاينت فرح القديسين، استنارت وأدركت أنها في بيت الله، وإن الله حاضرٌ مع القديسين، وإنه أتى ليعلِن ذاته في الوليمة السماوية، أي وليمة الإفخارستيا أو الشكر.

مباركٌ من يسهر ويرتفع عقله تدريجياً ويتغذى بالكلمة لكي يستنير، وتحرك التسابيح والصلوات أشواقه الروحية لكي يطلب السماويات. وهكذا تقوم طقوس البيعة على الكلمة الإلهية التي نطق بها فم الرب، وهي الكلمة التي أخذها آباؤنا القديسين وصاغوها في الترتيل والصلوات واعترفوا بها في التسابيح والقداسات، وفي حياتهم (اليومية) وفي المغارات وأمام الملوك والولاة وفي المجامع المسكونية.

والنفس التي تقبل الكلمة الإلهية مثل بذرة حياة، هذه البذرة يغرسها الروح القدس في النفس؛ لأن الروح هو الذي كوَّنها وهو الذي أعطاها للأنبياء، ومتى أخذت النفس الكلمة الإلهية، وسكنت فيها، صارت صلاةً وتسبيحاً للثالوث. وهذا هو سبب استعمالنا صلوات الآباء المجاهدين الظافرين واعترافات الشهداء الذين نالوا الثبات من المسيح، فسكنت فضائلهم ورؤيتهم الحسنة الطوباوية في صلواتهم التي وضعوها لتدبير البيعة وإقامة الأسرار المقدسة. وعندما تحولت كلمة الله فيهم إلى صلوات، صارت هذه الصلوات هي الاعتراف الصحيح بالإيمان، وصارت الرؤية الحسنة الحقيقية لأسرار الله.

وتقوم طقوس البيعة على أعمال ظاهرة، وهي حركات اليدين والسجود والبخور والحركة حول المذبح مثل الطواف به. وهذه مأخوذة من الأسرار الكنسية، وتُعاد في القداس الإلهي لكي تثبِّت النعمة الإلهية العظيمة. فالاتجاه نحو الشرق يحدث أول ما يحدث في المعمودية بعد جحد الشيطان، وهو تحوُّل النفس من العبادة الباطلة الزائلة إلى عبادة ربنا يسوع بالروح القدس. هذا التحول هو سر وجودنا في البيعة؛ لأن الذين يطلبون العبادة الحقيقية ويسجدون لله بالروح والحق، هؤلاء هم الذي يجتمعون حول

المائدة الإلهية مائدة الحياة.

ورفع اليدين مأخوذٌ أصلاً من الاعتراف بالإيمان في المعمودية، وصار طقس الصلاة لكل مَن يصلي مِن بعد خروجه من الماء طالباً المعونة الإلهية. وهكذا نطوف حول المذبح قبل قراءة كلمة الله؛ لكي ندرك أننا نحن الماثلين أمام مذبحه، إنما نتحول من الاهتمامات العالمية وتجوال الفكر إلى الاهتمامات السماوية التي يُصبح المذبح قلبها، ونطوف بالتهليل وبالبخور لأجل سماعنا المواعيد السماوية التي تُتلى علينا.

وهذا يحدث أيضاً في مواسم أعياد الشهداء والآباء عندما ندور بالعظام المقدسة والأيقونات والصلبان حول المذبح؛ لأنه طواف التهليل بالظفر الذي حققه هؤلاء السعداء الأطهار بدمائهم. ولكن أول كل شيء هو أن يطوف المعتَمِد بالبيعة بعد عماده لكي يراه كل الشعب الذي حضر معموديته والذي لم يحضر، ويطوف بالمرسومين لدرجات الكهنوت بعد رسامتهم لكي يراهم الشعب أيضاً، وبعد ذلك يطوفون بهم حول المذبح.

وهذا هو الذي يجعل هذه الأمور محركة للنفس والجسد؛ لأن الإنسان واحدٌ لا ينقسم، واتحاد النفس بالجسد اتحادٌ كامل حتى أن أحدهما لا يقوى على عمل شيء بدون الآخر. ومن أجل هذا الأمر نطوف بالمذبح متذكرين مواعيد الله ومحبته العظمى ونائلين بهجة الخلاص؛ لأن الإنسان إذا سار في هيكل الله، أدرك أن الخلاص رَحبٌ، وأن مواعيد الله حقيقية؛ لأنه أتى بنا إلى هيكله، وقبل ذلك غسَّلَنا وقدَّسنا في جرن المعمودية المقدس، ثم أدخلنا إلى المذبح السمائي وجعلنا نطوف به متذكرين مراحمه الكبيرة. وهكذا تشترك الحواس وأعضاء الجسد في الطِّلبة والصلاة لأن الذين يطوفون بالبيعة في الأعياد حاملين البشارة أو الصليب أو الأيقونات يتكون فيهم الحس الداخلي بأن أقدامهم إنما تسعى لتمجيد الله وخدمة البيعة، وإنها تسير في طريق الحياة غير المعوج، وتطوف بالمذبح السمائي قلب الصعائد والقرابين والذي تُقدَّم عليه حياتنا الناطقة.

وأعلم أن ترتيب حمل القربان ووضعه على المذبح هو ترتيبٌ حكيم؛ لأنه إظهار

الإرادة والنية الداخلية بالرغبة في تناول الأسرار. وما يعمله الإنسان بيديه وعقله إنما هو ما يستقر في حياته الناطقة. وهكذا مَن يحمل القربان ويقف أمام المذبح، إنما هو من يضع حياته ذبيحةً حيةً مرضيةً عند الله، أي حياته العقلية كقول بولص (رو ١٢: ١)، وهو يضعها لأنه يدرك أنه بالصلاة وبكلمة الرب وبالاتحاد السري بالصعيدة الإلهية، سوف يصبح طاهراً ومقدساً للرب، أي ذبيحةً حيةً مقبولةً بالخدمة السماوية التي يرأسها ربنا يسوع المسيح الكاهن العظيم.

وأعلم أن هذا هو قولنا بعد القبلة الرسولية: "رحمة السلام وذبيحة التسبيح"، أي أن حياتنا تنقَّت من العداوة واغتسلت من البغضة، فصارت أهلاً لأن تقدَّم لله في تقدمة ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح، وهذا اتحادٌ كامل.

وبسبب وحدة النفس والجسد، صار من الضروري أن تقوم النفس بالطقوس، ليس من قبيل اشتراك النفس مع الجسد أو اشتراك الجسد مع النفس؛ لأن هذا يحدث مهما كان العمل الذي يقوم به الإنسان. ومن يأكل الطعام يتذوق بفمه وبفكره يميز الأطعمة ويختار منها ما يناسبه وبإرادته يضبط الحنجرانية[١]. ولكن الطقوس هي انشغال الحواس الداخلية والخارجية، وترتيب صعود الفكر إلى معاينة الأسرار لكي يكون صعوده سهلاً وبلا تعب، ولكي تكُفُّ مشاغبة الحواس ولا تعطل العقل. وهكذا يكون أن من يحمل البشارة ويطوف بها حول المذبح يُدرِك أن البشارة المفرحة تعلِن أسرار البيعة، كما أن المذبح يشرح محتويات البشارة، ومع أن العقل يتعلم هذا، إلَّا أن الذين يسجدون عند سماع كلمة الإنجيل ويُقبِّلونه، إنما يقتنون الخشية والخضوع لله؛ لأن الذي يُقبِّل الإنجيل، إنما يفهم كيف يكفُّ عن الأفعال الرديئة، ويكون أن العينين ترى البشارة، والفم يُقبِّلها والعقل يخشع والقلب يخضع ويرتفع إلى طاعة الوصية الإلهية.

طوبى لمن يقف منتبهاً في البيعة، ويحترس بفكره؛ لأنه ينال خيرات كثيرة لا يمكن

---

(١) الحنجرانية هو ترجمة مباشرة من القبطية، وتعني شهوة الطعام ولذة التذوق.

النطق بها.

وهكذا تتقدس حواس الجسد؛ لأن العينين ترى، والفكر يفهم، والفم يأكل الأسرار، والقلب يرتفع بالرؤية الروحانية إلى الاتحاد السري. الجسد يسجد أو ينحني والإرادة تقتني الخضوع. القدمين تسيران في البيعة أو تطوف بالمذبح، والثقة بمواعيد الخلاص تزداد؛ لأن حركة القدمين تغرسُ في الحس الداخلي رجاء تذوق المواعيد السماوية.

وتقدِّس الطقوس العقل الداخلي؛ لأنه ينشغل بالترتيب، ويرتفع بالتأمل. والانشغال بالترتيب لا يجعله يفكر في الاهتمامات الباطلة، وإنما يفكر فيما سوف يفعله، وهذا يحصر الانتباه في الصلاة وتأمل الثالوث القدوس.

الفصل الخامس

درجات الارتفاع العقلي نحو الرؤية السماوية

القداس الإلهي هو طريق الكاملين لمعاينة الثالوث القدوس، وهو طريقٌ يبدأ بالكلمة الإلهية وبالصلاة وبالتسبيح ويتدرج صاعداً إلى الاتحاد السري بابن الله وبالآب وبالروح القدس.

الدرجة الأولى: هي الانتباه واليقظة ويصعدها الذين يواظبون على التسبيح وسماع كلمة الله باشتياق وتأمل أسرار الخليقة الأولى، أي خضوعها للخالق. هذه الدرجة تبدأ بالعشية ونصف الليل وباكر حتى قداس الموعوظين، وفيها تتهيأ النفس إلى استقبال الرؤية، فتغسل من أدران الإهمال وتتنقى من حس الابتعاد عن الله؛ لأنها تسبِّح مع الخليقة غير العاقلة، وتدرك سلطان الله الخالق وقوته الإلهية التي تضبط كل الأشياء، وهذه قوة حياة لأن الخضوع والطاعة لضابط الكل هو عتبة ملكوت الله.

الوقوف: هو القيام من الموت، وهو انتباه العقل واهتمام الروح.

الجلوس: هو مشاركة العروش السماوية في الجلوس عن يمين الآب.

السجود: هو طاعة كاملة للرب.

"لنقف حسناً"، أي حسب صلاح الرب الذي أقامنا من الأموات.

"لنقف بانتباه"، أي ليكن لنا يقظة لنعرف السر السمائي الفائق الذي يؤهلنا للخلاص. ولنطلب روح الذي أقام يسوع من الأموات لكي يعطي لنا قيامة العقل لكي ندرك ونفهم أسرار الملكوت.

القيام بكلمة الله:

عند سماع كلمة الله في رسائل الرسول بولس والرسائل الجامعة، لنقترب بفرح من الذي يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته (عب ١: ٣)، لأننا من أجل هذا الأمر نطلب شفاعة القديسين (الهيتنيات) لكي ننال ذات الاستنارة التي نالها هؤلاء (راجع صلاة يا رب المعرفة ورازق الحكمة).

الشاكيناه (سحابة المجد الإلهي) قبل قراءة الإنجيل:

وقبل قراءة الإنجيل وبعد أوشية الإنجيل يضع الكاهن بخوراً كثيراً لكي نرى الرب الآتي على سحابة المجد الإلهي لكي يبشرنا بالخلاص. الإنجيل هو بشارة الخلاص. هكذا يجيء الرب إلينا لكي يبشرنا بكلمة الحياة وبشارة الخلاص.

وأعلم أن الطواف حول المذبح ببشارة الإنجيل (الإنجيل الذي يحمله الشماس) هو بشارة الخليقة كلها بالخلاص؛ لأن المذبح المقدس هو قلب البشارة بالحياة الأبدية، وهو مركز كل شيء، ويجب الطواف حوله عند قراءة الأسفار المقدسة (سر البولس والكاثوليكون والابركسيس)؛ لأن هذه الأسفار هي الكلمة الإلهية التي تبشر بالحياة الأبدية التي توهَب لنا في السر السمائي، المن العقلي أي جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الكريم.

الفصل السادس

الأواشي بعد الإنجيل

في الأزمنة السابقة كان الموعوظون يقفون في خدمة القداس الإلهي، وكانت هذه الصلوات تُقال بعد العظة من أجل منفعة هؤلاء الداخلين للإيمان، ولذلك وجب أن يبقى هؤلاء لسماع الطلبات لكي يدركوا معنى الانضمام لكنيسة الرب جسده المقدس ولكي يشتركوا في الطلبة مع المؤمنين.

الفصل السابع

صلاة الصلح

ولا يجوز التناول بدون مصالحة؛ لأن الذي يشترك في الأسرار المقدسة وفي قلبه وجدٌ وحنق هو مثل يهوذا الخائن الذي بقُبلةٍ باع سيده.

ويغسل الكاهن يديه معلِناً أنه تطهَّر من خطية خيانة الأمانة، وإنه مستعد روحياً وجسدياً للصلاة وتقديم الذبيحة العقلية.

وحسب ترتيب البيعة يرفع الابروسفارين؛ لأن سلطان الموت قد أُبيد بموت الرب، ويمسك الكاهن اللفافة المثلثة مؤكداً أن مشورة الثالوث هي التي ختمت سر موت الرب وقيامته. ويرفع الشماس الصليب معلِناً المصالحة بدم المسيح الحمل الحي الذي لا يموت.

ويضع الكاهن لفافتين على يده معلناً أننا نحيا في الزمان الذي يجب أن نستر فيه أجسادنا العارية من نعمة الله مثل آدم. وبعد صلاة الصلح يضع اللفافة التي معه على يده اليسرى، ويأخذ اللفافة التي على القربانة بيده اليمنى ويرشم بها الشعب بمثال الصليب قائلاً: "الرب مع جميعكم"، مؤكداً تجسد الرب، وتقديم ذاته قرباناً للحياة الأبدية. ويرشم الخدام، وبعد ذلك يرشم ذاته مؤكداً اتحاد الواقفين عند المذبح بالصليب المحيي الذي به نشكر الآب، وبه نرفع قلوبنا بدم الوسيط الوحيد ربنا يسوع.

أيها الجلوس قفوا:

ويصيح الشماس منذراً الشعب بأن يقف، ليس جسدياً، بل روحياً، أي لكي ينتبه؛ لأنه مزمع أن يشترك مع القوات السمائية في التسبيح.

أمَّا علة رشم الشعب باللفافة التي على الكأس، فهي ظاهرة لأن الرب يسوع قدَّسنا بدمه الكريم، وبموته المحيي أعطانا قوة الاشتراك مع القوات السمائية في تسبيح الغلبة والخلاص.

الفصل الثامن

أساس الخلاص

وبعد التسبيح مع القوات السمائية يقف الكل في انتباهٍ؛ لأننا ندخل الفردوس الذي طُردنا منه بتجسد الرب وموته المحيي وبقوة الروح القدس. فقد عبَرنا مع شعب الله بحر التقديس في العشية، ولذلك نقف عند أرض كنعان، أي أساس الخلاص بتجسد الرب وموته المحيي. وهنا يقرِّب الشماس البخور عند قول الكاهن: "تجسد وتأنس"، معلِناً أن رائحة الحياة للمسيح قد نُشرت في العالم كله. وعند قوله: "لأنه فيما هو راسمٌ أن يسلم نفسه للموت عن حياة العالم"، يضع يديه على البخور مؤكداً أن الحمل كلمة الله هو الذي أصعد ذاته رائحة بخور للآب وقت المساء على الجلجثة وفتح باب الفردوس وأنعم لنا بشجرة الحياة، أي جسده المقدس.

الفصل التاسع

التقديس

ويرفع الكاهن القربانة إلى فوق لكي يراها الشعب، ويضع يده على الاسباديقون ويقول: "أخذ خبزاً على يديه"، مؤكداً أن الرب هو الذي فعل ذلك، وأن يديه الإلهية هي التي تحمل الخبز، وهي التي ترشم، وهذا هو سبب رشم القربانة بعلامة الصليب، وعندما يرشم بعلامة الصليب يقول: "وشكر"، مؤكداً أن الشكر يقدِّمه الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح، وأن الصليب المكرم هو ختم الشكر وهو ختم البركة والتقديس.

وبعد ذلك يقسم الكاهن القربانة من أعلى إلى أسفل مشيراً إلى سر نزول الرب من السماء وتجسده، ويقسم الثلث القبلي والثلثان البحري مؤكداً أن الابن هو الذي تجسد، وأن الآب والروح القدس اشتركا بالإرادة والمسرة، ولكن أقنوم الابن هو وحده الذي اتحد بالطبيعة الإنسانية بشكل فائق. ويمر بإصبعه على حافة الكأس كله، ثم يرشم ثلاثة رشومات قبل تقديس القربانة، ولكن هنا يحرك الكأس نفسه مثال الصليب شرقاً وغرباً وبحري وقبلي؛ لكي ندرك أن الخلاص شمل الخليقة كلها.

الفصل العاشر

استدعاء الروح القدس

وبعد أن ندخل إلى أرض الموعد، أي حياة ربنا يسوع المسيح الذي هو أرض كنعان الحقيقية، أي ميراث القديسين السمائي، يطلب الخديم (الكاهن) روح الآب السماوي لكي يجعل الخبز والخمر الذين خُتما بعلامة الصليب المحيي، جسد ودم ربنا يسوع المسيح، وذلك تحقيقاً للمواعيد العظمى؛ لأنه هو الذي رتَّب رتبة التدبير الإلهي، أي الحبل البتولي، وهو الذي كوَّن الناسوت في أحشاء القديسة مريم، وهو الذي مسحه في الأردن معلناً إياه "المسيح الرب". وهو الذي من جهته قدَّم ذاته على الصليب فداءً لجنسنا (عب ٩: ١٣). وعند قوله: "وهذا الخبز يجعله جسداً مقدساً"، "وهذه الكأس أيضاً دماً كريماً للعهد الجديد" يرشم ثلاث رشومات مؤكداً أن تدبير الخلاص هو تدبير الثالوث المقدس الواحد بالجوهر.

الفصل الحادي عشر

ميراث المسيح

ويشير بيديه إلى الجسد المقدس والدم الكريم قائلاً: "هذه التي اقتنيتها بالدم الكريم الذي لمسيحك"، معلِناً أن الكنيسة هي ميراث المسيح. وعلى هذا النحو يُظهر أعضاء جسد الرب في طلبات سلامية، وهي الطلبة من أجل الآباء وكل الخدام وكل الشعب. ويقول الكاهن في كل طلبة: "أذكر يا رب"، ليس لأن الرب ينسى، بل معلِناً للقوات السمائية أن هذا هو جسد الرب، أي الكنيسة، ويطلب السلام والخلاص للكل؛ لأن هذا هو ذكرى الرب يسوع المسيح إلهنا رأس الكنيسة جسده. وهنا، بالروح القدس، يقدِّم أعضاء جسد الرب إلى الرب نفسه الذي تزوَّج الكنيسة وجعلها جسده في سر الزيجة الإلهي كقول بولس الرسول. ويصبح الكاهن مثل رئيس المتكأ يقدِّم أعضاء جسد الرب للرب نفسه، ويطلب بركة مواعيد الله الصالحة لكل شيء على الأرض حتى يأتي إلى مجمع الآباء القديسين، وهم أعضاء جسد الرب الذين ظهروا ظهوراً حقيقياً وسلكوا بالقداسة ونالوا المواعيد. وإذا بدأ بذكر الآباء الذين معنا، فهو ينتهي بذكر الآباء الذين رقدوا واستراحوا في الرب مؤكداً أن الميراث الواحد هو الميراث الكامل والأبدي الذي ينتظر الجميع، إلى قوله: "وأيضاً فلنشكر الله .." ويرفع الجسد المقدس جسد الرب الذي يحمل كل هذه الأعضاء المقدسة. ويرشم الجسد بالدم مؤكداً أن الجسد هو بالدم، والدم هو بالجسد، ذبيحة واحدة سمائية غير مائتة إلهية.

الفصل الثاني عشر

رتبة القسمة المقدسة

نحن نقدم هذه الصعيدة "من أجل كل حال وعلى كل حال وفي كل حال"؛ لأننا من أجل حياتنا وشفاء أجسادنا وأرواحنا، وفي كل أحوال الحياة لا سيما تلك التي أسسها الرب، أي أعياد الخلاص السيدية وغيرها من رتب الكنيسة الشهداء والنساك وكل محبي المسيح. وفي كل حال؛ لكي يجمع الرب أعضاء جسده المقدس ويجعل الكل واحداً.

وأعلم أن رتبة القسمة المقدسة تبشِّر القائمين في الكنيسة المقدسة برتبة الخلاص، لأن تقسيم جسد الرب هو إبراز أعضاء جسده، تلك التي كوَّنها الميلاد البتولي ومسحة الأردن والصليب المقدس والقيامة المجيدة، ونالت المسحة الإلهية. ولذلك يصير تلاوة الكلام المناسب، أي كلام البشارة المقدسة حسب المناسبة الخلاصية.

وعندما يقسِّم الجسد المقدس، فهو يفرز أعضاء الرب التي نالت المواعيد الإلهية حسب بشارة الإنجيل المقدس بالميلاد من فوق مثل ميلاده وبحمل الصليب وبالبذل والموت مثلما مات هو، فهذه هي أدوات الحياة التي ينطق بها الكاهن، وهو يقسِّم الجسد المقدس ويجعل القسمة على رمز الصليب المحيي، وينقل هذا الرمز من الثلث إلى الثلثين دون فصل؛ لكي يصير الجسد كله معلَناً سرياً بالصليب، ولكي إذا نطق بكلام القسمة وقسَّم الجسد يُعلِن صليب الرب سرياً قبل أن يأخذ الاسباديقون، ومتى أخذه يضعه في

الكأس مقلوباً مثل الحمل الذي يُذبح بعد أن يوضع على ظهره، ويكون في الكأس ميراثاً للخدام، ولا يعطى للشعب، ليس عن احتقار لأنه لا يوجد جزء في جسد الرب أعظم واقل، بل لا يجوز لنا أن نتكلم عن أجزاء، بل نتكلم عن جوهرة؛ لأن جوهرة واحدة مهما كانت هي ذات القيمة مثل الكل.

الفصل الثالث عشر

التسليم الذي لا يُقال جهراً

بعد تناول الأسرار المقدسة نشرب قليلاً من الماء؛ لأننا نحن ولدنا من الماء الحي أي مياه الروح القدس في سر الحميم المقدس وسر الميلاد الثاني. والبسطاء من الناس يظنون أن هذا هو احتراس لكي لا تبقى القرابين في فم المتناول، ولكن الحكماء يدركون أن شُرب المياه هي عودتنا إلى مياه الحياة، أي الروح القدس الذي بعد أن تطهرنا بالدم الكريم، نصير فيه، في نهر الحياة الكامل التقديس، أي اقنوم الروح القدس الواهب الحياة والمحيي لكل مَن ينال الأسرار المقدسة.

وكما أننا ندخل الكنيسة ونسجد عند المذبح المقدس، أي في ذات الموضع الذي أخذنا عنده القربان المقدس والدم الكريم بعد معموديتنا، فإننا نعود إليه قبل كل صلاة لكي نقدِّم الشكر والتسبيح على الفداء والخلاص الذي وُهب لنا في يسوع المسيح ربنا. وهو ذات الموضع الذي نشرب عنده المياه الحية، وهو ذات الموضع الذي نأخذ منه خبز البركة الذي كان يرمز إلى ذبائح الآباء عند تقديم الحمل، والذي يوزَّع على الشعب لأنه صائم، فلا يتعب من أجل عدم الأكل. وهكذا نأكل من هذا الخبز بعيداً عن الهيكل المقدس لكي يستقر في ضمائرنا أن ذبائح العتيقة لم تدخل هيكل ربنا يسوع المسيح، وإنما الذي دخل هو الحمل الحقيقي ابن الله الحي.

وأمَّا قولنا بأن تقدمة الكنيسة هي "الحمل"، فهذا معروف لنا لأن الرب يسوع

هو فصح الحياة الحقيقية، وهو حمل الله، وهو الأعظم والأكمل ولم يكن تقديمه وموته حسب رموز العتيقة، بل حسب قوة الحياة في الروح المحيي، أي حسب روح ربنا يسوع المسيح.

يجمع الرب أعضاء جسده في وليمة الحياة الأبدية، أي سر الأسرار الذي يتم بشركة وصحبة الرب يسوع المسيح، وهو ما يجعل الكاهن يمر بالبخور في كل البيعة مقدِّماً هذه التقدمة السمائية للرب، ثم لوالدة الإله والقديس يوحنا المعمدان والآباء الرسل وسائر طغمات الكنيسة. وإذا سلَّم البخور إلى الكاهن الشريك أو صافحة يلمس يديه أولاً بظهر يده ثم ببطن يده معلِناً أنه قدَّم البخور للرتب السابق ذكرها، للملك المسيح، وللملكة الحقيقية، وكل أعضاء الجسد الحي، أي رتب البيعة وفي كل مرة يلمس يد شريكة في الخدمة يذكِّره بأنه قدَّم البخور لهذه الرتب المقدسة، وهذا التسليم لا يُذاع ولا يُقال لأننا في الأزمنة السابقة كنا نقوم بتقديم البخور أثناء وجود الموعوظين الذين لم ينالوا الصبغة وكان هذا التعليم مثل غيره لا يُذاع ولا يُقال جهراً، وإنما كُتب هنا من أجل الفائدة. وبعد التناول يرش الكاهن المياه معلِناً امتلاء الكنيسة من مياه الحياة أي الروح القدس.

تم شرح القداس الإلهي للأب العالم الفاضل سمعان بن كليل

يا رب ارحم القائل والناسخ والقارئ والعامل بما فيه

الحقير في كهنة بيعة القديس مارجرجس بالريدانية

القس غبريال بن هبة الله الشطانوفي

وبارك على والديه

واحفظ لنا الاسكيم المقدس.

رسالة مار تيموثاؤس أُسقف الأشمونين

عن تقسيم الجسد في القداس(١)

مباركةٌ هي رعدة وخوف أُبوتك عندما ترتعش وأنت تقسِّم الجسد؛ لأن الذين يتقدمون بدون خوف من المذبح يخطئون خطيةً عظيمةً، وهي الجسارة التي تُعدم القلب الخشية وتقلع التواضع تماماً من النفس. مَن لا يقف بخوفٍ ورعدةٍ، فهو إمَّا عديم الإفراز لا يعرف أنه في حضرة الملك أو أن خطاياه قد أظلمت حواسه الداخلية، ففقد الإدراك، ولم يعلم أنه في دائرة النار الإلهية العتيدة أن تحرق الذين لا يحترسون. وقد ذكر ملفان النصارى مار إفرام إن الذين لا يعاقَبون على جسارتهم بصورة منظورة، فإنما هم مرفوضون لا يعرفون الله الحي، وما هم بأحياء؛ لأنهم قطعوا رجاء الحياة بخطاياهم، ويعاقَبون أمام الجماعة كما عاقَب الربُ قورح، ولكنهم لا ينزلون أحياء إلى الهاوية، بل يسقطون كمعلمين يقولون غير كلمة الرب، ولا يحرِّك الروح قلوبهم.

هكذا يا ابني المحبوب من الرب، لا تجعل رعدتك موضعَ فحصٍ كثير، بل اقبلها لأن الرب أيقظ ضميرك، وخَف من أن تقبِّل بفاك مذبحه أو جسده وفي فمك لعنةٌ أو مرارةٌ، بل أجعل فمك الذي يقبِّل المذبح ينطق بكلام المذبح، وهو كل تعليم بخوف وحكمة وبركة وتسبيح.

---

(1) B.M.or.1339.

ذكر في أحد الشيوخ المدرَّبين بالروح القدس أنه في كل مرة يطلع فيها الهيكل تأخذه رعدةٌ وخوفٌ، ولكن بعد أن يبدأ الخدمة يمتلئ قلبه بعذوبة المحبة، فسأل الله أن يفهم ما هو القصد من تدريبه بهذه الصورة، وقَصَدَ متوحِّداً كان يعرفه، فقال له المتوحِّد إن القلب الذي يخاف الله يجد تعزيةً في مواعيده؛ لأنه لا يتقسى بالخطية ويتوانى، بل يعرف لوقته أن هذه الرحمة العظمى قد أُعطيت للساقطين، فيطلب النهوض والسير، وقال له أيضاً ماذا يحدث عندما تُكلِّم الشعب، فقال له في بداية الخدمة كنت أخجل وأخاف، ولكن الآن يطلع الخوف على قلبي لا من الناس، ولكن من الله، فعندما أقصد المنجلية أصير مثل عبدٍ مرتعدٍ من الحديث عن السيد العظيم الذي أراه، ولكن يطلع على فكري تحنن الله ورحمته ومحبته لنا، فأصير كمثل مَن ينوح، ويطلب من الشعب بتواضع أن يحبوا المسيح الملك لأنه محب البشر. لذلك رأيت أن أنقل إليك هذا الاختبار الحكيم حتى ما تتعزى نفسك وتبتهج بالرب الذي أعطاك أن تحبه بهذا المقدار؛ لأن مار اسحق قال إن خوف الله يتقدم محبته، وسوف تطلع المحبة الإلهية مثل نبتة صغيرة تقوى بالخشية والطاعة، فاجعل أحكام الملك أمام عينيك دائماً لتسير أمامه بخوفٍ وحياء من كثرة قداسته.

لقد بحثت في كتب الآباء عن تقسيم الجسد المحيي، ولم أجد إجابة لسؤال أُبوتكم، فالقديس كيرلس الأورشليمي والنيسي وغيره لا يقولون إن الكاهن يقسِّم أعضاء المسيح الناسوتية ويجرحها، أو أنه يجترأ على ذبحه في كل مرةٍ يقدِّس. لقد تضرعت إلى الله أن يكشف لي عن أصل هذا الفكر وسببه؛ لأن لي في خدمة السر الرهيب هذه السنين الطويلة، وما جاء على قلبي قط مثل هذا الفكر؛ لأن المهتم بحياتي مار يعقوب الذي رقد في سلام الرب ومسرته قد علَّمني أن أتخشَّع أمام الله وجمع السمائيين، وأن أسجد بقلبي وجسدي للمسيح، وكان يذكِّرُني بقول النبي: "حي هو الرب الذي أنا واقف أمامه اليوم"؛ لكي أقف بخوف لأن الخدمة هي له ونحن أدوات في يده، ومَن ذا الذي يمكنه أن يقترب من الجلجثة أو القبر.

إن المخلص لما أخذ شكل تواضعنا وصار إنساناً، إنما حلَّ في بطن العذراء ووُلِدَ

من ذات جسدها كما تشهد بهذا كل كتب البيعة، ولمس الناس ولامسوه وأكل معهم وبكى، ولكنه في مجده انفرد بالسمائيين، إذ ظهر معه إيليا وموسى على الجبل، وكان الرسل مثل النائمين. وعلى الصليب أيضاً ما شاركه أحد في ذبيحته؛ لأنه انفرد وتوحَّد بآلامه؛ لأن الرسول يقول إنه دخل إلى ما داخل الحجاب وحده بدم ذبيحة الجلجثة في مكان لم يدخله بشريٌ قط من قبل، ورغم أن اللِّصان صُلبا معه عن اليمين وعن اليسار، لكن ما حمل أيٌ منهم ولو قطرة من بحر العذاب الذي فاضت مياهه على الرب؛ لأن النبي قال: "خلِّص يارب نفسي من مياه الموت"، وكيف خَلُص؟ بأن قام في وقتٍ لم يعرفه أحد، فلم يشهد القيامةَ أحدٌ سوى الثالوث الأقدس والسمائيين، أمَّا البشر فكانوا غائبين في نوم مثل العسكر، أو في خوفهم مثل التلاميذ قبل أن تدركهم نعمة الروح المعزِّي.

تفهَّم يا ابني كلمات البيعة المرتَّبة من قِبَل روح الحكمة؛ لأنه قبل أن يسجد الكاهن ضارعاً لحلول الروح القدس، يقول الشعب الطلبة معترفين فيها بظهور الرب في الجسد وموته وآلامه وقيامته وصعوده ومجيئه الثاني، لكي يعرف ذاك الساجد داخل الأسكنة أنه ما له عمل في هذا السر، سوى أن يخدم سيده ويقوم بكل أوامره وإن الكل له.

لذلك، قدِّس وقسِّم الجسد؛ لأن هذا السر ما يعرفه عقل، فهو تم بين الآب ضابط الكل وابنه، وكان معروفاً قبل تأسيس العالم، ولكن الإبن الوحيد تألم مرةً واحدةً، كما يشهد الرسل رغم كون دمه معروفاً من قبل الخليقة، وما جَزَعَ هو من الآتي عليه، بل تقدَّم بكل ثبات نحو الصليب. لذلك تقدَّم أنت أيضاً واكسر الجسد، لا لأنك تكسره من جديد، بل لأن كسره معروفٌ من قبل كل الأزمنة، وهو يظهر لنا في الخدمة الفائقة القداسة. إعطِ شعبك مراعي بأن تقدم لهم الجسد المحيي، والكأس الثمين ولا تتوانى في ذلك؛ لأن الإنسان ما تحصل له الحياة الدايمة إلَّا من قِبَل تذوق ثمرة الحياة؛ لأن القديس كيرلس يقول: إن المائت إذا اتحد بغير المائت صار مثله؛ لأن قوة الحياة التي في جسد المسيح تغلب الموت الذي فينا. فها أنت تقدم الحياة الدايمة التي به وفيه للموتى، فكيف

ترتعب من هذا وترتد إلى الوراء؛ لأن هذا الحاصل منك ليس سوى ضعفٌ في روحك لأنك تظن أن عظمة الله في ارتفاعه عن الخطاة، وليس بعظيم مَن يبتعد عن الخطاة، بل من يجيء إليهم مثل نورٍ، ويقدم لهم الدواء.

تذكَّر دائماً يا ابني إن الرب هو راعي الخراف، وإن هذه الكلمات الكريمة قُرِأَت يوم أُعطيت حراسة خرافه، فتقدم بثبات إلى المذبح، لا كَمَن يعتدي على الرب ويقطِّع أعضائه الناسوتية، ولكن كَمَن يتقبَّل سر الآلام المحيية.

تقسيم جسد الرب

كما سلَّمه الآباء القديسون[١]

عند تقسيم الصعيدة يضع الكاهن إبهام يده اليمنى لكي يقسم القربان المقدس من أعلى الى أسفل. الثلث عن اليمين والثلثان عن الشمال ويقول اثناء ذلك: "وقسَّمه وأعطاه لخواصه التلاميذ .." وقد ذكر الأنبا بطرس أُسقف بابليون هذا الشرح:

"يضع الكاهن يده اليمنى على الصعيدة وبإبهام يده اليمنى يقسم القربان من أعلى إلى أسفل؛ لأن الإبن الوحيد نزل من فوق من السماء إلى أسفل، ولأنه كائن في السماء وعلى الأرض. ويمر بإبهام يده اليمنى على الثقوب الثلاثة التي على اليمين من أعلى إلى أسفل ويقسِّم دون فصل. وحسب تسليم الآباء أن ما عمله الرب وأعطاه لنا هو خاص بأقنوم الإبن الوحيد، فهو وحده الذي تجسد ومات وقام، وهو الذي قسَّم جسده وأعطاه لتلاميذه القديسين؛ من أجل ذلك تم تقسيم القربان المقدس إلى ثُلث أي ميراث الابن، وعلى اليمين؛ لأنه عن يمين عظمة الآب، وثلثين أي ميراث الآب والروح القدس. فهو ميراثٌ واحدٌ يوزِّع الأقنوم الثاني ما يخصَّه علينا لكي نملك في ميراث الثالوث. ويمر بالإبهام على الثقوب الثلاثة مؤكداً أسرار

---

(١) الباب الثالث – كتاب حكمة الآباء. مخطوطة من القرن الثالث عشر منسوبة للعالم القبطي – سمعان بن كليل أحد رهبان دير يوحنا القصير.

الخلاص: الميلاد من العذراء والمعمودية في الأردن وموت الجلجثة والقيامة، وهي الأسرار التي تُعطى في القربان المقدس والكأس الكريم، لأننا بعد المعمودية والمسحة لا نزال نولد حتى نكتمل في الدهر الآتي بالموت والقيامة. ولا يفصل الثلث عن الثلثين؛ لأن ميراث الابن لا يمكن فصله عن ميراث الآب والروح القدس، فهو نعمة واحدة وصعيدة واحدة للآب والابن والروح القدس حسب الكلمات المقدسة[١] "هذا الذي من قِبَلِهِ (بواسطته) نشكر ونقرِّب لك معه ومع الروح القدس الثالوث المقدس المساوي غير المفترق"؛ لأن الكنيسة الجامعة تقرِّب القربان بواسطة رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح، للآب والابن والروح القدس، الثالوث غير المفترق.

وعند صلاة القسمة يضع الجسد المقدس على يده اليسرى ويشير بأصبعه السبابة اليمنى إلى الاسباديكون[٢] ويقول: "الجسد المقدس". والاسباديكون هو السيد نفسه في وسط القربانة لأنه في وسطنا. ثم يمد يده اليمنى ويضع أصبع السبابة اليمنى في الكأس، ويقول: "الدم الكريم الذي سُفِكَ على الصليب" ويرشم رشماً واحداً؛ لأنه سُفِكَ مرةً واحدةً عنَّا. ويقول: "الدم الكريم". ثم يرشم الجسد بالدم رشمين: الأول من فوق، والثاني من أسفل ويقول: "اللذان لمسيحه الضابط الكل". وبالرشمين يعلن وحدة (اتحاد) النفس بالجسد بعد القيامة. والرشم الأول من فوق إشارة إلى تعليق سيدنا على الصليب. والرشم الثاني من أسفل إشارة الى أن الرب صعد من الجحيم الذي نزل إليه لكي يفك المأسورين. وأثناء صلاة القسمة يقسِّم الجسد المقدس دون فصل إذا كان حاذقاً؛ لأن جسد ربنا لم يكسر ولم ينقسم، ثم يأخذ الاسباديكون ويضعه في الكأس الكريم مقلوباً؛ لأن سيدنا المسيح دُفِعَ

(١) القداس الكيرلسي أو قداس مارمرقس الرسول.

(٢) الشائع عندنا "الاسباديقون".

إلى الموت مثل حملٍ، والحمل يوضع على ظهره حتى يذبح، وهو الحمل الواحد الحي القائم من الأموات والذي باتحاد الدم، أي النفس بالجسد، أكمَلَ تقدمة الحياة بالقيامة من الأموات، ولذلك السبب أيضاً عندما يمسك الأسباديكون بيده فوق الصينية يقول جهراً: "أذكر يارب اجتماعاتنا باركها"؛ لأن السيد في وسط الكنيسة محاط بالرسل القديسين وبكل أعضاء جسده وهو الذي جمعنا معاً في وحدة جسده المقدس" أهـ[١].

ملاحظات على النص:

١- تُعد هذه المعلومات هي الشرح الوحيد لطقس تقسيم الجسد الذي عثرنا عليه، ولذلك هذَّبنا اللغة العربية دون حذف أو إضافة.

٢- "الاسباديكون"، وربما الأصح "الاسباديقون"، ولكن يمكن استعمال الكاف حسب نطق المؤلف.

٣- رشم الجسد بالدم والدم بالجسد، هو استعمال قديم شاع في القرن الخامس في الكنيسة السريانية، وذكره الأب ثيئودوريت وغيره من علماء السريان، ولكن يبدو أنه قديم جداً وأقدم من القرن الخامس؛ لأن "النفس هي للدم" هو تعبير سفر اللاويين، والمسيح الحي القائم من الأموات هو جوهر الأفخارستيا.

٤- لم نعثر عن أية معلومات لكتاب الأنبا بطرس اسقف بابليون الذي له شروح على كتاب المجموع الصفوي لإبن العسال بخط يده في المخطوطة النادرة في

---

(١) وقد ذكر الأنبا بطرس أسقف بابليون في كتابه "شرح أسرار وطقوس البيعة" الفصل العاشر وفي الباب الثالث الخاص بسر الصعيدة ان شرح تقسيم الجسد في القداس لم يدوَّن لأنه كان يُسلَّم سِرّاً، وحرص الآباء على التسليم، ولكن خوفاً من ضياع المعاني بسبب قلة الآباء الحاذقين والمعلمين دوَّنه لمنفعة طغمة الخدام والشعب وقد نقلنا ما ذكره هذا الأب الحكيم دون نقص أو زيادة.

المتحف البريطاني – لندن. وبالتالي هو من مؤلفي القرن الثالث عشر، وربما بعد ذلك، ولم يرد ذكر هذا الأب في قائمة المؤلفين الأقباط التي نشرها الأب جورج جراف والتي تضم كل المؤلفين ابتداءً من مدرسة الاسكندرية[١]. ونشر هذه المعلومات قد يساعد مَن يبحث في تاريخ الطقوس.

٥- وأخيراً، ربما لاحظ القارئ أن القربانة في كنيستنا هي الكون كله، وهي الكنيسة؛ لأن الرب في الوسط مُحاطٌ بالرسل وبجراح جسده، وهي الثقوب الخمسة، ثم بكلمات التسبيح: "قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت"، وهي شركة السماء والأرض في التسبيح الذي تُجَسِّدُه ذبيحة التسبيح، أي الافخارستيا المقدسة، وهي علامة اتحاد السماء والأرض ومُلك المسيح رب السماء والأرض.

---

(1) G. Graf "Geschichte der Christichen Arabischen Literatur. St, 118, 133, 146, 147, 172.

حول كلمات القداس الإلهي

للقديس باسيليوس:

"وذاق وأعطاها أيضاً لتلاميذه ورسله القديسين"[١].

هل شرب الرب من كأس الافخارستيا؟

النص القبطي لقداس القديس باسيليوس يعتبر الأصل الذي اعتمد عليه التقليد البيزنطي (اليوناني). ولأن النص القبطي أقصر بكثير، ولأن المصطلحات اللاهوتية أقل، فهو يعود إلى عصر سابق للقديس باسيليوس، ولا تبدو من ملامحه القبطية أنه من صياغات القرن الرابع، بل قبل ذلك.

متى وأين وكيف، هي أسئلةٌ صعبة لا يمكن الإجابة عليها، ولكن وجود أسماء معلمي الإيمان مثل القديس باسيليوس هو بمثابة تأكيد وشهادة كنسية على صحة وأرثوذكسية الصلوات.

السؤال ذو دلالة هامة: هل ذاق الرب من كأس الافخارستيا؟ والجواب هو للقديس يوحنا ذهبي الفم في العظة ٨٢ على انجيل متى (متى ٢٦: ٢٦ – ٢٨). النص اليوناني مجلد ٥٧ عامود ٧٣٧ — ٧٤٦ والترجمة الانجليزية في المجلد العاشر صفحات ٤٩١ – ٤٩٧.

---

(١) رداً على سؤال أحد القراء.

"المساء هو علامةٌ مؤكدة على كمال الزمان، وأن كل شيء يصل الآن إلى غايته، أي نهايته. لقد شكر (الرب) لكي يعلِّمنا كيف نمارس هذا السر، وأنه جاء إلى آلامه دون تردد، وأيضاً لكي يعلِّمنا أنه مهما كانت آلامنا نحن، أن نشكر؛ لأننا (بالشكر) ننال الرجاء الأفضل. كان الرمز (فصح اليهود) هو التحرر من العبودية، فكيف لا يكون بالحري الحقيقة التي تحرر العالم والتي قُدِّمَت لكي تعطي ما هو أفضل للجنس البشري. ولذلك أضيف إلى ما ذكرت أن (الرب) لم يؤسِّس هذا السر قبل ذلك، بل عندما حان الوقت لأن تنتهي طقوس الشريعة. وكانت المناسبة هي العيد الأكبر الذي اختاره (الرب) لكي يضع نهايةً (لطقوس الشريعة)؛ لكي يؤسِّس – بعد إزالة طقوس الشريعة – المائدة الرهيبة التي عندها قال: "خذوا كلوا. هذا هو جسدي الذي يُكسر لكثيرين" ... وها هو هنا يؤكد أنهم (الرسل) سمعوا من قبل ما يكفي عن آلامه، أمَّا الآن فهو يتكلم (الرب) عن سبب آلامه، أي "يرفع الخطايا" وهو يقول: "هذا هو دم العهد الجديد"، أي الدم الذي يبني الوعد بالشريعة الجديدة؛ لأنه هو الذي أعطى أيضاً الشريعة القديمة، ولكن الآن هذه الشريعة الجديدة هي شريعة العهد الجديد. وكما كان العهد القديم قائماً بذبائح من الغنم والثيران، هكذا العهد الجديد هو مبني على دم الرب.

وهو هنا يؤكد أن موته قريب جداً، وهذا هو السبب في أنه ذكر "العهد" لكي يذكِّرهم (الرسل) بالعهد السابق (القديم) لأنه كُرِّس بالدم. ومرةً ثانية يُخبر عن سبب موته "الذي يُسفَك عن كثيرين لمغفرة الخطايا"، وهو (الرب) يضيف: "أصنعوا هذا لذكري". كيف يبعدهم عن العادات اليهودية ويقربهم (إلى ما هو جديد). لأنه كما كنتم تصنعون هذا (الفصح) لذكر (المعجزات التي حدثت في مصر)، فالآن اصنعوا هذا لذكري أنا. ما حدث في مصر هو الدم الذي سُفِكَ لكي يفدي البكر، أما هذا فهو لغفران خطايا العالم كله؛ لأنه قال: "هذا هو دمي الذي يسفك لمغفرة الخطايا"، ولكنه قال

هذه الكلمات مُعلناً أن آلامه وصليبه هو سر، وبنفس الكلمات يعزِّي تلاميذه، وكما قال موسى إن هذا "سيكون لكم ذكرى دائمة" (خروج ٣: ١٥) فهو يقول (الرب) هذا لذكري حتى أجيء (١ كو ١١: ٢٦) كان قد قال: "شهوةٌ اشتهيت أن آكل هذا الفصح" (لوقا ٢٢: ١٥) لكي أُسلِّم لكم الخدمة الجديدة وأن أعطي لكم الفصح الذي سوف يجعلكم روحانيين.

وهو نفسه شرب منه (الكأس) حتى إذا سمعوا كلماته لا يقولوا ما هذا؟ هل نشرب دماً ونأكل جسداً؟ ويقعون في حيرة، لأنه عندما كان يتكلم عن هذا قبل (الفصح) فالذين سمعوه عثروا عندما سمعوا ذات الكلمات (يوحنا ٦: ٦٠ – ٦١، ٦٦)، ولذلك وحتى لا يقعوا في الاضطراب، هو نفسه فعل هذا (أكل وشرب) لكي يقودهم إلى شركة هادئة في السر، ولذلك شَرِبَ دمه ***Drank his own blood***".

وبعد أن أكد القديس يوحنا ذهبي الفم أن الرب شرب دمه الخاص به، وكان أول المتناولين، عاد إلى شرح كلمات الرب في انجيل متى (٢٦: ٢٩):

"ولن أشرب من عصير الكرمة إلى ذلك اليوم حيثما أشربه جديداً في ملكوت أبي" (متى ٢٦: ٢٩) لأنه بعد أن شرح لهم آلامه والصليب هو يقدم لهم ما يخص قيامته لأنه أشار إلى "الملكوت" وقال لهم أن هذا الملكوت هو قيامته".

ثم يسأل القديس ذهبي الفم:

"هل شرب بعد أن قام؟ وحتى لا يظن العديم الإحساس أن القيامة كانت مجرد ظهور؛ لأن (الحقيقة الأعظم) أوجبت هذا الاختبار الفائق الخاص بقيامته، ولذلك قال الرسل – "بعد أن أكَّد لهم قيامته – "نحن الذين أكلنا وشربنا معه" (أعمال ١٠: ٤١)".

ويشرح كلمات الرب بعد هذا:

> "ما هو الجديد؟ أي بما هو فائق؛ لأنني لن يكون لي جسد قابل للآلام، بل خالد وبلا فساد لا يحتاج إلى طعام. ومن أجل ضرورة تأكيد القيامة أكل وشرب بعد القيامة؛ لأن جسده لا يحتاج إلى طعام ...".

دم الرب الخاص به:

نحتاج إلى عودة آبائية يظهر فيها: منطق المحبة وبديهيات التدبير، وليس المنطق الإنساني الذي يساعدنا على حل الكثير من المشاكل، وبديهيات الحس والإدراك الإنساني السليم الذي يقودنا إلى الخير والتمسك بما هو أفضل.

إن شئنا أن نعود إلى منطق المحبة حسب الإنجيل، فالقواعد الخاصة بمنطق المحبة قدَّمها الرب نفسه في تقديم حياته تقدُمة حرة (يوحنا ١٠: ١٨) وشرحها رسول الرب في (١ كو ١٣: ١ – ١٠).

وبديهيات التدبير تعلو على كل ما هو بديهي. فقد وُلِدَ من عذراء لا تعرف رجلاً، ووُلِدَ ولادةً فائقةً بالروح القدس، وهذا ليس أمراً بديهياً، ولكن حسب التدبير يجب أن يأتي الروح القدس في بداية التدبير منذ اللحظة الأولى لكي يكون شريك الرب في تأسيس الخلاص. وهكذا كان الانبياء يُولدون ثمرة زواج، أمَّا يسوع فقد وُلِدَ دون زواج. ويقول لوقا الإنجيلي: "ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع" (٣: ٢١) ولكن الروح نزل على يسوع وحده، ومن السماء لم يشهد الآب إلَّا عن الابن الحبيب.

وصُلِبَ الربُ ومعه لصين، ولكن صليباً واحداً جاء بالمصالحة. وعند الدفن "دُفِنَ في قبرٍ جديد لم يكن أحد قد وُضِعَ فيه قط" (لوقا ٢٣: ٥٢). وكما انفرد بالميلاد وانفرد بالمسحة، انفرد أيضاً بالدفن وبالقيامة.

هذه البديهيات الخاصة بالتدبير تجعلنا نصل إلى أحد هذه البديهيات، وهي تحول ناسوت الرب يسوع، وهو التحول الذي تم في مراحل تجسد الرب واتحاد أُقنومه الإلهي بالناسوت. كان من البديهي حسب التدبير أن ينمو الجسد حسب نمو كل الأجساد، وأن يحتمل الرب نمو جسده الخاص به، وهكذا وصل الاتحاد إلى الكمال بالموت والدفن والقيامة، فقد أُبيد من الجسد: الضعف، والألم، والموت، والفساد.

ولم تتم هذه الإبادة بالاتحاد وحده، بل بدخول هذا الاتحاد في طريق الضعف والألم والموت والدفن لكي يتحول الناسوت إلى ذات قوة لاهوت الكلمة وإلى مجد الكلمة وعدم فساد الكلمة ابن الله.

ولذلك – في جُرأة منطق المحبة – يقول القديس أثناسيوس:

"بما أن كل البشر قد هلكوا بسبب مخالفة آدم، فإن جسده كان أول ما تم تخليصه وتحريره؛ لأن هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه" (ضد الأريوسيين ٢: ٦١).

ويعيد القديس اثناسيوس نفس بديهية التدبير:

"إذا كان أول ناسوت تم خلاصه وتحريره من الفساد والموت هو ناسوت الرب، فمتى حدث ذلك؟ بالتأكيد على الصليب. كان الإنسان الأول آدم قد جاء بالخطية والموت، ولكن يسوع صار أول الطرق *ways*، لأن الطريق الأول كان خاصاً بآدم، وقد ضاع، وفيه انحرفنا إلى الموت بدل (الحياة) في الفردوس، وسمعنا القول: "إنك تراب وإلى التراب تعود" (تكوين ٣: ١٩)؛ ولذلك السبب لبس كلمة الله محب البشر، الجسد المخلوق بمشيئة الآب؛ لكي يُحيي بدم نفسه (بدمه الخاص) هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه، كما قال الرسول: "وكرس لنا طريقاً حياً حديثاً بالحجاب أي جسده" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٥).

هكذا يجب أن نفهم عبارة القداس الإلهي: "وذاق"، فهو آدم الجديد الذي جاء للحياة، وهو يتناول مع التلاميذ من ذات العشاء السري، لا لكي يبدد الخوف فقط، بل لكي يصبح الباكورة والأول في كل شيء مُقدَّماً عن الكل في كل شيء (كولوسي ١: ١٨). وبالطبع لم يكن الرب قد تناول للغفران، تماماً كما اعتمد من يوحنا، ليس للغفران، بل لاستعلان الثالوث. وأيضاً كما صُلب مع اللصين، لا لأنه تعدى الناموس، أو قاوم سلطان روما. لقد تناول البكر وصار الأول في كل شيء: أول من وُلِدَ من الروح القدس، أول من مُسِحَ إلى الأبد، أول مَن غَفَرَ خطايا البشر قبل أن يُصلَب، أول من قام من الأموات ولا يسود عليه الموت. صار الرأس وصار هو نفسه الذي فدى جسده بدمه الخاص به، وهو نفسه تناول من ذات الكأس؛ لأنه صنع العشاء، وهو حسب الدعوة السمائية لا يقدِّم طعاماً لا يأكل هو منه، بل يأكل مع المدعويين.

علينا أن نرتفع إلى ما هو بديهي حسب التدبير، وأن لا نقع في حيرة منطق الحياة الإنسانية القادر على حل مشاكل كثيرة، ولكن أمام تدبير ومنطق المحبة، يجب أن ينال المنطق والقدرات العقلية استنارةً من روح يسوع.

المحبة تسبق كل ما يمكن أن تقوله الشريعة. وحتى هذه اللحظة وإلى أن يجيء الرب لا زال لدينا استعلان محبة الله التي بلا سبب؛ لأن المحبة التي لها سبب، حتى لو كان سبباً واحداً، هي محبة قد حدَّدها السبب، وحشرها في غايةٍ تريدها، أمَّا المحبة الإلهية فهي بلا سبب ولا يمكن أن تخضع لتحليل عقلي فلسفي؛ لأن هذه المحاولات باءت بالفشل عبر تاريخ الكنيسة.

خاتمة

رَشُّ الماء في نهاية القداس

لماذا ينتهي القداس الإلهي برش المياه؟ ولماذا يقف الكاهن المدرَّب على الطقس إلى يمين المذبح، ويرش الماء ووجهه إلى الشرق بعد أن يسكب قطرات من الماء على المذبح؟ ولماذا يرفع الماء إلى أعلى؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة ليست موجودة في التفاسير الشعبية الشفوية، وإنما في مصادر العقيدة والطقس، وهي الكتاب المقدس وتفاسير الآباء وشروحات القداس التي عُرِفت في الكنيسة الشرقية ابتداءً من القرن الخامس.

حزقيال ٤٧: ١ – ١١:

ما يفعله الكاهن هو تطبيق دقيق لنص نبوة حزقيال الذي يقول: "وإذا بمياه تخرج من تحت عتبة البيت، نحو المشرق، لأن وجه البيت نحو المشرق، والمياه نازلة من تحت جانب البيت الأيمن، عن جنوب المذبح" (٤٧: ١). وهكذا يتصرف الكاهن القبطي حسب النص النبوي. ومن المعروف أن رؤيا حزقيال ٤٧ هي نبوة عن هيكل الكنيسة المسيحية، وهو المسيح الذي أعطانا هيكل جسده، (يوحنا ٢: ٣٧) وهو بدوره الهيكل في الكنيسة، العلامة المنظورة لحلول الله في وسط شعبه.

ونبـوة حزقيـال تُقـرأ في تقـديس ميـاه اللقَّـان في عيـد الغطـاس، ومنهـا أخـذت الكنيسة الغطسات الثلاث في المعمودية، الغطسة الأولى إلى الركبتين (٤٧: ٣) – والثانية إلى الحقوين (٤٧: ٤)، والثالثة غطسة كاملة (٤٧: ٥).

وقد وصف النبي رؤياه بشكل دقيق، وتحدث بوضوح عن نهر مياه الحياة الذي يمنح الحياة لكل الكائنات (٤٧: ٦ – ٨) والمياه الحية النابعة من الهيكل تعطي الشفاء، لكل مياه الكون (٤٧: ٨)، ولكن بشكل خاص يكثر السمك ويكون السمك كثيراً جداً (٤٧: ٩). ولا شك أن النبوة تحتاج إلى مزيد من الدراسة.

أولاً: النهر:

حسـب تقليـد الإسـكندرية، فـإن المعموديـة، تسـمى "الأردن". ولا زالـت هـذه التسمية، التي تعود إلى ما قبل عـام ١٩٠م، أي قبل القـديس أكلمنضس السكندري، موجـودة في كتـاب التعميـد القبطـي. نحـن نغطـس في الأردن علـى مثـال المسـيح، وننـال التبـني، وهـذا جـزء جـوهري مـن المعموديـة في الكنيسـة الجامعـة، وبشـكل خـاص في الإسكندرية.

إذن، المنظر الذي حدث في الأردن يحدث في الكنيسة. والكنيسة قائمة على المعمودية، فهي سر دخولنا إلى الإيمان وانضمامنا إلى المسيح (١ كورنثوس ١٢: ١١ – ١٣).

والمعموديـة قائمـة علـى "المـاء والـروح". والمـاء بشـكل خـاص رمـزٌ إلى المسـيح، وأحياناً رمزٌ إلى الروح القدس نفسه. وهذا ما يجعل الرسول يوحنا يضع الماء – الدم – الروح، وهؤلاء الثلاثة هم واحد في الواحد، والواحد هو المسيح (١ يوحنا ٥: ٧)، فهو الذي مات ومن جنبه خرج دمٌ وماء (يوحنا ١٩: ٣٤). وهو الذي سكب الروح القدس على الكنيسة (أعمال ٢: ٣٣). ولكن الروح الذي سكبه، هو الروح الذي أخذه هو أولاً عندما مُسِحَ في الأردن وصار المسيح الرب (لوقا ٤: ١٧ – يوحنا ١: ٢٣). هذا لا

يجعلنا نفرق بين الماء والروح؛ لأن الماء هو المسيح وأحياناً هو الروح، وهذا في حد ذاته شهادة على أن العمل الواحد للابن المتجسد، إنما يتم بالروح القدس.

ووحدة عمل الابن والروح القدس، تجعلنا نميِّز بين عمل الابن وعمل الروح القدس، ولكن على أن ندرك أن الأقانيم تعمل عملاً واحداً، حسب القاعدة اللاهوتية التي أرساها الآباء: **كل شيء يعمله الآب بالابن في الروح القدس**، هذا في حد ذاته يجعلنا نفهم لماذا يمكن أن يُستخدم رمز الماء للابن المتجسد، وللروح القدس في نفس الكتاب المقدس الواحد؛ لأن عمل الأقانيم واحد.

المسيح هو الأردُن نفسه، حسب تقليد الإسكندرية، الذي يشرحه العلامة أوريجينوس، يقول أوريجينوس:

"إن معنى كلمة "الأردُن" في العبرانية، الذي ينزل إلى أسفل. "وما الذي ينزل إلى أسفل، لكي تفرح مياهه مدينة الله العلي، كما يقول المزمور (٤٦: ٤)، بالطبع ليس المقصود أورشليم المنظورة، التي لا يوجد أي نهر داخل حدودها الجغرافية، وإنما المقصود هو الكنيسة التي بلا عيب، كنيسة الله، التي بُنِيَت على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية. والأردُن، أي الذي ينزل هو إشارة إلى كلمة الله الابن، الذي تجسد وسكن بيننا، وأعطانا ناسوته ميراثاً لنا، لأن يسوع هو الرأس وحجر الزاوية، الذي حلَّ فيه كل ملء اللاهوت، واغتسل في الأردُن، وقَبِلَ في ذاته الحمامة البريئة التي بلا غش، أي الروح القدس، وربطها فيه، لكي لا تطير بعيداً عنا ... والروح القدس الحمامة الروحية، لا تحط على أي نهر، بل على نهرٍ واحدٍ هو المسيح" (تفسير يوحنا، الطبعة الإنجليزية، ص ٣٧٢-٣٧٤).

العقيدة هي أساس كل الطقوس، ولا يمكن فهم الطقوس بدون عقيدة. في هذا الإطار وحده يمكننا أن نفهم معنى العبارات التالية في ذكصولوجية باكر للعذراء:

+ اليمامة النقية التي نادت في أرضنا، وأينعت لنا ثمرة الروح.

+ الروح المعزِّي الذي حلَّ على ابنك في مياه الأردن، كمثال نوح.

+ هذا فلنتأمله في قلوبنا أولاً، ثم بعد ذلك نعلنه بلساننا، صارخين قائلين: يا ربنا يسوع المسيح، اصنع لك فينا هيكلاً، لروحك القدوس تمجيداً لك. (الإبصلمودية السنوية ص ٣٢٣ - ٣٣٤).

ما تحدده العقيدة هو حلول الروح القدس على العذراء لكي يولد لنا ثمرة هذا الحلول، أي المسيح، ثم حلول الروح القدس على المسيح في الأردن، حيث جاءت الحمامة وحلَّت على الفلك، وهنا ما فعله نوح هو رمزٌ لِمَا تحقق في العهد الجديد في المسيح. وبعد ذلك تنقلنا الكلمات إلى الواقع السري الذي تمارسه الكنيسة وتحيا فيه "اصنع لك فينا هيكلاً لروحك القدوس"، وقد نسأل: وما علاقة كل هذا بنبوة حزقيال ٤٧: ١ - ١١؟

والجواب واضح. نحن صرنا هيكلاً لله في المسيح، وبشكل حقيقي في الإفخارستيا التي جعلتنا أعضاء لحمه وعظامه، وجعلتنا - كما يقول كل الآباء - شركاء في الميراث السماوي، أي ناسوت المسيح. لقد صرنا هيكلاً لله بالإفخارستيا، ولذلك ينبع فينا نهر الماء الحي الخارج من المسيح حسب كلمات الإنجيل: "مَن آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه (جوفه) أنهار ماء حي، قال هذا عن الروح القدس" (يوحنا ٧: ٣٧ - ٣٨).

وهي الإشارة الواضحة في العهد القديم، التي أشار إليها المسيح كما قال الكتاب أنها كلمة النبي حزقيال (إصحاح ٤٧: ١ - ١١)، كما استقر في كتابات الآباء جميعاً، وكما رأى يوحنا في رؤياه (٧: ١٧ - ٢٢: ١)، نهر ماء الحياة الذي ينبع من عرش الله، ومن الهيكل حيث يجلس يسوع الحي والملك إلى الأبد لكي يمنح الكنيسة حياةً جديدةً.

لقد أخذنا الجسد الحي والدم الكريم، وصرنا هيكلاً لله، وفينا ينبع الماء الحي الذي مَن يشربه لا يعطش أبداً (يوحنا ٤: ١٤). وهذا هو معنى رش الماء بعد توزيع الذبيحة، لقد صرنا حقاً نعيش الحياة الجديدة النابعة من جنب المسيح، الماء والدم والروح.

ثانياً: السمك الكثير:

لقد دعا الربُ الرسلَ الاثنى عشر، وهم صيادوا سمك ليكونوا بعد ذلك صيادين للناس (متى ٤: ١٩) وكلمة سمكة في اللغة اليونانية مكونة من الحروف: "ΙΞΘΙΣ" (راجع قاموس العهد الجديد اليوناني - باور - ص ٣٨٥).وبالقبطية "**ΙⲬⲐⲨⲤ**" وقد فسَّر المسيحيون الأوائل هذه الحروف على أنها اختصار لصيغة الاعتراف بالإيمان المسيحي:

"يسوع المسيح ابن الله مخلص"

Ιησους Χριστος Θεου Υιος Σωτηρ

Ⲓⲏⲥⲟⲩⲥ Ⲭⲣⲓⲥⲧⲟⲥ Ⲑⲉⲟⲩ Ⲩⲓⲟⲥ Ⲥⲱⲧⲏⲣ

وهكذا صارت (السمكة) علامة سرية للاعتراف بالإيمان ولتعارُف المسيحيين. وصار السمك هو شعب الكنيسة الذي جَمَعَه الرسل في شِباك التقليد الرسولي وحفظوه من ضلال الهراطقة (اكليمنضس الإسكندري - الآباء اليونانيين ٨: ٨٦١ - العلامة اوريجانوس عظة ١٦: ١ على أرميا - مجلد ١٣: ٤٤٠ - ترتليان مقالة المعمودية ١ مجلد ١: ١٣٠٦ - أوغسطينوس مدينة الله ١٨: ٢٣ - مجلد ٤١: ٥٨٠).

وهكذا يحيا السمك الكثير، أي شعب الله، أي الكنيسة، في نهر ماء الحياة بقوة

الروح القدس. وهكذا يجعلنا نرى كيف ينتهي مزمور ١٥٠ في التوزيع حيث يختم الشعب التسبيح باللغة القبطية قائلاً:

Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ Ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲙ̀ⲫϯ ⲥⲱⲧⲉⲙ ⲉ̀ⲣⲟⲛ ⲟⲩⲟϩ ⲛⲁⲓⲛⲁⲛ

"إيسوس بخرستوس إبشيري إمفنوتي سوتيم إيرون أووه ناي نان"، أي يا يسوع المسيح ابن الله اسمعنا وارحمنا"، وهي الحروف التي تكون كلمة سمكة **ⲒⲬⲐⲨⲤ** ولكن باللغة القبطية.

هكذا كل من يتناول عليه أن يبقى في نهر ماء الحياة، لأن الخروج من الكنيسة معناه الموت الروحي. ويؤكد هذا النقش القديم الذي تركه مسيحي القرن الثالث في القرية القديمة Autun والذي يعكس المعنى الذي نحن بصدده.

والنص اليوناني كما نراه، يظهر فيه اسم السمكة في أول سطر وهو أول كلمة.

ΙΧΘΥΟϹ.Ο..........ΙΟΝ.ΓΕΝΟϹ.ΗΤΟΡΙϹΕΜΝ̆
ΧΡΗϹΕ.ΛΑΒΩ......Ν.ΑΜΒΡΟΤΟΝΕΝΒΡΟΤΕΟΙϛ
ΘΕϹΠΕϹΙΩΝ ΥΔΑΤΩΝ ΤΗΝ ϹΗΝΦΙΛΕΘΑλΠΕΟΨΥΧην
ΥΔΑϹΙΝΑΕΝΑΟΙϹ ΠΛΟΥΤΟΔΟΤΟΥϹΟΦΙΗϹ
ϹΩΤΗΡΟϹ ΑΓΙΩΝ ΜεΛΙΗΔΕΑΛαΜΒαΝ....
ΕϹΘΙΕΠΙΝ........ΝΙΧΘΥΝ ΕΧΩΝΠΑΛΑΜΑΙϹ.

وترجمة هذا النص تؤكد ما سبق وشرحناه "الجنس الإلهي للسمكة المقدسة، القلب المقدس المولود، والذي يقبل وهو الساكن مع المائتين حياة عدم الموت. المياه الإلهية تغذي نفسك يا عزيزي، وهي مياه الحكمة الفياضة التي تغني بالحكمة، أقبل الطعام الحلو المقدس من المخلص، كل وأشرب، وأجعل السمكة في يديك".

والنص يطلب الاعتراف بالمسيح ابن الله المخلص، لكي ينال الميلاد الجديد من المياه، وحياة عدم الموت رغم البقاء في الجسد فهذا ما تعطيه المعمودية.

ولكن المياه الإلهية، أي الروح القدس، وهي مياه الحكمة، هي التي تقود النفس المؤمنة إلى المسيح لكي تنال الإفخارستيا، أي جسد ودم المسيح يسوع ابن الله، الذي كان يوضع في أيدي المتناولين في العصور الأولى.

ملحق (١)

الكلمات اللاهوتية

في القـداس القبـطي

مقالات نُشرت بمجلة مرقس

في الفترة من ديسمبر ١٩٧٤ إلى يناير ١٩٧٦

الفصل الأول

الدَّالة[1]

"... نجسر بدالةٍ بغير خوف أن نطلب إليك يا الله الآب القدوس الذي في السموات ونقول: ..".

يُمكننا أن نفهم كلمات القداس بالعودة إلى الكتاب المقدس؛ لأن كل كلمات القداس مأخوذة من الكتاب المقدس؛ ولذلك يجب أن نكتشف كيف استخدم الكتاب المقدس هذه الكلمة: "الدالة".

هذا الاكتشاف، يساعدنا على فهم القداس وإدراك عمق معانيه، وبالتالي يزداد فهمنا ليس للقداس فقط بل للكتاب المقدس نفسه.

كلمة "دالة" في القبطية وهي أصلاً مأخوذة من اليونانية παρρησια Parrhesia – وردت في العهد الجديد على الأقل ٢٧ مرة، وتكرار كلمة معينة في العهد الجديد أكثر من مرة يعني بكل وضوح أنها من الكلمات الهامة المرتبطة بالرسالة الخاصة للعهد الجديد.

أمَّا في الخولاجي، فقد تكررت على الأقل ١٤ مرة، وهي تظهر بالذات في نهاية

---

(١) مجلة مرقس – ديسمبر ١٩٧٤ ص ١٥ إلى ص ١٨.

صلاة القسمة قبل أن يصلي الشعب: "أبانا الذي ...". ويتكرر هذا النص في نهاية جميع صلوات القسمة:

"لكي بقلبٍ طاهرٍ ونفسٍ مستنيرةٍ ووجهٍ غير مخزي وإيمانٍ بلا رياء ومحبةٍ كاملةٍ ورجاءٍ ثابتٍ، نجسر بدالةٍ بغير خوف أن نطلب إليك يا الله الآب القدوس الذي في السموات ونقول أبانا الذي في السموات..".

والتمسك بتكرار هذا النص، وبالذات تكرار كلمة دالة παρρησια (باريسيا) هو دليل على أنها إحدى الكلمات الهامة، وإلّا لماذا تسبق الصلاة الربانية؟

المعاني المختلفة للكلمة اليونانية في العهد الجديد:

+ كلمة دالة (باريسيا) تعني (العلانية): "ليس أحد يعمل شيئاً في الخفاء، وهو يريد أن يكون علانية (يوحنا ٧: ٤). قارن: "قال لهم يسوع حينئذ علانيةً لعازر مات" (يوحنا ١١: ١٤). "أخبركم عن الآب علانيةً" (يوحنا ١٦: ٢٥). "أنا كلَّمت العالم علانيةً" (يوحنا ١٨: ٢٠). ولعله من الواضح أن كل استعمالات إنجيل يوحنا تأتي في سياق الموضوع العام لإنجيل يوحنا، أي المسيح الذي "أظهر الآب، أعلن الآب".

+ في سفر الأعمال حيث الكرازة والاهتمام بكلمة الإيمان، استعمل القديس لوقا كلمة παρρησια بمعنى "جهاراً"، و"المجاهرة"، أي الصراحة في الكلام: "أيها الرجال يجوز أن يُقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود أنه مات..." (أع ٢: ٢٩)، ويؤكد سفر الأعمال أن المجاهرة هي إحدى ثمار الروح القدس (لاحظ كيف يسجِّل لوقا شهادة بطرس ويوحنا): "حينئذ امتلأ بطرس من الروح القدس... فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا... أنظر يا رب إلى تهديداتهم وأمنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة.. وامتلأ الجميع من الروح القدس" (أعمال ٤: ٨، ١٣، ٢٩)، وكان عمل شاول، أي بولس بعد إيمانه مباشرةً: "جاهر في دمشق باسم يسوع" (أعمال ٩: ٢٨) راجع أيضاً (أعمال ١٣: ٤٦ و ١٤: ٢ – ٣). وحتى بالنسبة لشخص أبولُس قبل أن ينال

المعمودية، كان عمل الروح القدس قوياً في حياته "حاراً بالروح يُعَلِّم بتدقيق ما يختص بالرب.. يجاهر في المجمع" (أعمال ١٨: ٢٥). ولعل استعمال كلمة (باريسيا) هنا لأبولُس هي تأكيد على أن الروح القدس يعمل في كل الذين يشهدون ليسوع حتى من غير الرسل.

في موضوع واحد فقط استخدم بولس كلمة (باريسيا) في أثناء دفاعه عن نفسه أمام فستوس بمعنى (حرية الحديث): "لأنه من جهة هذه الأمور يعلم الملك الذي أكلمه بحرية" (الترجمة البروتستانتية) "عالمٌ الملك الذي أكلمه جهاراً" (أعمال ٢٦: ٢٦). وإذا كان بولس يدافع عن نفسه، فهو بلا شك يتكلم جهاراً، لكن المعنى الدقيق هو حرية الحديث، وهو الاستعمال القديم لكلمة باريسيا في الأدب اليوناني القديم.

+ في رسائل القديس بولس اكتسبت كلمة (باريسيا) معانٍ جديدة هامة، ففي (٢ كورنثوس ٣: ٤ - ١٣) يقارن بولس بين المجد الزائل لخدمة العهد القديم، والمجد الأبدي لخدمة العهد الجديد، ثم يقول: "فإذ لنا رجاء مثل هذا نستعمل مجاهرة كثيرة"، والمعنى الدقيق هنا هو "كشف أسرار الخدمة أو إظهارها". هذا المعنى قريب من معنى الكلمة كما وردت في إنجيل يوحنا مع فارق أساسي هام، وهو أن يسوع هو الذي يُعلن ويكشف، بينما عند الرسول بولس، الذي يكشف ويعلن السر هو الرسول نفسه.

وفي مكان آخر، يؤكد الرسول بولس إن إعلان هذا السر وكشفه هو سبب الجسارة أو الجرأة التي يتمتع بها المسيحي: "أنير الجميع فيما هو تدبير السر المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع.. لكي يُعرف الآن.. بواسطة الكنيسة.. الذي به لنا جرأة وقدوم بإيمانه عن ثقة" (أفسس ٣: ١٢). وإعلان هذا السر هو سبب الجرأة والثقة، وجاء نفس المعنى أيضاً في كولوسي ٢: ١٥ عن صراع الرب ضد الشياطين والرؤساء على الصليب: "إذ جرَّد الرياسات والسلاطين وأشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (الصليب)"، وهنا تم إشهار أو فضيحة القوات المضادة للصليب بكل جسارة وثقة، وقد تمسك الرسول بولس بهذا المعنى الأخير في رسالته إلى العبرانيين حيث استخدم الكلمة لتأكيد الثقة في

المسيح: "لأننا بالنعمة أبناء الله" (عبرانيين ٣: ٦)، و"لأن المسيح هو رئيس كهنة كنيسته وهو قادر على أن يرثي لضعفاتنا فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة" (عبرانيين ٤: ١٦). وموت المسيح على الصليب هو سبب ثقتنا في الدخول إلى ملكوت الآب: "لنا ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع.." (عبرانيين ١٠: ١٩).

+ في رسالة يوحنا الأولى ينتقل معنى (باريسيا) إلى الثقة والجرأة كشيء أساسي في الحياة المسيحية نفسها؛ لأن الثبات في المسيح هو سبب الثقة "ولا نخجل منه في مجيئه" (١ يو ٢: ٢٨)، بل طهارة القلب هي سبب الثقة في الله (٣: ٢١ – قارن ٤: ١٧). ويؤكد يوحنا: "وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنه مهما طلبنا حسب مشيئته يسمع لنا" (٥: ١٤)، وهذا النص الأخير يهمنا جداً؛ لأنه أحد الدعائم التي يرتكز عليها استعمال كلمة دالة في الخولاجي.

معاني الكلمة في صلوات الخولاجي:

١- من الواضح أن نهاية صلاة القسمة هي مقدمة للصلاة العظيمة: "أبانا الذي.."، وهي الصلاة التي لا تقال سراً، بل جهراً، فهي كما هو واضح، ليست صلاة فرد واحد، بل صلاة الجماعة المسيحية. هنا الجسارة أو الدالة هي جسارة الجماعة.

٢- إن العهد الجديد يؤكد أن الاعتراف بالله كآب سماوي هو عمل الروح القدس "بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبّا[1] αββα الآب" (غلاطية ٤: ٦)، ولذلك فالمجاهرة بالصلاة الربانية هي عمل الروح القدس في الجماعة، ولعل مراجعة مقدمة الصلاة الربانية يؤكد هذا: "بقلبٍ طاهرٍ، (١ يوحنا ٣: ٢١)، ونفسٍ مستنيرةٍ، أي مملوءة بالروح القدس (عبرانيين ٦: ٣)، ووجهٍ غير مخزي (راجع كل

([1]) النص اليوناني αββα أي (أبّا) وهي الكلمة التي ينطقها الأطفال في فلسطين بالآرامية لنداء الأب. وقد دخلت الكلمة الآرامية اللغة اليونانية ثم حرفت في العربية القبطية أي العربية المصرية إلى كلمة (أنبا).

نصوص الرسالة إلى العبرانيين عن الثقة)، ومحبةٍ كاملة (١ يوحنا ٤: ١٧)، ورجاءٍ ثابت (أفسس ٣: ١٢)". كل هذا يجعل لدينا الجسارة أو الباريسيا لكي نخاطب الأب السماوي (كأبينا).

الصلاة الربانية في الكنيسة الأولى كانت محرَّمة على الموعوظين. كان الموعوظ يسمعها ويحفظها في الأسبوع الأخير من الصوم الكبير قبل معموديته التي كانت تتم ليلة عيد الفصح، أي عيد القيامة (التقليد الرسولي للقديس هيبوليتوس – قوانين الآباء الرسل.) وكان يصلِّيها لأول مرة مع الجماعة بعد المعمودية.

هل هناك علاقة بين صلاة القسمة، وصلاة أبانا الذي في السموات؟

إذا كانت الصلاة الربانية تحتل صدارة كل صلواتنا، وهي بداية خدمة القداس، وبداية رفع بخور باكر وعشية، وكل صلاة من صلوات السواعي السبع، فما هي العلاقة بين هذه الصلاة، وصلاة القسمة في القداس؟ لماذا تأتي في نهاية صلاة القسمة؟

من المؤكد أن صلاة القسمة هي صلوات فريدة، انفرد بها الطقس القبطي وحده دون سائر الطقوس الأخرى. والشروح التي قُدِّمت في هذا المجال عديدة، غير أن شرحاً واحداً يُعد أساسياً بالنسبة لنا، وهو استقرار معنى الطلبة المعروفة في الصلاة الربانية: "خبزنا الذي للغد" كطلبٍ مقدمٍ من الجماعة سائلين الرب خبز الغد، أي خبز القيامة أو الإفخارستيا (يوحنا ٦: ٣٥ – ٥٦). وقد شاع هذا في مصر منذ العلَّامة أوريجينوس، وأصبح من المؤكد أن الصلاة الربانية بعد القسمة هي صلاة إفخارستية من الدرجة الأولى. ويمكننا أن نتحقق من هذا إذا تذكرنا أن صلاة القسمة هي طقس مصري فريد لا مثيل له في الطقوس القديمة على وجه الإطلاق، فكل الكنائس لا تصلي أثناء تقسيم الجسد ما عدا الكنيسة القبطية – التي لا تسمح طقوسها بلمس جسد الرب ودمه إلَّا بطريقة (كرازية) – وهو ما سجَّله أحد آباء القرن الثالث عشر في عبارة موجزة جداً:

"كل مرة يلمس الكاهن الأسرار المحيية، يقول الكلام الخلاصي المناسب". وكأننا هنا نعبِّر عن الروح القبطية المتأصِّلة في تقوى يسوع المسيح. ونقول إن تقسيم الجسد لا يتم في صمت. إنه مرتبط بإعلانٍ عن حياة المسيح وموته وقيامته. ولعل انفراد الطقس القبطي بصلاة قسمة مناسِبة للأعياد، هو تأكيدٌ شديد على ارتباط معاني الأعياد السيدية والشهداء.. الخ. بمعنى توزيع الجسد الإلهي؛ لأن هذا الجسد هو أساس الاحتفال بكل هذه المناسبات الروحية، وهذا الجسد أيضاً هو سبب الثقة والجسارة أو الدالة في المجاهرة والاعتراف بأننا أبناء الآب السماوي في يسوع المسيح ربنا، الذي في جسده ودمه نتقدم بثقة للعرش السماوي سائلين حسب مشيئته أن يمنحنا خبز الغد الذي بدونه لا غَدَّ لنا.

الفصل الثاني

الحَمَل[١]

تمهيد:

من أجمل ألقاب المسيح: "حمل الله الذي يرفع خطية العالم كله" (يوحنا ١: ٢٩ و ٣٦). ومما لا شك فيه أن هذه العبارة هي إشارة طقسية دقيقة، ذلك أنها دون شك تستند على النص المشهور (لأشعياء ٥٣: ٧). هكذا يفسِّر القديس كيرلس عامود الدين نص يوحنا ١: ٢٩ و ٣٦، فيقول:

> "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم كله، وهو الذي قال عنه أشعياء: "مثل حمل سيق للذبح ومثل نعجة صامتة أمام الذي يجز شعرها". وهو الذي رمز إليه ناموس موسى وخَلَّصَ جُزئياً؛ لأن الرحمة لم تشمل كل الجنس البشري في عهد الناموس؛ لأن الناموس كان رمزاً وظلا، والذي تحدثت عنه الأسفار قديماً بطريقة معتمة هو ذاته نَفْس الحمل – الذبيحة التي بلا عيب، يُقاد للذبح من أجل الكل حتى ما ينزع خطية العالم، ويمزق ويحطم الموت، وإذا

---

(١) مجلة مرقس – يناير ١٩٧٥ ص ٢٨ إلى ص ٣٣.

> مات من أجل الجميع يجعل الموت كلا شيء، وينزع اللعنة التي لصقت بنا، وهي "تراب أنت وإلى التراب ستعود" (تكوين ٣: ١٩)، ولذلك هو آدم الثاني، وليس من تراب الأرض (١ كورنثوس ١٥: ٤٧)، بل "من السماء" الذي أصبح "بداية" كل الصلاح بالنسبة لكل البشر.. (تفسير يوحنا الكتاب الثاني ١ – ٣٠).

ونص أشعياء لا يوضِّح فقط العمل الخلاصي الذي سيقوم به الرب لأجلنا عندما يُذبح، بل هو بلا شك مرتبطٌ بنصوصٍ أخرى هامة، أي تلك الخاصة بخروف الفصح، ففي كل الخولاجيات القبطية مهما كان تاريخها، يؤكِّد الخولاجي أن خبز التقدمة يجب أن يكون بلا عيب لأنه مكتوبٌ عن خروف الفصح أن يكون حملاً حولياً لا عيب فيه (خروج ١٢: ٥ – لاويين ٢٢: ١٧ و ٢٥)، وهو سبب وقوف الكاهن طويلاً أمام المذبح، وفي مواجهة الشعب ليختار أفضل قربانة في القربان المقدَّم إليه.

القداس هو الفصح الجديد الذي يُقَدَّم فيه "حمل الله"، ولذلك تنتقل كل النصوص الخاصة بخروف الفصح في العهد القديم لِتُطَبَّق على طريقة اختيار الخبز الذي يُصبح – سرياً وبطريقة المسيح – هو نفسه حمل الله وخبز الحياة.

وبداية القداس الشرقي هي اختيار الحمل، ولم يعرف الغرب اللاتيني هذا العمق الفصحي إلَّا في القرن الثامن أيام حبرية أسقف روما سرجيوس الأول، وهو سرياني الأصل حمل معه إلى روما التراث الشرقي، وأعاد الحياة إلى القداس الروماني بالعناصر الشرقية الفصحية التي غابت تحت أكوام القوانين(١).

---

(1) J. A. Jungmann “The Mass of the Roman Rite” II p. 332 - 340

الحَمَل وترتيب أجزاء القداس

سوف ندرس فيما بعد كلمة "الذبيحة" في القداس القبطي، ولذلك لن نتعرض لِمَا في هذه الكلمة من معاني أساسية جداً بالنسبة للطقس. ولكن إذا كانت دورة الحمل هي بداية القداس = اختيار الذبيحة، فإن نهاية القداس هي تقسيم الذبيحة وتوزيع الذبيحة على المؤمنين. وهذا يوضِّح لنا إلى أي درجة تُعد كلمة "حَمَل" أساسية في فهم البناء الطقسي واللاهوتي في القداس[١] وإلى أي درجة تُعَد كل إشارات الكتاب المقدس بعهديه عن خروف الفصح، لازمة وأساسية في فهم كيف بُني القداس القبطي على أساس كتابي ثابت.

دورة الحَمَل.. ماذا تعني؟

لم نعثر على الأصل القبطي لكلمة "دورة"، ومن الخطأ اعتماد أي شرح يقدِّم لنا معتمداً على الكلمة العربية التي لا تظهر في الخولاجيات قبل القرن الثالث عشر. ومع ضياع الكلمة الأصلية قبطية كانت أم يونانية، يمكننا أن ندرك معنى "الدورة" من الحركات الطقسية والكلمات التي تصاحبها.

لقد استقر في التقليد غير المكتوب أن تكون الخبزات المقدَّمة هي ١ – ٣ – ٥ – ٧ – ٩ – ١٢ ولعل أول من شرح هذا هو العالم الجليل ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين (إذا صحت نسبة كتاب: الثالث في خدمة الكهنوت إلى هذا العالِم الجليل)، ثم

---

(١) في اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي لم تظهر بالمرة أي تفرقة بين اللاهوت العقيدي واللاهوت الطقسي ولم تظهر كلمة "اللاهوت الطقسي" في المؤلفات اللاهوتية القبطية قبل القرن العشرين؛ لذلك ربما كان من الأفضل التمسك بالروح الأصلية للأرثوذكسية الشرقية، وهي حذف التقاسيم بين فروع علم اللاهوت؛ لأن هذا وحده يُبقي على الوحدة الروحية للعقيدة والطقس. وعندما يدرس اللاهوت العقيدي بدون اللاهوت الطقسي يصبح اللاهوت الطقسي عسير الفهم، بل بلا معنى. وعندما نتحدث عن الطقس، فإننا نتحدث عنه لاهوتياً، وعندما نتحدث عن اللاهوت يلزمنا أن نتحدث عنه طقسياً حتى لا يصبح اللاهوت موضوعات مجردة كامنة في عقل المصلين وطلاب اللاهوت. اللاهوت بكل ما فيه ينتقل إلى الواقع المادي من خلال الطقس، أي أن "**الطقس هو جسد العقيدة**".

مِن بَعدِهِ القس زكريا ابن سباع كاهن المعلقة في القرن الثالث عشر، ومن بعده عدة كُتَّاب عبر العصور، حتى أستاذنا الفاضل القس منقريوس عوض الله. لكن ما معنى هذه الأرقام؟ ولماذا ترتبط باختيار الخبز للتقدمة؟ من المؤكد أن الأرقام كلها مرتبطة بعدة نواحي أساسية في العهدين. رقم (١) ذبيحة المسيح الواحدة التي لا تتكرر، ولذلك حذفت الكنيسة رقم (٢)، ورقم (ثلاثة) هو بلا شك إشارة للثالوث واشتراك الثالوث في خلاص الكنيسة لأن ذبيحة المسيح مقدَّمة عنَّا لله الآب بالروح القدس (عبرانيين ٩ :١٤). ورقم (٥) هو بلا شك الذبائح الأربعة الرئيسية في العهد القديم مضافاً إليها ذبيحة خروف الفصح[١] ورقم ٧ - ٩ حسب شرح علماء الطقس هو الذبائح المقبولة التي قُدِّمت عبر عصور العهد القديم من ذبيحة آدم - هابيل - نوح - إبراهيم - ملكيصادق - موسى - يشوع - صموئيل - زكريا (أبو يوحنا)، وليس من العسير أن ندرك لماذا اختير رقم (١٢)، فهو رمز للرسل الذين بواسطة كرازتهم بالمسيح صرنا نقرِّب هذه القرابين لله.

هكذا يمكننا أن ندرك أن المعنى الأصيل لكلمة "دورة"، ربما هو الذبائح المقدمة في العهد القديم والتي انتهت فاعليتها كلها بذبيحة المسيح، ولعل اختيار القربانة من وسط القربان الآخر يؤكد حقيقة انتماء المسيح للإنسانية التي شاركت - رمزياً - في تقديم ذبائح والتي منها، أي الإنسانية قدَّم المسيح جسده، الذبيحة التي كانت كل الرموز تتضمن إشارات مبهمة غامضة عنها، إلى أن جاءت الذبيحة الكاملة: المسيح.

وتشرح لنا كلمات الصلوات العلاقة بين العمل الرمزي السري والصلاة نفسها، فهي بلا شك تبدأ بمزمور ٢٩[٢] وهو أحد المزامير الأساسية الذي كان يرتَّل في "يوم

---

(1) Roland De Vaux “Studies in O. T. Sacrifice” 1964.

وللشرح الروحي للذبائح راجع كتاب "الكنيسة الخالدة" الطبعة الثانية للقمص متى المسكين ص ٣٢ - ٥٦.

(٢) "قَدِّمُوا لِلرَّبِّ يَا أَبْنَاءَ اللهِ قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْداً وَعِزّاً. قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدَ اسْمِهِ. اسْجُدُوا لِلرَّبِّ فِي زِينَةٍ مُقَدَّسَةٍ. صَوْتُ الرَّبِّ عَلَى الْمِيَاهِ. إِلَهُ الْمَجْدِ أَرْعَدَ. الرَّبُّ فَوْقَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ. صَوْتُ الرَّبِّ بِالْقُوَّةِ. صَوْتُ الرَّبِّ بِالْجَلاَلِ. صَوْتُ الرَّبِّ

الكفارة"، وهو قطعة رائعة عن إعلان الله لبره العظيم للخطاة، والكاهن يرتل هذا المزمور وهو يرتدي ثياب الخدمة، ثم يعقبه مزمور ٧٢[١]، وهو أحد مزامير تتويج الملوك، وكان يرتَّل في عيد المظال، وهو أصلاً إعلان عن "مُلك يهوه" وسلطانه على كل الأشياء. هكذا في بر الله وفي قوة مجده وسلطانه كملكٍ، يستعد الكاهن وباقي الخدام للوقوف أمامه.

عندما يفحص الكاهن نفسه بما يعرف بصلاة الاستعداد، فهو يؤكد قداسة الله ورحمته من ناحية، وخطاياه هو (الكاهن) من ناحية أخرى، ويعود ويؤكد بعد ذلك في الصلاة التي تتبعها:

"أنت يا رب علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص.
أنت دعوتنا نحن عبيدك الأذلاء غير المستحقين لنكون خداماً لمذبحك.. أنت يا سيدنا اجعلنا أهلاً بقوة روحك القدوس أن نكمِّل هذه الخدمة... نقدم لك هذه الصعيدة.. أمنح يا رب أن تكون

مُكَسِّرُ الأَرْزِ وَيُكَسِّرُ الرَّبُّ أَرْزَ لُبْنَانَ. وَيُمْرِحُهَا مِثْلَ عِجْلٍ. لُبْنَانَ وَسِرْيُونَ مِثْلَ فَرِيرِ الْبَقَرِ الْوَحْشِيِّ. صَوْتُ الرَّبِّ يَقْدَحُ لُهُبَ نَارٍ. صَوْتُ الرَّبِّ يُزَلْزِلُ الْبَرِّيَّةَ. يُزَلْزِلُ الرَّبُّ بَرِيَّةَ قَادِشَ. صَوْتُ الرَّبِّ يُوَلِّدُ الإِيَّلَ وَيَكْشِفُ الْوُعُورَ وَفِي هَيْكَلِهِ الْكُلُّ قَائِلٌ: مَجْدٌ. الرَّبُّ بِالطُّوفَانِ جَلَسَ وَيَجْلِسُ الرَّبُّ مَلِكاً إِلَى الأَبَدِ. الرَّبُّ يُعْطِي عِزّاً لِشَعْبِهِ. الرَّبُّ يُبَارِكُ شَعْبَهُ بِالسَّلاَمِ".

(١) "اَللهُمَّ أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ وَبِرَّكَ لاِبْنِ الْمَلِكِ. يَدِينُ شَعْبَكَ بِالْعَدْلِ وَمَسَاكِينَكَ بِالْحَقِّ. تَحْمِلُ الْجِبَالُ سَلاَماً لِلشَّعْبِ وَالآكَامُ بِالْبِرِّ. يَقْضِي لِمَسَاكِينِ الشَّعْبِ. يُخَلِّصُ بَنِي الْبَائِسِينَ وَيَسْحَقُ الظَّالِمَ. يَخْشُونَكَ مَا دَامَتِ الشَّمْسُ وَقُدَّامَ الْقَمَرِ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. يَنْزِلُ مِثْلَ الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ وَمِثْلَ الْغُيُوثِ الذَّارِفَةِ عَلَى الأَرْضِ. يُشْرِقُ فِي أَيَّامِهِ الصِّدِّيقُ وَكَثْرَةُ السَّلاَمِ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ الْقَمَرُ. وَيَمْلِكُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ. أَمَامَهُ تَجْثُو أَهْلُ الْبَرِّيَّةِ وَأَعْدَاؤُهُ يَلْحَسُونَ التُّرَابَ. مُلُوكُ تَرْشِيشَ وَالْجَزَائِرِ يُرْسِلُونَ تَقْدِمَةً. مُلُوكُ شَبَا وَسَبَأٍ يُقَدِّمُونَ هَدِيَّةً. وَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ الْمُلُوكِ. كُلُّ الأُمَمِ تَتَعَبَّدُ لَهُ. لأَنَّهُ يُنَجِّي الْفَقِيرَ الْمُسْتَغِيثَ وَالْمِسْكِينَ إِذْ لاَ مُعِينَ لَهُ. يُشْفِقُ عَلَى الْمِسْكِينِ وَالْبَائِسِ وَيُخَلِّصُ أَنْفُسَ الْفُقَرَاءِ. مِنَ الظُّلْمِ وَالْخَطْفِ يَفْدِي أَنْفُسَهُمْ وَيُكْرَمُ دَمُهُمْ فِي عَيْنَيْهِ. وَيَعِيشُ وَيُعْطِيهِ مِنْ ذَهَبِ شَبَا. وَيُصَلِّي لأَجْلِهِ دَائِماً. الْيَوْمَ كُلَّهُ يُبَارِكُهُ. تَكُونُ حُفْنَةُ بُرٍّ فِي الأَرْضِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ. تَتَمَايَلُ مِثْلَ لُبْنَانَ ثَمَرَتُهَا وَيُزْهِرُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ مِثْلَ عُشْبِ الأَرْضِ. يَكُونُ اسْمُهُ إِلَى الدَّهْرِ. قُدَّامَ الشَّمْسِ يَمْتَدُّ اسْمُهُ. وَيَتَبَارَكُونَ بِهِ. كُلُّ أُمَمِ الأَرْضِ يُطَوِّبُونَهُ. مُبَارَكٌ الرَّبُّ اللهُ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ الصَّانِعُ الْعَجَائِبَ وَحْدَهُ. وَمُبَارَكٌ اسْمُ مَجْدِهِ إِلَى الدَّهْرِ وَلْتَمْتَلِئِ الأَرْضُ كُلُّهَا مِنْ مَجْدِهِ. آمِينَ ثُمَّ آمِينَ".

ذبيحتنا مقبولة أمامك عن خطاياي وجهالات شعبك ولأنها طاهرة
كموهبة روحك القدوس..".

ولعل هذه الصلاة من أفضل النصوص التي تشرح لنا العلاقة بين ما تقوم به الكنيسة وما قام به المسيح، فهي تؤكد أن الخدمة هي للرب، وأنها تُقَدَّم بقوة الروح القدس، ثم يظهر بكل وضوح أن ما تقدِّمه الكنيسة هو الذبيحة الطاهرة التي مثل موهبة الروح القدس. وهذا هو سبب قبول الذبيحة.

وعندما نتحدث تفصيلياً عن "الذبيحة" سوف نكتشف أن العلاقة بين ما تقدمه الكنيسة، وما قدَّمه المسيح هو ذات الفعل الواحد، أو بعبارة القديس ايسيذوروس البيلوسي: "لقد قدم الرب جسده، ثم أوصانا بالقيام بالتذكار مدة غربة الكنيسة على الأرض" (رسالة ٧٣: ٣). وفي هذا يكمن معنى "الذكرى: اصنعوا هذا لذكري"، ولذلك تقدم الكنيسة الصعيدة وهي تعرف أنها تقدم ليس ما يخصها، بل ما يخص المسيح: "نقرب لك قرابينك من الذي لك على كل حال ومن أجل كل حال وفي كل حال".

ومن الواضح أن الذبيحة أو الحمل تختاره الكنيسة حسب وصية الرب في الكتاب المقدس، ويُقَدَّم على المذبح ليتحقق عمل المسيح، أو بالحري ليظهر لنا سر المسيح مُعلَناً في هذا السر العظيم.

ومما لا شك فيه أن "دورة الحمل" هي فحصٌ داخليٌ شاقٌ لمن يعرف قداسة الله، ويقارنها مع خطاياه الخاصة، ولذلك ليس عبثاً أن تضع الكنيسة ذبائح العهد القديم في دورة الحمل، أو الأبرار الذين قدَّموا ذبائح مقبولة لدى الله؛ لأنها تدرك بكل يقين حاجة الكنيسة المتزايدة إلى أن تجوز – قبل كل قداس – مرحلة فحص القلب أو الاستعداد، وحتى لا يكون القداس كله دينونة عادلة ويتم الحكم الرسولي: "من أجل ذلك فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون، لأننا لو كنا قد حكمنا على أنفسنا لما حُكِمَ علينا" (١ كورنثوس ١١: ٣٠–٣١). ولعل الكنيسة تكون قد أدركت أن مرحلة الفحص سوف تكون مرعبة وقاسية. إن الذبيحة والحمل هو للدينونة والعقاب

بالنسبة لمن يرفض بره وخلاصه، ولذلك نرتل كلنا: "يا رب ارحم" ٤١ مرة .. جلدات المسيح .. هنا نعود مرة ثانية إلى أشعياء ٥٣ عن الحَمَل وجلداته التي جاءت لنا بالشفاء. وربما اكتشفنا في المستقبل أن يا رب ارحم ٤١ مرة هي أصلاً من ترتيب القداس ونقلت إلى صلوات السواعي بعد ذلك.

الحَمَل والقربان:

كلمة "قربان" شائعة في العبرانية والآرامية ودخلت اليونانية وغيرها من اللغات. في العهد القديم استخدمت في لاويين ٢ حيث ارتبطت الكلمة بالتقدمة المشهورة "خبز الوجوه – الدقيق والزيت"[(١)] ولم تُستَخدم كلمة قربان بالمرة "للذبائح الدموية". ولعل التداخل "اللاهوتي – الطقسي" أساسيٌ هنا، ذلك أن ذبيحة المسيح هي جسده ودمه الذي كُسِرَ وسُفِكَ على الصليب، لكن في الكنيسة تأكيدٌ على معنى "الذبيحة غير الدموية"، ليس لمجرد التمييز بينها، وبين ذبائح العهد القديم الدموية، ولكن لتأكيد سرية الذبيحة، ذلك أن الذي على المذبح هو فعلاً جسدٌ لا يُرى ودمٌ لا يُرى هو الذي يظهره لنا الروح القدس عندما يحل على الذبيحة أو على القربان ليصبح الخبز والخمر جسد الرب ودمه.

> "نسألك يا رب إلهنا نحن عبيدك الخطاة غير المستحقين..
> ليحل علينا روحك القدوس وعلى هذه القرابين الموضوعة ويطهرها
> وينقلها ويظهرها قدساً لقديسيك".

هنا تقف كل الأفكار البشرية عاجزةٌ عن إدراك أو تفسير ما يحدث وفقاً لمقاييس الفكر البشري، ولذلك، فإن إدراك جسد المسيح ودمه على المذبح هو عمل الروح القدس في نفوس المؤمنين، وهذا هو سبب استدعاء الروح القدس ليحل على جماعة

---

(١) راجع الكنيسة الخالدة ص ٤٠.

الرب قبل أن يحل على القرابين، وهذا في منتهى الأهمية لأن إدراك الإنسان لعمل الله يسبقه دائماً عمل الروح القدس في إنارة العقل والقلب.

يمكننا أن نقول إن ارتباط كلمة "الحَمَل" بكلمة "القربان" هو ارتباطٌ أساسي؛ لأنه تأكيد على سرية التقدمة وانعدام كل الأشكال الطبيعية المرافقة للجسد والدم "هوذا حمل الله .. هوذا كائن معنا اليوم عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم كله.. (قسمة أعياد الملائكة)، ولكنه بدون شك حملٌ وقربان.

الفصل الثالث

الذبيحة (١)[1]

لا يمكن فصل الحَمَل عن الذبيحة، كلاهما يعبِّران عن حقيقة واحدة، وهي تقديم يسوع المسيح لنفسه عن خطايا الإنسانية بأسرها "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا ١: ٢٩).

وحينما ذَكَرَ العهد الجديد "الحَمَل"، ذَكَرَ "الذبْح"، أو الدم: "عالمين أنكم افتُديتم.. بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم" (١ بطرس ١: ١٨ – ١٩). كذلك كلما ذَكَرَ العهد الجديد الدم، أشار إلى "الحَمَل" صراحةً أو ضمناً (راجع رؤيا ٥: ٦ – ١١)، وليس هناك إشارةً واحدةً إلى دم المسيح لم يَذكُر فيها العهد الجديد "الذبح" أو "الحَمَل". كان من الممكن أن يختصر سفر الرؤيا في الكلام عن سفر حياة "الحَمَل"، ولكنه يؤكد "سفر حياة الحَمَل الذي ذُبِح" (رؤ ١٣: ٨).

وكلما تحدَّث العهد الجديد عن الفداء بالدم "الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا" (كولوسي ١: ٢٤)، أو تحدث عن سفك الدم.. الخ، هذه كلها تعبيرات مأخوذة من العهد القديم، مشتقة من الأفعال الخاصة بتقديم الذبائح (راجع رومية ٣:

---

[1] مجلة مرقس – مارس ١٩٧٥ ص ٢١ إلى ص ٢٤.

٢٥ – ٥: ٩ وأفسس ١: ٧ – ٢: ١٣ وكولوسي ١: ٢٠ و ١ بطرس ١: ٢ – ١: ١٩). ويمكن إدراك هذه الحقيقة الواضحة من مراجعة كلمة "الدم" في الرسالة إلى العبرانيين، حيث يظهر بكل جلاء أن الحديث عن "دم يسوع" دائماً يجيء كمقابل للحديث عن دم ذبائح العهد القديم التي أُبطِلَتْ في يسوع المسيح (عبرانيين ٩: ١٢، ١٤، ٢٥، ١٢: ٢٤، ١٣: ١٢، ١٣: ٢٠)؛ لأنه هو الذبيح الأعظم.

هناك ثلاثة نصوص فقط في العهد الجديد في رسالة يوحنا الأولى (١: ٧ و ٥: ٦ و ٥: ٨) لم يستخدم فيها الرسول يوحنا أي فعل من أفعال العهد القديم عن الذبح أو التقديم أو الفداء، ولكنه كان يشير صراحة إلى موت المسيح على الصليب.

من الأخطاء الشائعة في الكنيسة القبطية حالياً الحديث عن "دم المسيح" كأهم عنصر في الفداء، وهو خطأٌ في التعبير، ذلك أن العهد الجديد يؤكد أن المسيح بشخصه هو قوة الخلاص والفداء وليس دمه وحده – أو جسده وحده – كما لو كان الدم منفصلاً عن شخص المسيح. صحيح أن الرسول بولس يقول: "بدمه غفران الخطايا"، لكن وضع هذه العبارة بشكل مبتور يفقدها قوتها؛ لأن الرسول يقول: "الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا"، وكلمة فداء كما سندرس بعد ذلك مرتبطة بالخروج من أرض مصر وبخروف الفصح وبذبائح العهد القديم.

الدم يعني الحياة أو الشخص نفسه:

يمكننا أن نؤكد أن الدم = الشخص = الحياة. إذا درسنا بعناية هذه النصوص – لاحظ هذا التعبير "تريدون أن تجلبوا دم هذا الإنسان علينا" (أعمال ٥: ٢٨)، وإذا قارننا هذا التعبير: "أرجلهم سريعة إلى سفك الدم" (رومية ٣: ١٥)، تأكدنا هنا أن الحديث ليس عن ذلك السائل الأحمر الذي يجري في العروق، وإنما عن جريمة القتل التي تظهر معالمها بوضوح عندما يُسفَك الدم. الدمُ هو الحياة، ولذلك يقول الرسول بولس لليهود بعدما قاوموه: "دمكم على رؤوسكم. أنا بريئ" (أعمال ١٨: ٦)، أي أنتم

مسئولون عن موتكم الأبدي، أو أن مسئولية حياتكم بيديكم.

والدم مثل الجسد، يعني الأشخاص أو البشر. لاحظ قوة التعبير: "لم أستشر لحماً ودماً" (غلاطية ١: ١٦)، وهو ذات تعبير الرسول يوحنا: "الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد" (يوحنا ١: ١٣)، وهو ذات تعبير الرب يسوع نفسه: "طوباك يا سمعان.. إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات" (متى ١٦: ١٧). هنا الكلام عن الناس، فبولس لم يستشر أياً من الناس، والولادة الجديدة لا تتم بإرادة الناس، كما أن الذي أعلن لاهوت الابن لسمعان بطرس ليس الناس، بل الآب السماوي.

الجسد يعني الحياة أو الشخص نفسه:

وما قلناه عن الدم ينطبق تماماً على الجسد. فالإنسان كله يسمى أحياناً "الجسد". ولعل أشهر النصوص هي "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤) أي صار إنساناً. وعلى الرغم من أن العهد الجديد استخدم كلمتين مختلفتين هما جسد σωμα ولحم σαρξ وفي الانجليزية *Body* و *Flesh* إلَّا أن العهد الجديد يتحدث دائماً عن الجسد أو اللحم = الإنسان. لاحظ أن الرسول بولس، مثل يوحنا يتحدث عن التجسد: "مبطلاً بجسده ناموس الوصايا.. يصالح الاثنين في جسد واحد" (كولوسي ١: ٢١ – ٢٢). من الواضح أن هذه النصوص تتحدث عن الجسد أو جسم البشرية أي الطبيعة الإنسانية أو الجزء المنظور من الإنسان. ويمكننا أن نتأكد من أن الحديث عن الجسد أو اللحم، يعني الإنسان نفسه دون وجود أي نوع من الثنائية *Dualism* الأفلاطونية التي تميِّز بين النفس والروح والجسد. لاحظ ما يقوله الرسول بولس: "يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه". هنا كلمة جسد = ذات الإنسان أو كيانه كله (أفسس ٥: ٢٨). بالطبع يدعِّم هذا ما يقوله الرسول بولس: "لم يكن لجسدنا شيء من الراحة، بل كنا مكتئبين في كل شيء من خارج خصومات..." (٢ كورنثوس ٧: ٥)، فالرسول يتحدث عن الحياة أو عن ذاته أو عن شخصه. يدعِّم هذا ما يقوله الرسول أيضاً: "أُكمِّل نقائص شدائد المسيح في جسمي *my flesh*" (١

كورنثوس ١: ٢٤)، أي في شخصي. ولعل هذا النص واضح جداً: "لأنه فيَّ أي في جسدي لا يسكن شيء صالح" (رومية ٧: ١٨). *In me, that is in my flesh*.

بالطبع الحديث عن الرجل والمرأة كشخصٍ واحدٍ، هو ما يعنيه الكتاب المقدس بقوله: "ويكون الاثنان جسداً واحداً". هنا كلمة جسد هي "بَسَر" العبرانية = "بَشَر" في العربية، وفي السبعينية والعهد الجديد هي σαρξ أي لحم *flesh (and they shall be one flesh)* راجع تكوين ٢: ٢٤ – متى ١٩: ٥ – مرقس ١٠: ٨). وبالطبع نحن لا نرى في الزواج لحماً واحداً هو مزيجٌ من لحم الزوج والزوجة، بل نرى شخصاً واحداً.

"ويبصر كل جسد *all flesh* خلاص الله" (لوقا ٣: ٦) أي كل إنسان، أو كل البشر. كذلك "أسكب من روحي على كل جسد *all flesh*" (أعمال ٢: ١٧). وبالطبع إن سكب الروح القدس ليس على اللحم فقط دون الروح البشرية، أو "بأعمال الناموس لا يتبرر كل جسد أمامه" (رومية ٣: ٢٠ أضافت الترجمة البروتستانتية "ذي جسد") وهذا النص تماماً مثل ١ كورنثوس ١: ٢٩ "لكي لا يفتخر كل جسد أمامه" أي لا يفتخر أي بشر[1].

وأحياناً كلمة جسد تعني الجسد نفسه، وليس كل الإنسان مثل: "ولكنكم تعلمون أني بضعف الجسد.. وتجربتي في جسدي" (غلاطية ٤: ١٣ – ١٤)، أو "أُعطيت شوكة في الجسد" أي في أعضائه (٢ كورنثوس ١٢: ٧).

وتستعمل كلمة "الجسد" لتعني الظاهر أو المنظور باعتبار أنه شيء مختلف عن

---

(١) بالطبع هناك نصوص أخرى تظهر فيها كلمة "**لحم**" وهي تعني فعلاً أعضاء الجسد مثل رومية ٢: ٢٨ "**لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهودياً ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً**" هنا العضو الذي تم فيه الختان هو المقصود بكلمة "**لحم**" أو "**حسن أن لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً**" (رومية ١٤: ٢١) ومثلها (١ كورنثوس ٨: ١٣).

غير المنظور: "لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهودياً ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي" (رومية ٢: ٢٨). كذلك "أنتم الأمم قبلاً في الجسد"، أي الظاهرين كأمم بسبب عدم وجود الختان (أفسس ٢: ١١). الجسد هو الظاهر (رومية ٢: ٢٨) أو "الإنسان الخارجي" (٢ كورنثوس ٤: ١٦) المختلف تماماً عن "القلب" أو "الإنسان الداخلي" (٢ كورنثوس ٥: ١٢). وهنا يوجد فرق أساسي بين لاهوت الكتاب والفكر السامي *Sametic* وبين الفلسفة اليونانية وبالذات الأفلاطونية والأفلاطونية المحدَثَة. ذلك أن الكتاب المقدس لا يميِّز بين الروح والجسد باعتبار أن الروح في سجن هو الجسد، أو أن الروح نقيض للجسد، بل باعتبار أن الجسد هو الإنسان كله كمنظور ومرئي. ولعل القارئ لاحظ "لم أستشر لحماً ودماً" (غلاطية ١: ١٦)، "لم أحصل على مشورة بشر" (رومية ٣: ٢٠ - غلاطية ٢: ١٦ - ١ كورنثوس ١: ٢٩). وحتى الحديث عن "أجسادكم الميتة" (٢ كورنثوس ٤: ١١) تعني نحن كموتى - أو "بسبب ضعف أجسادكم" (رومية ٦: ١٩) = ضعفكم كبشر.

وكلما تحدث الكتاب بعهديه عن الإنسان كلحم *as flesh* فهو يعني بكل تأكيد أن ما يحدث للحم أو الدم هو شيء منظور يحدث في الواقع (المادي) الملموس.

ذبيحة الجسد والدم:

+ إذا صحَّ تفسير النصوص السابقة، فإن فهمنا للصليب والقيامة ثم للإفخارستيا يجب أن يتغيَّر من الفهم المادي اللاشخصي الذي يرى في "جسد المسيح" مجرد لحم، أو في "دم المسيح" مجرد سائل أحمر سال على الصليب. يجب أن نحذف من عقولنا الحضور الطبيعي، أي اللحم والدم، وأن نرتفع إلى شخص المسيح الذي أعطانا جسده ودمه.

+ كذلك نحن لا نأكل جسداً ودماً كما نأكل لحماً مع الخضروات، بل نأكل لكي نتحد بشخص المسيح في جسده ودمه.

+ ويجب أن يتغيَّر فهمنا لموت المسيح على الصليب، فهو موتٌ حقيقي حدث على عهد بيلاطس البنطي ولكنه لم يكن مجرد موت جسدٍ، بل عملاً عظيماً قام به شخص.

وفي ضوء ما ذكرنا يجب أن ندرس كلمتي "الفداء - الكفارة"[١].

(١) راجع دراستنا الموسَّعة لهاتين الكلمتين، كتابنا: موت المسيح على الصليب، ص ١٨٧ - ٢٤٩، منشور على موقع www.coptology.com

الفصل الرابع

الذبيحة (٢)[١]

من المشاكل اللاهوتية المعروفة منذ حركة الإصلاح البروتستانتية، والجدل الذي أثارته مع الكنيسة الرومانية هو علاقة ما يحدث في القداس بما حدث على الصليب. وأي صياغة لهذا السؤال تعتمد أساساً على منطلقاتٍ فلسفية وفهمٍ معيَّنٍ لدور "ناسوت" المسيح في الخلاص، ثم طبيعة الاتحاد بين الناسوت واللاهوت في المسيح الواحد غير المنقسم إلى اثنين.

والتصورات الأساسية لدور "الناسوت" في الخلاص يمكن حصرها في اتجاهين أساسيين:

أولاً: هناك مَن يتصورون أن الناسوت مجرد أداة قامت بدور محدود وصل إلى قمته في الموت على الصليب. ولعله من المعروف أن الفرق الأساسي بين البروتستانتية والأرثوذكسية، هو أن الأولى تضع الصليب أساساً لكل شيء، بينما "العيد الكبير" والخلاص في كماله في الأرثوذكسية هو في القيامة بعد الصليب. والفرق هنا في الاتجاه الروحي بين الشرق الذي يرى في المسيح الإعلان الحي المستمر، وبين الغرب صاحب العقلية التجارية التي تحسب الربح والخسارة، ولذلك فالمسيحُ حَدَثٌ *Event*، واستمرار

---

(١) مجلة مرقس – إبريل ١٩٧٥ ص ٢٧ إلى ص ٣١.

هذا الحدث هو في ذاكرة الكنيسة. ولم يكن من الممكن أن ينشأ التفسير المنحرف للآية "اصنعوا هذا لذكري" إلَّا في مجتمع يجعل المنظور والمحسوس هو قاعدة الاختبار المطلقة التي يُقاس عليها كل شيء حتى علاقة الإنسان بالله المتجسد.

حقيقي أن المسيح مات مرةً واحدةً على الصليب، وليس له اضطرار مثل رؤساء الكهنة في العهد القديم أن يقدِّم ذبائح متعددة، وهذا هو لُب الرسالة إلى العبرانيين، وهو ما لا يمكن لمسيحي واحد عاقل أن ينكره ... ولكن ما معنى الذبيحة الواحدة؟ هل يعني هذا "كمال" الذبيحة وكفايتها، أم يعني أنها غابت تماماً عن الأنظار وأصبحت ذكرى في عقول المؤمنين؟ إن التفسير الغربي يكاد يقول لنا لقد مات يسوع وأصبح مجرد ذكرى! هو حيٌّ في عقولنا فقط ... وعندما ضاع المعنى الأصيل "للذكرى" سقطت فئات كثيرة في الغرب في خطية جحد لاهوت المسيح.

هل المسيحُ حاضرٌ في الكنيسة؟ حاضرٌ حتى وإن نسيناه، أو ضعفت محبتنا له. إذا كان الجواب بالإيجاب، فإن الحاضر في وسطنا ليس يسوع المعلَّق على الصليب فقط. بل يسوع بيت لحم، ومسيح الأردن، وذبيح الأقرانيون، والقائم المنتصر ... هذه كلها أحداث الخلاص التي تخص "الشخص الواحد" يسوع المسيح.

ثانياً: ويخطئ مَن يظن أن النسطورية ماتت وانتهت، وأياً كان الخلاف اليوم بين أساتذة تاريخ الكنيسة حول "نسطورية نسطور"، فإن هناك اتجاه عام في الكتب الغربية المعاصرة يُشكِّل عودةً ساخرةً إلى النسطورية أو إلى شبه نسطورية.. يسوع ليس إنساناً وصل إلى حالة اتحاد بالله الآب. الخلاص ليس الإنسان الصاعد إلى الله أو الناسوت الساعي للاتحاد باللاهوت. هذه خرافة نعرف جميعاً من الواقع أنها مستحيلة.

الخلاص هو نزول الله إلى الإنسان، هو اللاهوت الساعي للاتحاد بالناسوت، وهذا هو الفرق الضخم بين الشرق والغرب. والشرق يؤمن بالتجسد بنزول الله، والغرب يحاول جاهداً أن يؤلِّه الإنسان بقدرات الإنسان الخاصة بالحديث عن يسوع، وبالحرف الواحد باعتبار أنه إنسانٌ تميَّز بأن لديه "شعور بالله" ***Consciosness of God*** وأن

هذا ساعده على الحصول على علاقة ممتازة خاصة بالآب.

بالطبع ليس هناك مجال للحديث عن الثالوث[١]، إذا اعتمد الغربيون هذا التفسير. وإذا انتقلنا إلى موضوع الذبيحة، فإن الخط اللاهوتي الأساسي هو أن عمل الصليب انتهى، تحول إلى حدثٍ في الماضي؛ لأن الغرب مثل الإنسان الساقط، على يقينٍ من الموت، ولذلك يحتفل الغرب بشكل ضخم بميلاد المسيح، والجانب التجاري واضح، ثم ينتقل إلى موت المسيح وقيامته بهدوء.. والذين عاشوا في أوروبا وأمريكا يعرفون معنى هذه الكلمات. إن عيد القيامة يَعبُر دون أن يشعر به أحد (باستثناء الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية)، رغم أنه العيد الذي يعطي المعنى الحقيقي والإلهي للميلاد والموت.

وإذا انحصر الخلاص في موت المسيح على الصليب وأصبح الفداء كله قائماً على قدمٍ واحدٍ، وهو الصليب فقط دون القيامة.. فهل هناك مجال لكي ينشأ اعتقاد سليم صحيح بحضور الرب في الكنيسة بجسده ودمه؟ إن مثل هذا الحضور يستلزم اعتقاداً راسخاً بقيامة المسيح، ويصبح القداس هنا هو شركة في موت المسيح وقيامته.

اللاهوت الكاثوليكي في العصر الوسيط:

ولذلك لم ينشأ أيُ جدلٍ حول علاقة الإفخارستيا بما حدث على الصليب في الشرق، ولم يحدث هذا الجدل في الغرب إلَّا قبيل القرن السادس عشر، وعندما بدأ عصر النهضة، وبدأ كل شيء في أوروبا يهتز ... لقد عاشت الكنيسة ١٥٠٠ سنة دون أن تسأل هذا السؤال. وعندما طُرِحَ السؤال في عصر الإصلاح كانت هناك تفاسير متراكمة

---

[١] في كتب اللاهوت النظري المعاصرة لا يحتل موضوع الثالوث سوى شذرات. ويكفي أن تختار أي كتاب لاهوت صدر في ألمانيا عن العهد الجديد أو اللاهوت النظري Systematic أو العقيدي Dogmatic لتجد أن الروح القدس يشغل صفحة أو سطراً أو مجرد إشارة عابرة. وكلام كارل بارث K. Barth أو بول تليك P. Tillich عن الثالوث يعتمد على معطيات الفلسفة الوجودية وليس على تعليم الكتاب المقدس عن الثالوث كإعلان للخلاص.

حول الفداء شاعت في العصر الوسيط، وكان قادة حركة الإصلاح قد نفذ صبرهم ولم يعد لديهم قدرة على احتمال رؤية يسوع يُذبح في كل قداس. وعندما كانت أجراس الكنائس تدق بطريقة معينة كان الأتقياء يسجدون أو يرشمون علامة الصليب لأن المسيح نزل من السماء وجاء لكي يُذبح على المذبح بيد الكهنة. فإذا كانت حركة الإصلاح هي أصلاً موجهة لتقوى العصر الوسيط، أي أنها جاءت لتعصف بانحرافات لاهوتية، بات من الواضح اليوم أنها لم تكن مقصودة بالمرة، وجاءت حركة الإصلاح لتنفي كل ما في كنيسة العصر الوسيط ولعل نفي *Negation* الانحراف يكون أحياناً هو تأكيد عكس الانحراف أي الاتجاه المضاد تماماً.

ولذلك كان قوام حركة الإصلاح كما لخصه *Nichollas Ridley* و *Peter Martyer* ثم *Zwingli* بعد ذلك هو:

أ) عدم وجود كهنوت.

ب) عدم وجود ذبيحة في القداس.

ج) كفاية موت المسيح على الصليب ولا حاجة لموته ثانية.

كان لاهوت العصر الوسيط قد جعل من القداس:

أ) الكهنوت.

ب) العناصر اللازمة لتقديم الذبيحة.

ج) الصلوات الخاصة التي أقرتها الكنيسة.

فإذا ما اجتمع الكاهن + الخبز والخمر + الخولاجي، أمكن إقامة القداس.

التقليد الشرقي:

مما لا شك فيه أن التقليد الشرقي يقول عكس ذلك. إن الأرثوذكسية تقول: (أ) الكاهن. (ب) الشماس (ج) الشعب. هذه هي العناصر الثلاثة اللازمة لإقامة القداس. وكما نلاحظ أنها عناصر بشرية، أو هي الكنيسة الحية ... وليس لدينا في كتب اللاهوت الشرقي أي إشارات عن القداسات الخاصة، أو القداس الذي ينفرد به الكاهن وحده. ذلك أن القداس هو صلاة الكنيسة، لا يستطيع الكاهن أن يصليه وحده، بل لا تسمح له الكنيسة بذلك.

والشرق الذي يضع التواضع أساساً لكل العلاقات الكنسية، يجعل الكاهن يقف على باب الهيكل، ويطلب الإذن من الشعب بالصلاة في العبارة المعروفة: "أخطأت يا آبائي وإخوتي.."، ويمكن أن يعترض الشعب على صلاة الكاهن تماماً كما يعترض على رسامة الكاهن إذا صرخ وقال: "غير مستحق". هنا تقف كل القوانين وتنحني كل الرئاسات لأن جماعة الرب ترى أن شيئاً غير صحيح يحدث.

الذبيحة هي عمل المحبة والتواضع، فإذا انتفت المحبة أو انعدم التواضع لا تستطيع أية قوة أن تجعل القداس ممكناً، بل يصبح القداس مستحيلاً؛ لأنه لا يعبِّر عن الرضاء والبذل، بل عن السلطة والقهر، ولذلك وحده، احتفظ الشرق "بقبلة المصالحة" واحتفظ بالاسم القديم: "القبلة الرسولية"؛ لأننا على إيمان الرسل، وبروح الرسل نصافح بعضنا البعض قبل بدء صلاة التقدمة "الأنافورا"[1].

الفروق الأساسية بين التقليد الأرثوذكسي، والتقليد الكاثوليكي

([1]) استُعملت هذه الكلمة في مصر، حقيقي أنها من الفعل اليوناني anaphero أي يقدم أو يرفع، ولكن إطلاق هذا الاسم على هذا الجزء من القداس حدث في مصر أولاً حسب الدراسات الحديثة.

A. Hanggi and I. Pahl “Prep Eucharistica” 1968.

(قبل حركة الإصلاح) في فهم الذبيحة:

في الوقت الذي فيه كان الغرب قد اقتنع تحت تأثير اللاهوت الطبيعي *Natural Theology* وهو مزيج من فلسفة أفلاطون وأرسطو بدأ عند أوغسطينوس، ووصل إلى كماله عند توما الأكويني، بأن الكون مقسَّمٌ إلى ثلاثة طوابق: السماء – الأرض – الجحيم (+ المطهر)، فإن الشرق ظل يعتقد بأن السماء والأرض هما واحد؛ لأن المسيح في تجسده جمع الاثنين معاً. ونحن لا نحتاج إلى اقتباسات من كتب الآباء؛ إذ يكفي أن نُذَكِّر القارئ بذلك اللحن اللاهوتي العميق الذي نرتِّله في عيد العنصرة: "جعل الاثنين واحداً، أي السماء والأرض"؛ لأن ملكوت الله قد جاء بقوة عندما حلَّ الروح القدس[١].

وبالطبع، هنا في الشرق لا ينزل المسيح من السماء إلى الأرض. بل تذهب الكنيسة إلى الله وتدخل إلى مكان الخدمة "بيت الملائكة"[٢] أي مكان الله، وهناك ترتل مع الشاروبيم والسارافيم. لذلك يسمي الآباء الكنيسة بأنها "فردوس الله" (راجع بدقة القديس أثناسيوس ضد أريوس المقالة الأولى: ١ حيث يقول: "بعد المعمودية نحن في الفردوس أي الكنيسة" – مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٢٦: ١٣ أ – ب).

وبالطبع ليس هناك انتقالٌ في الفراغ أو الزمن، نزولٌ أو صعود، كلاهما مستحيل. لقد نزل الله مرةً واحدةً، أي تواضع واتحد بالطبيعة الإنسانية (فيلبي ٢: ٩)، وسوف نلاحظ إذا درسنا صعود المسيح إلى السماء أنه عند الآباء كما في الأيقونات[٣] المسيح

---

(١) راجع تفسير القديس كيرلس السكندري لمعنى "ملكوت الله" في مقالة لماذا اعتمد يسوع – مرقس يناير ١٩٧٥. وهذه المقالة منشورة أيضاً على موقع www.coptology.com

(٢) ذكصولوجية باكر آدام في التسبحة السنوية.

(٣) نتضرع إلى الله أن يلتهب قلب قبطي بمحبة الأيقونات القبطية ليصدر كتاباً واحداً يجمعها حتى نتمكن من الإشارة ولو إلى طبعة غير ملونة ... متى يجيء عصر الاهتمام بالتراث القبطي؟

ارتفع قليلاً عن التلاميذ والسماء مفتوحة مثل ستارة أو مشقوقة، ويسوع لم يدخل كله، بل جزء منه؛ لأن الفنان الأرثوذكسي يحرص على أن تكون السماء عرش الله والأرض موطئ قدميه (متى ٥: ٣٤). ونحن نلاحظ أن موطئ قدمي الله، أي الأرض هي حيث يستقر عرشه. ولعل أعظم أيقونات الصلبوت، تلك التي رسمها الفنان القبطي إبراهيم الناسخ، والكائنة حالياً في كنيسة العذراء الدمشيرية في مصر القديمة، حيث نرى فيها المسيح على الصليب والسموات مشقوقة ورأس يسوع المصلوب في السماء، وهذا المنظر يعكس – بقوةٍ – الفهم العميق للرسالة إلى العبرانيين.

الله ليس في السماء دون الأرض، وهو لا ينزل إلينا، ولا نحن نصعد إليه، هذه كلها تعبيرات بشرية تفيد تغيير الكائن من حالة إلى حالة، أو تنازل الله لتقديم عطية من العطايا. وقد لاحظ القديس غريغوريوس النيزينزي أن الغني القاسي رفع عينيه وهو في اللهيب ورأي اليعازر المسكين، وهنا يقول هذا اللاهوتي العظيم إن الغني واليعازر معاً في مكان واحد، ولكن حالتهما مختلفة (العظة ١٣ على إنجيل لوقا ١٦). ومن المؤكد هنا أن الفرق الأساسي هو ما يحدث في الداخل؛ لأن الداخل يعطي كل معاني الخارج. ملكوت الله داخلنا، وهذه الحقيقة هي التي تجعل الخارج أيضاً ملكوت الله، أما إذا لم يكن ملكوت الله فينا أي داخلنا، فإن الخارج يظل كما هو أياً كان، لا علاقة له بنا.

الفصل الخامس

الذبيحة (٣)[١]

الفروق الأساسية بين التقليد الأرثوذكسي والتقليد الكاثوليكي قبل حركة الإصلاح في فهم الذبيحة (تكملة)

تزعَّم غريغوريوس الكبير حركة التجديد الروحي في الكنيسة الرومانية، وهي حركة روحية قوية كان خطأها الوحيد – من وجهة نظر أرثوذكسية – أنها لم تكن مرتبطة بالتيار العام الواضح في التقليد. ولعل أحد الفروق الأساسية بين الشرق الأرثوذكسي والغرب اللاتيني، هو أن الشرق يجاهد دائماً لاستمرار تدفق التقليد في مجرى واحد مستقيم، ولا يحبذ الآباء الشرقيون استخدام مصطلحات لاهوتية جديدة بالمرة ما لم تكن معروفةً عند أسلافهم، بينما يهتم الغرب دائماً بالتجديد وبخلق مصطلحات جديدة، بل وتيارات جديدة.

وتعكس النظرة الروحية الشرقية، الأمانة المطلقة للتقليد الكنسي؛ لأن التقليد هو حياة دائمة ورؤيا لا تضيع، ثم هو الخبرة الصوفية *mystical* في مواجهة الصياغة العقلية *rational* عند الغرب. ولذلك، الغربُ دائماً سبَّاقٌ إلى التأليف وإعادة الصياغة دون

---

(١) مجلة مرقس – مايو ١٩٧٥ ص ٣٢ إلى ص ٣٦.

اهتمام بما استقر في التقليد. ولذلك جاء غريغوريوس الكبير بمحاولة إحياء الحياة الروحية عن طريق إحياء المعنى الروحي لموت المسيح على الصليب، وهو ركيزة التقوى في التقليد اللاتيني. واهتمام الغرب العادي بموت المسيح له أسبابٌ نفسية وأخلاقية وفلسفية انعكست على اللاهوت، بينما يهتم الشرق بالفرح وبالقيامة كأساسٍ ومنطَلَقٍ لكل ما في اللاهوت. وبالطبع هناك أسبابٌ نفسية وأخلاقية وفلسفية وراء الاهتمام بالقيامة. وقد عكس فن الأيقونات الشرقي التجلي والفرح حتى في أيقونات الصلبوت، بينما عكست التماثيل وأعمال كبار الفنانين الغربيين رسم المسيح والقديسين بشكل طبيعي وعلامات الألم ومظاهر الاحتضار تظهر على وجوههم وأجسادهم. ولذلك كان الطابع العاطفي للعبادة في الغرب هو الطابع الغالب، ونشأت في الغرب "عبادة درب الصليب" و "عبادة قلب يسوع"، وما إليه من طرق التأثير العاطفي القريبة من العقل أكثر من الدرب الصوفي *The Mystical Road* وهو دربٌ ضيقٌ لا يرضى بمخاطره إلَّا القليلون.

إن كل هذه العناصر يجب أن تبقى في أذهاننا دائماً عندما ندرس اللاهوت الغربي، وبالذات بداية العصر الوسيط. يقول غريغوريوس الكبير محرضاً الشعب على التقوى:

> "لنذبح ذبائحنا على هذا المذبح... نقدم كما قلت سابقاً ما ينوب عنا، لنقدمه بالدموع ولنقدم الذبائح؛ لأن الذبيحة *Hostia* التي توضع على المذبح المقدس عندما تقدَّم بالدموع وبالنية الصالحة، تتشفع بطريقة خاصة بالمغفرة؛ لأن الذي قام من بين الأموات لا يموت ثانيةً، ولكنه في هذا السر وفي هذه التقدمة يتألم مرةً ثانيةً لأجلنا. لأننا كلما قدَّمنا له ذبيحة آلامه، نجدد آلامه ونَنال بذلك مغفرةً لأنفسنا"[١].

([1]) Homilia in Evangelia, liber II, caput 37, 7. MPL, 761 1278-1279.

وبالطبع يظهر هنا ولأول مرة منذ العهد الجديد فهماً جديداً للإفخارستيا، لم يكن معروفاً عند الآباء عامةً وفي الشرق على وجه الخصوص. والنص الذي اخترناه ليس نصاً فريداً لا مثيل له؛ لأن غريغوريوس يقول في مؤلَّفٍ آخر:

> "بطريقة خاصة تُخَلِّص هذه الذبيحة النفس من العقاب الأبدي. هذه الذبيحة تجدد *reparation* موت الابن الوحيد بطريقة سرية؛ لأنه عندما قام من بين الأموات لم يمت مرةً ثانيةً، وليس للموت سلطاناً عليه (رومية ٦: ٩) إلَّا أنه رغم كونه حياً وأزلياً وبلا فساد إلَّا أنه يصبح من جديد لأجلنا في سر *Mystery* هذه التقدمة. لأن جسده يُعطَى بل يُوزَّع لخلاص شعبه ودمه يُسفَك لأجل غير المؤمنين، بل في أفواه المؤمنين. لنعتبر هذه الذبيحة لأجلنا لأنه من أجل مغفرة خطايانا، نعيد آلام الابن الوحيد، ولا يجب أن يشك أحد في أنه عند تقطيع هذه الذبيحة تفتح السموات بصوت الكاهن ويسوع حاضر مع جموع الملائكة، والأشياء الأرضية متحدة مع العلوية والمنظور مع غير المنظور والكل صار واحداً"(١).

بالطبع لا يستطيع أحد أن يتهم غريغوريوس بأنه على وعيٍ بما سيتم بعده من تطورات لاهوتية، وأغلب الظن أنه لم يكن يدري أنه سيفتح الطريق أمام آخرين سيأخذون كلامه بدون فحص، بل كما لو كان تعليم الكنيسة الجامعة. ولعل أكثر الذين تأثروا بلاهوت غريغوريوس، الراهب الألماني رادبرتس *Paschasius Radbertus* رئيس دير *Corbie* والذي توفى سنة ٨٦٠م ونُقلت رفاته في سنة ١٠٧٣م إلى كنيسة القديس بطرس في روما باعتباره أحد القديسين. ويمكننا أن نلاحظ كيف يعيد رادبرتس لغة غريغوريوس الكبير:

---

(1) Dialogorum, libri 4, caput 58, MPL, 77, 426-427.

> "على كل إنسان أن يأكل جسد ودم المسيح يومياً، ولكن الحمل نفسه يظل حياً وصحيحاً لا ينقص منه شيئاً؛ لأنه لا يموت (رومية ٦: ٩)؛ ولكنه بكل حق يُذبح يومياً في السر، ويؤكل لغسل خطايانا"[١].

ومن بعده يؤكد راترامنوس *Ratramnus* في رده على البطريرك *Photius* بطريرك القسطنطينية (٨٨٦م – ٨٩٨م) نفس لغة غريغوريوس الكبير، وإن كان من الواضح أن موضوع ذبح المسيح لم يحتل مكاناً في خلاف البطريرك فوتيوس مع روما. لكن كان الغرب قد تقدم خطوة باعدت بينه وبين الشرق.

استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء من سنة ١٥٠ حتى القرن الخامس:

يُعد نص كتاب "الديداكي"، أو "تعليم الإثنى عشر" هو أقدم ما وصلنا من المصادر الطقسية والقانونية القديمة. وهو بلا شك أقدم النصوص المسيحية خارج العهد الجديد، ويضعه علماء التاريخ ما بين سنة (١٠٠ - ١٥٠).

تقول الديداكي:

> "اجتمعوا في يوم الرب لتكسروا خبزاً للشكر، بعد أن تعترفوا بخطاياكم لكي تكون ذبيحتكم نقية καθαρα ηθαυσι υμων ولا تسمحوا لمن تشاجر مع رفيقه بالانضمام إلى اجتماعكم إلَّا بعد أن يتصالحا حتى لا تتدنس ذبيحتكم؛ لأن هذه الذبيحة هي التي تكلم عنها الرب في كل مكان وزمان يقربون لي

---

(1) Early Medieval Theology, p. 94-95.

ذبيحة طاهرة" (فصل ١٤: ١ – ٣).

وقيمة هذا النص هو أنه يجمع (متى ٥: ٢٢ – ٢٣ مع ملاخي ١: ١١ – ١٤)، وهذا الجمع على قدر كبير من الأهمية؛ لأن (متى ٥: ٢٢ – ٢٣) "وإن قدمت قربانك على المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك.."، حاول بعض المفسرين أن ينسبوها إلى خدمة مذبح العهد القديم، على الرغم أن العهد القديم كله لا يتضمن نصاً أو توجيهاً بضرورة المصالحة قبل تقديم الذبيحة، كما أن الكلام عن ذبائح العهد القديم في العظة على الجبل، وهي بمثابة روح (ناموس) العهد الجديد، يُعد غريباً جداً، بل لا معنى له بالمرة في كتاب الكنيسة الجديدة، ولذلك وقع الذين أنكروا الإفخارستيا كذبيحة العهد الجديد في حيرة لا حد لها وتبددت كل آرائهم.

وعندما تأتينا شهادة من القرن الثاني، وفي وثيقة تعود إلى الجيل الثاني من المسيحيين الذين كانوا لا زالوا معاينين لتلاميذ رسل ربنا يسوع، فإن هذه الشهادة على قدر كبير من الأهمية. ويبدو أن صلوات "الديداكي" كانت شائعة بين اليهود المتنصرين، ويؤكد هذا وجود جزء من صلوات البركة على بردية باللغة العبرانية تعود إلى القرن الثاني وربما القرن الأول ضمن برديات المجمع اليهودي القديم المعروف ديورا – ايروبوس *Dura-Europos* والتي يعتقد البعض أنه مجمع تحول إلى كنيسة بسبب وجود رسوم ونقوش من العهد القديم مرتبطة بالعبادة المسيحية.

والقيمة الثانية لنص "الديداكي"، الاقتباس من (ملاخي ١: ١١ – ١٤)، وهو نصٌ أساسيٌ في الحوار اليهودي المسيحي في القرون الثلاثة الأولى، ولعب دوراً أساسياً في الصراع بين المجمع والكنيسة. ولعل أفضل نص هو في حوار الشهيد يوستينوس مع اليهودي تريفو:

> "وتقدمة دقيق القمح كانت مثالاً ***Type*** لخبز الإفخارستيا الذي أمر يسوع ربنا أن نقدِّمه لذكرى آلامه. والذبائح التي كنتم تقدمونها أيها اليهود قال الله عنها على لسان ملاخي:

> "ليس لي مسرة فيها" (ملاخي ١: ١١ – ١٤)، وملاخي يتحدث سابقاً عن الذبائح التي سوف نقدِّمها نحن الشعوب الوثنية (الأمم) له في كل مكان أي خبز وكأس الإفخارستيا (ويقول ملاخي) إننا في هذا نعظِّم اسمه، بينما أنتم (اليهود) تدنسون اسمه" (الحوار مع تريفو ٤٠: ١ – ٢).

فاذا تذكَّرنا أن الحوار مع اليهودي تريفو كُتِبَ ما بين سنة (١٥٠ – ١٦٦)، أي في الوقت الذي دُوِّنَتْ فيه الديداكي، فإننا هنا لا نقرأ تعليماً خاصاً بشيعة مسيحية، بل بالكنيسة وقد انفصلت عن المجمع اليهودي، وأخذت معها التراث الروحي الإلهي.

وإذا عدنا إلى نبوة ملاخي نفسها، فإن وضعها غريب جداً، ذلك أنها لا يمكن فهمها في نطاق تشريعات سفري التثنية واللاويين، أي أنها لا تتحدث عن ذبائح جديدة سوف تقربها الأمم. كان التيار الروحي النبوي يزخر بالحديث عن الجديد، عن الخروج الجديد، والهيكل الجديد، ثم الذبائح الجديدة، وكل هذا في نطاق أو دائرة العهد الجديد الذي يتحدث عنه أرميا ٣١ وأشعياء وحزقيال ثم ملاخي.

وعند الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، فإن الإفخارستيا هي ذبيحة الوحدة بين المسيح والكنيسة، ولذلك فالذبيحة واحدة، أي يسوع المسيح مع المذبح الواحد والشعب الواحد والكاهن الواحد. يعبِّر أغناطيوس عن هذه الوحدة بقوله:

> "يليق بكم، إذن، أن تسلكوا باتفاق مع فكر أسقفكم أنكم لمتفقون معه. أمَّا لفيف كهنتكم الذائع الصيت والجدير بالله، فهو على انسجام مع الأسقف، انسجام الأوتار والقيثارة. وهكذا باتفاق الشعور وتناغم المحبة تنشدون ليسوع المسيح. أقيموا على هذا النمط خورساً يستطيع بإيقاع الاتفاق أن يرنم لحن الله في الوحدة، وينشد بصوت واحد في يسوع المسيح" (أفسس ٤: ١).

هكذا تخدم الكنيسة في القداس، وعندما تقف عند المذبح يقول اغناطيوس:

> "لتطيعوا الأسقف ولفيف الكهنة في الوئام بدون خصام، وتكسروا خبزاً واحداً هو دواء الخلود واقٍ من الموت وترياق الحياة الدائمة في المسيح" (أفسس ١٩: ٢).

إن الوحدة هنا في حياة يسوع المسيح هي التي تجعل الخبز المكسور دواء عدم الموت. إن الوحدة هي سر الذبيحة، والقاعدة الطقسية هي قاعدة لاهوتية وليست مجرد ترتيب أجوف كما يحلو للبعض أن يصفوا الطقس بأنه مجرد ترتيب. يقول أغناطيوس عن الذبيحة:

> "اعملوا عملكم بالشركة، صلاةً واحدةً، ابتهالاً واحداً، روحاً واحداً، رجاءً واحداً في المحبة وبفرح لا عيب فيه. هذا هو يسوع المسيح. اجتمعوا في هيكل الله الواحد حول مذبح واحد في يسوع المسيح الوحيد" (مغنسيا ٥: ١ – ٣).

وهذا النص دسمٌ جداً يحتاج لمقالة خاصة، لكنه هو سر الشركة في الإفخارستيا في كل معانيها المستمَدة من وحدانية الله، ووحدانية يسوع المسيح، واتحاد الكنيسة الواحدة ذات المذبح الواحد. ووحدة الكنيسة مع يسوع المسيح هي الأساس الذي يبني عليه أغناطيوس تعليمه:

> "لا تشتركوا إلَّا في إفخارستيا واحدة. فإنه ليس لربنا سوى جسدٌ وكأسٌ واحدة توحِّدنا بدمه ومذبح واحد وأسقف واحد مع لفيف الشمامسة" (فلادلفيا ٤: ١ – ٢).

إن المذبح الواحد يعني ذبيحة واحدة، وهذا بدوره يقطع كل صلة بين المؤمنين والمنشقين. وعندما كان أغناطيوس يقاوم هرطقة الخياليين الذين أنكروا تجسد ابن الله،

يقول أغناطيوس:

"إنهم يمتنعون عن الإفخارستيا والصلاة؛ لأنهم ينكرون الإفخارستيا باعتبارها جسد مخلصنا يسوع المسيح الذي تألم لأجل خطايانا وأقامه الآب بلطفه من الموت" (أزمير ٧: ١ – ٣).

هل يمكن لمن يسأل عن معنى الذبيحة عند أغناطيوس أن ينكر أن يسوع الذي صُلِب وقام، هو الحاضر دائماً في القداس؟ وفي هذا المقطع الجميل يعبِّر أغناطيوس عن أشواقه الإفخارستية:

"فيَّ ماءٌ حيٌ يهمس في داخلي ويقول لي: "هلم إلى الآب" لا لذة لي بعد الآن، بالطعام الفاني ولا بأطياب الحياة. ما أريده هو خبز الله. وخبز الله، هو جسد يسوع المسيح سليل داود. والشرب الذي أبغيه، إنما هو دمه، ودمه هو المحبة التي لا تفسد" (إلى الرومان ٧: ٢ – ٣).

الفصل السادس

الذبيحة (٤)[١]

استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء

القديس ايريناوس:

وهو أسقف ليون في بداية القرن الثالث (حوالي سنة ٢٠٢)، وربما رسم أسقفاً في نهاية القرن الثاني. في كتابه "ضد الهرطقات"[٢] نجد تأكيداً على ذبيحة الإفخارستيا، وايريناوس مثل الديداكي ويوستينوس الشهيد يلجأ إلى (ملاخي ١: ١٠ – ١١ ثم متى ٥: ٢٢ – ٢٣)؛ لتأكيد وجود ذبيحة الإفخارستيا. غير أنه علينا أن نلاحظ دائماً الأمور الآتية قبل أن ندرس النصوص المختارة من كتاب ضد الهرطقات:

١– يكتب ايريناوس ضد جماعات الغنوسيين *Gnostics* الذين قالوا بأن الله الخالق هو إلهٌ شرير؛ لأن الإله الصالح لا يمكن أن يخلق المادة الشريرة، ولا الأجساد. وبالتالي يهدم هذا الرأي الأفلاطوني الأصل، التجسد، ثم الإفخارستيا. ولذلك يؤكد

(١) مجلة مرقس – يونيو ١٩٧٥ ص ٢٥ إلى ٣٣.

(2) Against Heresies, 2, 4, 11-18, p. 6.7, 1019-1029.

ايريناوس أن الخبز والخمر هما من المخلوقات، ومن ثمار الأرض، لكن بعد التقديس يصبح الخبز والخمر مثل جسد الإنسان أرضي / سمائي؛ لأن القيامة سوف تغيِّر الصورة الأرضية، وهكذا الخبز والخمر هما من الأرض، لكن بعد التقديس هما الإفخارستيا جسد الرب ودمه. كعربون للقيامة.

٢- إن الله في العهدين القديم والجديد لا يحتاج إلى الذبائح. وقد رفض ذبائح العهد القديم، وكان يُعد الأذهان لذبيحة العهد الجديد. غير أن ذبيحة العهد الجديد نفسها لا يحتاج الله إليها. الحاجة هنا هي حاجة الإنسان إلى الذبيحة. هذا مبدأ لاهوتي هام. إن الله مصدر كل صلاح وينبوع كل رحمة لا يطلب منا شيئاً، بل نحن الذين نطلب منه ونقدم له مما له أو نعطيه مما في يده، وهنا العطاء والتقديم من أجل الإنسان. حتى ذبيحة الشكر هي من أجل الإنسان. الله الآب والابن والروح القدس لا يحتاج إليها، وليست هي لتسكين غضب الآب أو تهدئة خواطره، إنما هي من أجل مجد وكرامة التقريب نفسه. عندما يقدِّم الإنسان عطايا لله، فإنه ينال الكثير من البركات. هنا يقترب ايريناوس من روح آباء القرنين الرابع والخامس، وهي روح القداس نفسه، فنحن ندخل إلى الله ومعنا الخبز والخمر، ونضع هذين العنصرين على المذبح، وهذا تعبير عميق عن طلب الكنيسة لنعمة الله. كان ايريناوس يقول نحن نقدِّم هذين العنصرين المخلوقين، وهما وسيلة لانحدار نعمة المسيح. هنا حركة التقديم، هي صعود الإنسان إلى الله، لكن على الإنسان الصاعد أن يتذكر دائماً أن حركة صعوده هي أصلاً من أجل رِفعته لا من أجل سد احتياج لدى الله نفسه.

يقول القديس ايريناوس:

> "١- الكنيسة الجامعة هي وحدها التي تستطيع أن تقرِّب لله الذبيحة التي تسره والتي تنبأ عنها الأنبياء، أي ذبيحة الإفخارستيا، إنها استخدام للمخلوقات، فالخبز والخمر - وهذا ضد اعتقاد الغنوسيين - هما عناصر صالحة (غير شريرة) وتقدسهما

الكنيسة بكلمات المسيح كما تسلمناها من التقليد.

٢- والأهم من كل هذا، إن الأنبياء أخبرونا بوضوح كافٍ، أن الله لا يحتاج إلى طاعة العبيد، وإنه لفائدة البشر رتَّب الأمور الطقسية في الناموس، وأيضاً إن الله لا يحتاج إلى ذبائحهم، بل طلبها من أجل نفع الإنسان الذي يقدمها ... وعندما رأى الله أنهم يهملون البر ولا يحبون الله، ويتوهمون أن الذبائح وسائر الطقوس الأخرى تصالحهم مع الله، وبَّخهم صموئيل وقال لهم: "الله لا يرضى بالمحرقات والذبائح، بل باستماع صوت الرب. لأن الطاعة أفضل من الذبائح والإصغاء أفضل من شحم الكباش" (١ صموئيل ١٥: ٢٢). وداود يقول: "بذبيحة وتقدمة لم تُسر، بل فتحت أذني. محرقة وذبائح خطية لم تطلب" (مزمور ٤٠: ٦). وهكذا يعلِّمهم أن الله يطلب الطاعة، فهي وحدها التي تكمِّلهم وليس الذبائح والسكائب التي لا تقودهم إلى البر، وبهذا الإعلان يتنبأ في نفس الوقت عن العهد الجديد، بل يتحدث بصورة أوضح في المزمور الخمسين: "لأنك لو كنت تسر بالذبيحة لكنت الآن أقدم، لكنك لا تسر بالمحرقات. الذبيحة لله روح منكسر، القلب المنكسر والمنسحق يا رب لا ترذله" (مزمور ٥٠: ١٦ – ١٧)، ولذلك الله لا يحتاج إلى شيء، ويقول في المزمور: "لا آخذ من بيتك ثوراً ولا من حظائرك ذكور الماعز؛ لأن لي حيوان الوعر والبهائم في الجبال الألوف، أنا أعرف كل طيور الجبال ووحوش البرية هي كلها لي. إن جعت فلا أقول لك لأن لي المسكونة وملؤها، هل آكل لحم ثيران أو أشرب دم التيوس؟" (مزمور ٤٩: ٩ – ١٣). ولئلا يظن أحد أنه قد رفض كل هذه الأمور بسبب غضبه، يستمر قائلاً للإنسان مقدِّماً إليه النصح: "قدم لله ذبيحة التسبيح وأوف للساكن في الأعالي نذورك وادعني في يوم الضيق

أنقذك فتمجدني" (مزمور ٤٩: ١٤ - ١٥).

٣، ٤- وليس لأنه غضب مثل البشر، كما يتجرأ البعض في قولهم عن الله - أنه رفض ذبائحهم، بل بسبب تعطفه عليهم، لأنهم فقدوا البصيرة، ولذلك يرغب بشدة في إرشادهم إلى الذبيحة الحقيقية (هنا يقتبس ايريناوس أرميا ٦: ٢٠ - ٧: ٢-٣، ٩: ٢٤، أشعياء ٤٣: ٢٣-٢٤، ٤٦: ٢ ثم ارميا ١١: ١٥، أشعياء ٥٨: ٥-٦، زكريا ٧: ٩-١٠، ٨: ١٦-١٧، مزمور ٣٣: ١٣-١٤، هوشع ٦: ٦ ثم متى ١٢: ٧).

٥- وأيضاً أوصى تلاميذه بأن يقدِّموا لله باكورة ثمار خليقته، ليس لأنه محتاج إليها، بل لكي لا يكونوا هم أنفسهم بلا ثمر غير شاكرين، لذلك أخذ (المسيح) ذلك العنصر المخلوق أي الخبز وشكر وقال هذا هو جسدي (متى ٢٦: ١٦)، وهكذا الكأس وهو جزء لا يتجزأ عن الخليقة التي ننتمي إليها نحن، كذلك اعترف بأنه دمه، وعَلَّمَ هكذا عن ذبيحة العهد الجديد التي استلمتها الكنيسة من الرسل، والتي تقدمها لله في كل أرجاء العالم إليه وحده الذي أعطانا أن نوجد ونحيا، وأعطانا أيضاً باكورة ثمار عطيته في العهد الجديد، والتي تنبأ عنها ملاخي وهو أحد الإثنى عشر نبياً: "ليست لي مسرة فيكم يقول الرب الضابط الكل ولن أقبل ذبيحة من يدكم لأنه من مشرق الشمس إلى مغاربها اسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يقرب لأسمي بخوراً وذبيحة طاهرة لأن اسمي عظيم بين الأمم قال رب الجنود" (ملاخي ١: ١٠-١١). وبكل وضوح أعلن بهذه الكلمات أن الشعب القديم (اليهود) سوف يَكُفُّون عن تقديم ذبائح لله، وأنه في كل مكان سوف تقدَّم الذبيحة الطاهرة لكي يتمجد اسمه بين الأمم.

٦- وأي اسم يتمجد بين الأمم سوى اسم ربنا الذي به تمجَّد الآب والإنسان أيضاً؟ ولأن الاسم هو اسم ابنه الوحيد الذي به خلق (الآبُ) الإنسانَ، فإنه يسميه اسمه، ومثال لما نقول، عندما يصنع ملكاً صورةً لابنه، فهو على صواب عندما يدعو هذه الصورة صورته، وذلك لسببين أولاً لأنها صورة ابنه، وثانياً لأنه هو الذي صنعها. هكذا أيضاً الآب يعترف بأن اسم يسوع المسيح هو اسمه، لأنه يُمَجَّد في العالم كله بواسطة الكنيسة، أولاً لأنه اسم ابنه، وثانياً لأنه هو الذي أعطاه له لخلاص الإنسانية. وحيث أن اسم الابن يخص الآب، ولذلك في الله الضابط الكل تقدِّم الكنيسة ذبائح بيسوع المسيح، يقول الآب: "في كل مكان يقدم بخوراً لأسمي وذبيحة طاهرة". ويوحنا في الرؤيا يعلن أن البخور هو صلوات القديسين (رؤيا ٥: ٨).

الفصل الثامن عشر: ١ - ٤ وذبيحة الكنيسة التي أوصى الرب بأن تقدَّم في كل مكان هي ذبيحة طاهرة في نظر الله ومقبولة لديه، ليس لأنه يحتاج إلى ذبيحة منا، ولكن لأن الذي يُقدِّم ذبيحةً يتمجد من خلال ما يقدِّمه عندما تُقْبَل تقدمته، لأنه بالتقدمة ينال المقَدِّم كرامةً، وما نقرِّبه يُظهِر علاقتنا بالملك والرب الذي يود أن نقدم له بكل بساطة وبراءة كما عبَّر هو نفسه: "عندما تقرب قربانك على المذبح وهناك تذكَّرت أن لأخيك شيئاً ضدك، اترك هناك قربانك على المذبح وأذهب اصطلح مع أخيك ثم تعال وقدِّم القربان" (متى ٥: ٢٣ - ٢٤). وعلينا أن نقدِّم لله باكورة ثمار خليقته كما قال موسى: "لا تظهر أمام الرب إلهك فارغاً" (تثنية ١٦: ١٦) لكي يجد الإنسان أهلية الامتنان والشكر فيما يقدمه وينال بعد ذلك المجد الذي ينبع من الله.

٣- الذبائح (في العهد القديم) لا تقدِّس الإنسان،؛ لأن الله لا يحتاج إلى ذبيحة، ولكن ضمير الذي يُقَدِّم يتقدَّس عندما يكون دافع التقديم طاهراً، وهذا ما يجعل الله يقبل القربان كما من صديق. أمَّا عن الخاطئ، فإن الله يقول عنه: "الذي يقدم لي عجلاً كمن قدَّم لي كلباً" (أشعياء ٦٦: ٣). ويليق بنا أن نقدم قرباناً لله وفي كل شيء نعبِّر عن شكرنا لله صانعنا بعقل طاهر وإيمان بلا رياء ورجاء ثابت ومحبة متقدة[١] نقرِّب إليه باكورة ثمار خليقته. والكنيسة وحدها تقدم هذه الذبيحة الطاهرة إلى الخالق، وتقدم إليه بالشكر من الأشياء التي خلقها ... وعقيدتنا مؤسسة على اعتقادنا الصحيح في الإفخارستيا؛ لأننا نقدم لله ما خلقه هو، وبهذا نعبر دائماً وبثبات على شركة الجسد والروح، وكما أن الخبز الذي هو ثمرة الأرض بعد أن يَقبَل استدعاء الله، لا يصبح خبزاً عادياً، بل الإفخارستيا، أي محتوياً على حقيقتين، حقيقة أرضية وأخرى سمائية. هكذا أجسادنا عندما تأخذ الإفخارستيا ليست بعد خاضعة للفساد، بل أخذت رجاء القيامة إلى حياة الأبد" أ هـ.

العلامة ترتليان (١٤٥-٢٢٠):

من الصعوبات الأساسية التي تعترض نقل نصوص الآباء، المحتوى العقيدي والتاريخي الذي كُتِبَ النص من خلاله أو أثنائه. كان زمان ترتليان هو زمن الفوضى العقائدية، بدون شك اختلطت فيه العقائد عند العامة وتعذَّر فهم الفروق بين تعليم الكنيسة الجامعة، وضلالات الشِّيَع، وبالذات الغنوسية. كانت الغنوسية ترفض قبول

---

(١) تشبه هذه الكلمات نهاية صلوات القسمة في الطقس القبطي وربما كان ايريناوس يعكس لغة الكنيسة في الليتورجيا.

العهد القديم وبعض أجزاء العهد الجديد، وكان لهذا الرفض أسباباً سياسية ولاهوتية. كانت ثورة اليهود في عهد هدريان قد دفعت بعض المسيحيين إلى الخوف من قراءة ذات الكتاب الذي يقرأه اليهود. وهو موقف شبيه إلى حد كبير بموقف بعض المسيحيين الجهلاء الذين يخافون من العهد القديم بسبب قيام دولة إسرائيل وعدوانها الآثم على الوطن. أمَّا العهد الجديد، فإن كل النصوص والعبارات التي تُشير إلى التجسد فيه كانت عثرةً عظمى بالنسبة للغنوسيين، وهم قد ورثوا الفكرة الأفلاطونية القائلة بأن المادة شريرة، وبالتالي فإن الجسد شرير باعتباره مادياً. وقد كتب كل الآباء بدون استثناء ضد الغنوسيين. وكان لترتليان النصيب الأوفر في هذه الكتابات. فله كتاب رائع من خمسة أجزاء ضد مرقيان *Marcion* ثم كتاباً واحداً ضد هرموجينوس *Hermogenes* وفالنتيان *Valentinians* وبراكسياس *Paraxeas*. ويُعَد كتابه ضد مرقيان من أهم المراجع الطقسية؛ لأنه اعتمد على النصوص التي كانت تُستخدم في الطقوس في شمال إفريقيا، وبالذات نصوص العهد القديم، خصوصاً تلك التي تتحدث عن موت الرب وآلامه وقيامته، ثم الأسرار والكنيسة. ولا يمكن لأي تلميذ حقيقي يدرس الكنيسة في القرون الثلاث الأولى أن يتجنب ترتليان، أو يحصل على معلومات وافرة عن الكتاب المقدس أو الطقس أو الكنيسة من مصدر آخر غير ترتليان. هذا على الرغم من أن ترتليان قد أنضم إلى شيعة تعرف باسم "المونتانية" (لم يصدر ضدها قرار رسمي في حياة ترتليان)، وهو السبب الذي جعل الشهيد كبريانوس يقول عن مؤلفات ترتليان: "أدرسها دائماً ولا يمر يوم دون أن أقرأ منها". وقد حصر علماء الآباء المؤلفات والفقرات التي تفوح منها رائحة المونتانية، وكانوا في ذلك في غاية الدقة.

إذا كانت الغنوسية تنكر جسد المسيح، فإنها بكل يقين تنكر الإفخارستيا، ولا يعني جسد المسيح شيئاً بالنسبة لهم. ولعل موقف بعض المسيحيين من الإفخارستيا يكشف عن لوثة غنوسية مستترة تكره الجسد، وتحاول أن تجعل من يسوع فكرة يمكن للعقل أن يفعل فيها ما يشاء، فالفكرة دائماً أسهل في قبولها من الشخص. ومن السهل علينا أن نجعل الإفخارستيا فكرة، ومن الصعب علينا أن نقبل الإفخارستيا على أنها

جسد المسيح الحقيقي؛ لأن الجسد – بشكلٍ عام – يتحدى فينا كل خطايانا، وجسد المسيح بشكل خاص يرغمنا على الوقوف بأدب أمام المذبح، وعلى السلوك بلياقة في الحياة اليومية، وهو أمرٌ باهظ التكاليف لا ترضاه النفس، ولذلك تُفَضِّل الهروب إلى عالم الفكر المتسع الحر الذي لا التزام فيه سوى بالتأمل. وسوف نكتشف أن الآباء عندما يتحدثون عن الإفخارستيا، لا يتحدثون عن جسد المسيح وحده، وإنما يتحدثون عن جسد المسيح والكلمة (اللوغوس)؛ لأن الإفخارستيا هي حضور حقيقي ليسوع المسيح في الجسد، ولكنها أيضاً حضورٌ إلهيٌّ، وسوف نلمح هذا بوضوح عند ترتليان وعند أكليمنضس وأوريجينوس.

يقول ترتليان:

> "دعونا نبحث عن وضع الجسد في المسيحية؛ لنرى الامتيازات الفائقة التي منحها الله لهذا العنصر الفقير والجوهر الذي لا قيمة له في نظر البعض. ويكفي أن نقول إنه لا توجد نفسٌ تستطيع أن تحصل على الخلاص إلَّا إذا آمَنَتْ وهي في الجسد، ولهذا فبكل حق يُعد الجسد هو الوضع الأساسي الذي عليه يعتمد الخلاص. وكما أن النفس عندما تنال الخلاص وتُختَار لخدمة الله، فإن الجسد هو الذي يجعلها قادرة على هذه الخدمة. إن الجسد هو الذي يُغسَل لكيما تتطهر النفس، والجسد هو الذي يُدهَن لكيما تتقوى النفس. والجسد هو الذي يُرشَم بالصليب لكيما تُحَصَّن النفس. الجسد هو الذي توضَع عليه اليد لكيما تستنير النفس بالروح القدس. الجسد يغتَذي بجسد ودم المسيح لكيما تتغذى النفس وتنمو بالله"[1] (مقالة عن قيامة الجسد الفصل الثامن النص اللاتيني مع الترجمة الانجليزية E. Evans ص ١٨ راجع الترجمة الانجليزية لآباء

([1]) حرفياً: "لكيما تسمن النفس بالله".

ما قبل نيقية المجلد الثالث ص ٥٥١).

وهنا كما هو واضح، فإن الشركة بين الإنسان والله في يسوع المسيح هي شركة النفس والجسد بسبب وضع الإنسان، ثم بسبب التجسد نفسه. ولذلك من الضروري أن يتغذَّى الإنسان بجسد الرب؛ لكي تنمو نفسه وتكبر في الفهم وفي النضوج. وعندما يلمس الآباء هذا الجانب، فإنهم يؤكدون على تناول الكلمة، أي اللوغوس في الإفخارستيا. لقد خلق هذا مشكلةً وسوءَ فهمٍ لدى الأخوة البروتستانت الذين قَطَّعوا النصوص الخاصة بعمل اللوغوس في الإفخارستيا، وأخذوها كلٌّ لتأييد وجهة نظره. لكن علينا أن ننسى الخلافات القائمة الآن ونعود إلى الآباء بعقل نظيف؛ لأن الآباء لم يعرفوا الخلافات القائمة الآن بالمرة، ولم يحدث جدل عن الإفخارستيا قبل القرن الحادي عشر. وطالما أننا نتحدث عن الذبيحة، فإن الحديث عن الذبيحة يجب أن نقيه من خطأين أساسيين، كلاهما خطير:

١- الوقوع تحت تأثير الحِسّيَّة، وتأكيد حقيقة جسد المسيح ضد كل تفسير روحي، وعلى حساب الجانب الروحي.

٢- الوقوع تحت تأثير الفكر المجرد العقلي، وتأكيد الجانب العقلي ضد كل تفسير يؤكد حقيقة حضور جسد الرب، وعلى حساب حقيقة الإفخارستيا نفسها باعتبار أن يسوع المسيح هو إلهٌ متأنس، أي إلهٌ وإنسانٌ معاً.

ومع تجنب الوقوع في الخطأين علينا أن نتذكر حقيقة أساسية، وهي أن الذبيحة ليست سوى تقديم الفداء للمؤمنين. هذا الفداء، كان مستحيلاً قبل الصليب، وأصبح ممكناً بالصليب وبالقيامة وبالصعود، وتحقَّقَ بكل قوته في يوم الخمسين. فالذبيحة في شكلها الأساسي هي تقدمة للآب عن الإنسانية، ولكن الإنسانية ليس لها دواء أو شفاء أو خلاص إلَّا بهذه الذبيحة، ولا تستطيع أن تدخل إلى حضرة الآب إلَّا بهذه الذبيحة.

لذلك يقول ترتليان، وهو يفسر نص الصلاة الربانية "أعطنا اليوم خبزنا اليومي:

" يمكننا أن نفسر هذا النص روحياً؛ لأننا نطلب ملكوت الله أولاً (متى ٦: ٣٣)؛ لأن المسيح هو خبزنا؛ لأن المسيح هو الحياة، والخبز هو الحياة. وهو يقول: "أنا هو خبز الحياة" (يوحنا ٦: ٢٥). وقبل هذا النص يقول: "والخبز هو كلمة الله الحي النازل من السماء" (يوحنا ٦: ٣٣). وعندما نحسب أن جسده خبزاً، نفهم لماذا قال: "هذا هو جسدي" (متى ٢٦: ٢٦)، ولذلك في طلب "الخبز اليومي"، نطلب الدوام في المسيح وعدم القدرة على الانفصال من جسده. ولأن هذه الطلبة يمكن تفسيرها بمعنى جسدي إلَّا أن معناها لا يمكن ضبطه إلَّا بالعودة إلى المعنى الروحي؛ لأن الرب أوصى أن نصلي من أجل الخبز الضروري للمؤمنين .." (مقالة على الصلاة – الفصل السادس نفس المرجع السابق ص ١٣ وص ٦٨٣).

فإذا كان جسد المسيح هو الخبز، فهو أيضاً جسد الكلمة القادر على أن يهب الحياة، وهذه الهبة تُعطَى في الذبيحة، بل هي الذبيحة نفسها، وهذا ما يدفع ترتليان إلى الحديث عن الصليب والخبز في نصٍ مشهور جاء في أرميا ١١: ١٩ وتُرجم خطأً في الترجمة البروتستانتية الشائعة بيننا، فإن النص العبراني والترجمة السبعينية وسائر الترجمات الأخرى تقرأ النص: "وأنا مثل حمل واثق يُساق إلى المذبح ولم أعلم أنهم تآمروا عليَّ قائلين لنهلك الشجرة وخبزها ونقطعه من أرض الأحياء"[1]. والعلاقة بين الخبز والشجرة أو الخشبة يوضحها ترتليان عندما يسأل مرقيان:

"والآن عندما تقرأ كلمات داود: "الرب ملك على خشبة"

([1]) اعتمدنا على قراءة ترتليان نفسه، وهي صحيحة خصوصاً عند مراجعتها في النص العبراني ثم الترجمة الكاثوليكية المعروفة باسم Jerusalem Bible راجع الحاشية ص ١٢٧٣ وقد استخدم أوريجينوس نفس قراءة ترتليان في شرحه لنفس نص أرميا ١١: ١٩.

(مزمور ٩٦: ١٠)، أريد أن أعرف ماذا تفهم؟ .. إذا لم يكن المسيح هو المقصود بالنص لأنه هو الذي قهر الموت بآلامه على الصليب .. لأنه أغلق تماماً مملكة الموت بموته على الصليب"، (ثم يشرح ترتليان نبوة أشعياء ٩: ٦ علامة الملك على كتفه، وعلى كتفه بالذات؛ لأن المسيح حمل الصليب على كتفه وهو علامة مملكته) "وهذه الشجرة التي يعلن عنها أرميا عندما يتنبأ لليهود قائلاً: "لنهلك الشجرة وخبزها"، أي جسده. لأن الله في إنجيلك يا مرقيان أظهر معنى هذه النبوة عندما دَعَى جسده خبزاً لكي تفهم أنه أعطى جسده صفة الخبز، فإن النبي جعله – بصورةٍ رمزيةٍ – خبزاً" (ضد مرقيان الكتاب الثالث: ١٩).

وفي نفس الكتاب يعود ترتليان إلى نفس النص من أرميا ويشرحه بشكل أوضح عندما يتحدث عن العشاء الأخير، وكيف اشتهى الرب أن يأكل الفصح مع تلاميذه، وهذا يؤكد أنه إنسانٌ حقيقيٌ:

"وعندما اشتهى أن يأكل الفصح برغبة أكيدة عبَّر عنها علانيةً، وجعل هذا الفصح فصحاً له – ولا يليق بالله أن يشترك في شيء لا يخصه – وعندئذ أخذ خبزاً وأعطاه لتلاميذه وجعله جسده عندما قال: "هذا هو جسدي" (لوقا ٢٢: ١٩)، أي هذا مثال جسدي. والمثال لا يمكن أن يوجد إلَّا إذا وُجِدَ جسدٌ حقيقيٌ؛ لأن عدم وجود الجسد أو صيرورة الجسد إلى خيال، تجعل من المستحيل أن يكون للجسد مثالٌ. ولكن إذا ادَّعى مرقيون إن المسيح تظاهر بأن الخبز جسده لأنه لم يكن له جسدٌ في الأصل، فإن هذا يعني أنه أعطانا خبزاً فقط. وبالطبع ما يساعد مرقيون في تأكيد نظريته الخاطئة، وهو أن جسد الرب جسداً خيالياً، أن يمضي إلى القول بأن الذي عُلِّقَ على الصليب كان خبزاً ... ولماذا سمى جسده خبزاً مع

> أنه كان يمكنه أن يختار أي طعام آخر .. إن مرقيون لم يفهم الإشارات القديمة إلى جسد المسيح الذي قال في أرميا (١١: ١٩) والخشبة التي أشار إليها أرميا هي خشبة الصليب الذي صُلِبَ عليه جسده وكما أفاض (المسيح) النور على النبوات القديمة، فقد أوضح ماذا يعني بالخبز لأنه دَعَى الخبز جسده .. ولكيما نفهم أن الخمر هو مثال للدم منذ القديم، علينا أن نعود إلى أشعياء الذي يسأل: "من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بصرة. هذا البهي بملابسه المجيدة في هيئته.. لماذا ملابسك حمراء وثيابك كدائس المعصرة.. " والروح النبوية تتأمل الرب كما لو كان سائراً أمامها في طريق الآلام وقد اتخذ طبيعته (البشرية) اللحمية التي سوف يتألم فيها، ولذلك يصور آلامه ونزيف جسده في شكل الملابس التي صُبِغَت باللون الأحمر.. وكذلك في سفر التكوين عندما يتحدث عن بركة سبط يهوذا الذي طلع منه المسيح حسب الجسد يقول (المسيح) في شخص البطريرك يعقوب "غسل لباسه بالخمر وبدم العنب ثوبه" (تكوين ٤٩: ١١)" (ضد مرقيان الكتاب الرابع: ٤٠).

ويهمنا أن نؤكد حقيقةً أساسيةً، وهي أن حوار ترتليان مع مارقيون لا معنى له ما لم يكن واضحاً أمام أعيننا أن العلاقة الوثيقة جداً بين ذبيحة الصليب والإفخارستيا هي ما يربط بين النبوات وبين تأسيس السر في العهد الجديد. حقيقي أن ترتليان لم يشرح لنا الإفخارستيا بكفاية، واستخدم كلمة لابد وأن نعطيها حقها من الشرح، وهي كلمة "مثال"؛ لأنها استُخدمت عند عدد من الآباء، وفي بعض القداسات القديمة مثل قداس سرابيون وباسيليوس اليوناني.

ماذا تعني كلمة مثال *Symbols* في اللاتينية و τυπος في اليونانية؟

بسبب تفسير البروتستانت (وهم على اختلافهم) أخطأوا في فهم الإفخارستيا،

غير أن البعض منهم في الخارج بدأ يعود تدريجياً إلى فهم الكتاب المقدس والآباء. غير أن البروتستانتية في مصر صلتها مقطوعة بالحركة البروتستانتية العالمية ولا تود لأسباب تاريخية معروفة أن تستفيد من التجديد اللاهوتي البروتستانتي في أوروبا. يقول شيخ مؤرخي الكنيسة في العصر الحديث أدولف هرنك: "المثال هو السر، والسر لا يمكن إدراكه بدون المثال ***Symbol***. ما نفهمه نحن في عصرنا إن كلمة مثال لا علاقة لها بما تمثله، ولكن في العصور الأولى كانت كلمة "مثال" تعني بشكل أو بآخر الحقيقة نفسها التي تمثلها". ويمضي هرنك ليقول: "إن التمييز بين محتوى رمزي ومحتوى آخر حقيقي لعشاء الرب هو غير موجود تماماً في العصور الأولى"[١].

وبالطبع، فإن هذا مهم جداً في إدراك معنى الذبيحة الذي يؤكده كسر الخبز نفسه؛ لأنه "مثالٌ" للحقيقة الحاضرة، وهو جسد المسيح المكسور لأجلنا، والذي لا يمكن كسره من جديد؛ لأنه كُسِرَ مرةً واحدةً، إلَّا أن كسر الخبز هو المثال الذي يعلِن عن هذه الحقيقة، وسوف نعود إلى هذه النقطة عند آباء القرن الرابع وفي القداسات إن شاء الرب وعشنا.

---

[1] A. Von Harnack “History of Christian Dogmas” English Trans. Vol. 2, p. 144.

الفصل السابع

الذبيحة (٥)[١]

استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء

القديس كبريانوس الشهيد (٢٠٠ – ٢٥٨):

يُعد كبريانوس الوجه الكنسي الأصيل لكنيسة شمال إفريقيا. هو أسقف وشهيد، وكلا الصفتين أعطت لكبريانوس حس الراعي وأصالة الحياة المسيحية. ويُعد كبريانوس أحد الذين قاوموا الانشقاق الداخلي في الكنيسة بكل قوة، وأحد الذين شَرَّعوا للكنيسة الجامعة طريقة معاملة المنشقين، وقد حظيت نظرة كبريانوس العميقة باهتمام القديس باسيليوس الكبير، وناقشها في الرسالة القانونية الثانية.

الطقسُ يعبِّر دائماً عن حقيقة روحية حاضرة، ولذلك عندما نراقب الطقس، نرى فيه ما نتذوقه من الرب. ولا يفيد الطقس من مات حسه الروحي. ولذلك يتطلب الطقس – بالذات – حياةً روحيةً قويةً، تستطيع أن ترى في الإشارة، حقيقة الملكوت.

يمكننا أن نرى ذلك بكل وضوح عند كبريانوس، فهو رجل الوحدة الذي يحارب

---

(١) مجلة مرقس — سبتمبر ١٩٧٥ ص ١٤ إلى ١٩.

الانقسام، ولا يستطيع أن يبتعد بالمرة عن الطقوس، ولا عن ذبيحة القداس التي هي كمال الكنيسة ودعامة وحدتها الروحية. يقول كبريانوس:

> "وبعد كل ما قلناه عن وحدة الكنيسة، يجب أن نشير إلى ذبائح الرب نفسه التي تعلِن أن اتفاق المسيحيين نابعٌ من الذبيحة بواسطة المحبة المتأصلة التي لا افتراق فيها. لأن ما يسمِّيه الرب خبزاً، هو ما أُتحِدَ وجُمِع من حبوب القمح المتعددة، أي جسده. والرب يعني أيضاً، شعبنا؛ لأنه حملهم واتحد بهم. وعندما يُسمَّى الخمر، أي ذاك عُصِرَ من عدة عناقيد عنب بعد ما صُفِّيَ وجُمِع، وهو يعني دمه، ولكنه يشير أيضاً إلى قطيعنا الذي اتحد كله وصار واحداً.." (رسالة ٧٥: ٦).

ومن الواضح هنا أن الخبز الواحد، هو الجسد الواحد الذي تآلف من حبوب القمح، وإذا كان الرغيف الواحد يعكس وحدة الكنيسة الداخلية، فإن الكأس أيضاً يعكس هذه الوحدة؛ لأنه عناقيد العنب التي عُصِرت وصارت في الكأس الواحد. ولكن كبريانوس يفسِّر مزج الخمر بالماء في القداس باتحاد الكنيسة بالمسيح، ويعالج هذا الموضوع في الرسالة ٦٢ وهي من القطع النادرة في كتابات الآباء عن هذه النقطة بالذات. ومزج الخمر بالماء في الإفخارستيا يبدو لنا عملاً ساذجاً بسيطاً (إذا فقدنا رؤية الحقيقة الروحية) ولكن كبريانوس يعطي له ذات الأهمية التي يعطيها كل إنسان للوحدة الروحية القائمة بين المسيح والكنيسة.

الرسالة ٦٢:

> ١- "من كبريانوس إلى كاسيليوس *Caecilius* أخيه، التحية. إنني أعرف يا أخي العزيز أن العديد من الأساقفة الذين أُقيموا على الكنائس من قِبَل التنازل الإلهي لربنا، في كل أرجاء

العالم، يتمسكون بتدبير الحق الإنجيلي وبتقليد الرب، ولا يتخلون بإغراءٍ أو اختراعٍ بشري عن الذي أسَّسه وفعله المسيح سيدنا، لكن حيث أن البعض – بسبب السذاجة أو الجهل – عندما يقدِّسون كأس الرب ويقدِّمونه للشعب، لا يفعلون ما فعله يسوع المسيح ربنا وإلهنا مؤسِّس ومعلِّم هذه الذبيحة، الذي فعل وعلَّم معاً ... لذلك يجب التمسك بتقليد الرب، فلا نفعل نحن شيئاً لم يفعله الرب لأجلنا؛ لأن الكأس الذي يُقَدَّم لنتذكره (الرب) يجب أن يُقَدَّم ممزوجاً، أي خمراً وماء. لأن المسيح قال: "أنا هو الكرمة الحقيقية" (يوحنا ١٥: ١٠)، ولذلك دم المسيح بكل يقين ليس ماءً بل خمراً، ولا يظهر في الكأس دمه الذي به خلَّصَنَا والذي به نحيا، إذا لم يكن في الكأس خمراً؛ لأن الخمر هو الذي يُظهِر لنا دم المسيح، وهذا ما يعلنه لنا الرب وبشهادة الأسفار المقدسة.

٤– وملكي صادق الذي أعطى رمزاً لسر ذبيحة الرب، وكما تشهد الأسفار الإلهية، وملكي صادق مالك ساليم أخرج خبزاً وخمراً.. (تكوين ١٤: ١٨)، وهو كاهن الله العلي؛ لذلك بارك إبراهيم. وملكي صادق كان مثالاً للمسيح، لأن الروح القدس يعلن في المزامير ويقول عن لسان الآب للابن: "قبل كوكب الصبح ولدتك. أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق" (مزمور ١١٠: ٤). وهذا الطقس بالتأكيد هو الذي قامت عليه الذبيحة.. ومَنْ هو كاهن الله العلي، أكثر من ربنا يسوع المسيح الذي قدَّم ذبيحة لله الآب، وقدَّم نفس ما قدمه ملكي صادق، الخبز والخمر أي جسده؟

٥– والروح القدس بواسطة سليمان، يُعلن عن مثال ذبيحة الرب، حيث يذكر ذبيحة القربان أي الخبز والخمر، بل المذبح

والرسل: "الحكمة بَنَتْ بيتها وشيَّدته على أعمدتها السبعة، ذبحت الذبائح ومزجت خمرها في الكأس وهيأت مائدتها وأرسلت خدامها تدعو الجميع بصوت عال إلى كأسها قائلة: مَن هو ساذج فليتقرب إليَّ، ولكل ناقص الفهم تقول: تعالوا كلوا من خبزي واشربوا من خمري الذي مزجته لكم" (أمثال ٩: ١-٥)[١]. ويعلن الروح القدس بصوت النبوة، أن الخمر الذي مُزِج بالماء هو كأس الرب، وهذا يؤكد لنا أن ما تم في آلام الرب قد سبق وأخبر عنه الروح القدس.

٦- وفي بركة (يعقوب) ليهوذا يظهر نفس الشيء، أي مثال المسيح، لأن إخوته سوف يسبحونه ويعبدونه، وأنه سوف يُطارِد بيده أعدائه، ويهربون من أمامه أي بيديه اللتين حملتا الصليب وهزمتا الموت، وأنه هو نفسه الأسد الخارج من سبط يهوذا الذي سيربض في آلامه، ولكنه سينهض ليكون رجاء كل الأمم، وإلى كل هذا تضيف الأسفار الإلهية: "غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه" (تكوين ٤٩: ١١)، فإذا أشار إلى دم العنب[٢] فأي شيء آخر يكون سوى خمر كأس دم ربنا؟

٧- وفي أشعياء يشهد الروح القدس لنفس الحقيقة عن آلام الرب ويقول: "لماذا ثيابك حمراء وثيابك كدائس المعصرة" (أشعياء ٦٣: ٢)، فهل تستطيع المياه أن تجعل الثياب حمراء؟ بكل يقين لقد أشار إلى الخمر حتى يتضح لنا أنه يتحدث عن دم الرب الذي أُظهِر بعد ذلك في كأس الرب حسبما سبق الأنبياء وأخبروا

---

(١) هذا النص من سفر الأمثال يقرأ في خميس العهد في القطمارس القبطي وقد أقتبسه القديس كيرلس السكندري في عظته على (لوقا ٢٢: ١٤-٢٣) وتعد إشارة كبريانوس على قدر كبير من الأهمية وتأكيداً لقدم استخدام هذا النص.

(٢) في العبرانية والآرامية كلمة دم وخمر واحد وبالذات النبيذ الأحمر.

عنها (الكأس).. وبالأقدام ندوس ونضغط على المعصرة لكي نعصر العنب أولاً حتى نستطيع أن نحصل منه بعد ذلك على الخمر. كذلك لم يكن ممكناً أن نشرب دم المسيح إلَّا إذا كان المسيح نفسه قد عُصِرَ وضُغِطَ عليه، وإلَّا إذا كان قد شَرِبَ هو أولاً الكأس التي أعطاها هو للمؤمنين ليشربوا منها.

٩- ونحن لا نحتاج إلى براهين كثيرة يا أخي لكي نبرهن على أن إشارات الأسفار إلى المياه هي إشاراتٌ عن المعمودية. ولكن التعليم الذي يستند إلى سلطان ما فعله الرب نفسه -كمثال لنا- يؤكد أن الكأس، يجب أن يكون ممزوجاً باتحاد الماء والخمر؛ لأنه أخذ كأساً في مساء يوم آلامه وباركها وأعطاها لتلاميذه قائلاً: "اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دم العهد الجديد.. لأني أقول لكم أنني لا أشرب من نتاج الكرمة إلى اليوم الذي أشربه جديداً معكم في ملكوت أبي" (متى ٢٦: ٢٨-٢٩).

وفي هذه الفقرة بالذات نجد أن الكأس الذي قدَّمه الرب كان ممزوجاً، وأن هذا الخمر دعاه هو دمه، ولذلك لا يُقَدَّم دم المسيح إذا لم يكن في الكأس خمر، ولا تُقدَّم ذبيحة الرب حسب أصول الطقس إلَّا إذا كانت تقدمتنا وذبيحتنا مثل تلك التي قدَّمها في آلامه. وكيف يمكن أن نشرب من الخمر الجديد مع المسيح في ملكوت أبيه، إذا كانت ذبيحة الله الآب والمسيح خالية من الخمر، أو لم يكن فيها كأس الرب الممزوج حسب تقليد الرب.

١٠-.. لذلك المياه وحدها لا يمكن أن تعلن لنا دم المسيح...".

مزجُ الماء بالخمر هو علامة اتحاد المسيح بالكنيسة:

١٣- ولكن، لأن المسيح حَمَلنا كلنا - وعلى وجه التحديد - عندما حمل خطايانا، لذلك نحن نفهم أن المياه هي الشعب، وفي الخمر يُعلَن دم المسيح. ولكن عندما نمزج المياه في الكأس مع الخمر، يصبح الشعب واحداً مع المسيح، وتصبح جماعة المؤمنين مرتبطةً ومتحدةً به، أي بالذي يؤمنون به، وهذه الرابطة هي كاتحاد الماء والخمر الذي مُزِجَ في كأس الرب، حتى أن هذا المزيج، لا يمكن فصله إلى خمر وماء، ولذلك لا يمكن فصل الكنيسة عن المسيح، أي الشعب الثابت في الكنيسة الذي يتمسك بما تأسس عليه وبما يؤمن به.

لذلك في تقديس كأس الرب، لا يمكن تقديم الماء وحده، ولا يمكن تقديم الخمر وحده، وإذا قَدَّمَ أحدٌ الخمر وحده، فإنه يكون قد عَزَل دم المسيح عنا، أو إذا قدَّم الماء وحده، يكون قد عزل الشعب عن المسيح. ولكن إذا امتزجا معاً واتحدا كلٌ بالآخر في هذا الاتحاد الوثيق، يتم ويكمل السر الروحي والسمائي".

القيمة اللاهوتية للنصوص:

مما لا شك فيه، أن الشهيد كبريانوس يرى بوضوح: أن سبب اتحاد الكنيسة بالمسيح، هو ذبيحة الإفخارستيا التي تجعل المسيح واحداً معنا وفينا، هذه الحقيقة الروحية، هي أساس تمسُّكه بتقديم الكأس الممزوج. وكبريانوس يرى الكنيسة واحداً مثل المزيج الذي لا يمكن فصله، ولكن هذه الوحدة ليست أوتوماتيكية، إنها تتم بالمحبة وبالإيمان، والشعب الذي يرمُز إليه الماء، هو الشعب الحاضر في الكنيسة، والمستعد لقبول كأس الرب.

ولكن هذه الوحدة، قائمة على أساس بشرية المسيح، لأن دمه وجسده، هما العنصر المشترك الوحيد بيننا وبينه.

لكن الأهم من كل هذا، هو أن نفهم كيف أحس كبريانوس بعبارة "هذا اصنعوه لذكري". إن الذكرى هنا هي أن تكون ذبيحتنا مطابقة تماماً لما فعله المسيح، وهو يقول في ذات الرسالة: "وكلما قدَّمنا الكأس لذكرى الرب ولذكرى آلامه، فلنفعل حسبما فعل الرب" (٦٢: ١٦). ومن الكلمات الأساسية عند كبريانوس: "يُعلِن ويُظهِر"، ذلك أن الخمر هو الذي يُعلِن دم المسيح في الكأس. وكبريانوس ليس من أنصار أيٍ من الاتجاهات البروتستانتية بكل تأكيد، لأنه يقول: "كيف نسفك دمنا لأجل المسيح إذا كنا نرفض أن نشرب دم المسيح؟" (٦٢: ١٥)، ولكن دم المسيح هذا، ليس سائلاً نحصل عليه بقدرتنا، إنه في الكأس. وبكل يقين يشدد كبريانوس على أن فراغ الكأس، أو وضع أي سائل آخر غير الخمر الممزوج بالماء، يجعل الكأس فارغةً؛ لأن الذي يعطي هذا الدم هو يسوع المسيح نفسه، وحسب كلمات عهده معنا، ولذلك يجب أن تكون الكأس مملوءةً بالخمر الممزوج. ولكن الخمر يُعلِن أو يُظهِر دم المسيح؛ لأن ذلك الدم المسفوك عنّا، حاضرٌ دائماً، طالما أن شخص يسوع نفسه حاضرٌ على الدوام، ولكن حضور يسوع غير المنظور ودمه غير المنظور، هو حضور يقتضى وجود الكأس كعلامة ظاهرة للحقيقة الأبدية التي تُعلَن في الزمان.

ويمكننا أن نلاحظ بساطة كبريانوس المطلقة، فهو لا يتحدث بطريقة لاهوتية معقدة، يتحدث عن الخمر والدم، الخبز والجسد بدون أن يدخل في تفاصيل صارت – بعد الجدل اللاهوتي في القرن الثالث عشر في الغرب والقرن السادس عشر، ثم الثامن عشر في الكنيسة الأرثوذكسية – أساسية، ولذلك يتحدث كبريانوس عن ذبائح الرب مستخدِماً صيغة الجمع عدة مرات، وهو على صواب؛ لأنه يعني القداسات نفسها، ويمكننا أن نتأكد من هذا إذا قرأنا بدقة ذلك النص: ".. يجب أن نشير إلى ذبائح الرب نفسها التي تُعلِن أن اتفاق المسيحيين نابعٌ من الذبيحة" (٧٥: ٦). وفي رسالة ٦٢ يقول: "ونحن نذكر آلامه في كل الذبائح؛ لأن آلام الرب هي الذبيحة التي نقدِّمها"

(٦٢: ١٧).

ومع وجود صيغة الجمع والمفرد معاً في سطر واحد، يمكننا أن نتأكد أن كبريانوس يعني القداسات نفسها. ولعل قيمة استخدام صيغة الجمع، هو التأكيد على الذبيحة نفسها كعمل أساسي، يجعل الصلوات نفسها والاحتفالات نفسها، تأخذ اسمها من العمل العظيم الذي عمله يسوع لأجلنا على الصليب. وكبريانوس مثل ترتليان يفسر نص الصلاة الربانية، على أنه الإفخارستيا، وهو كما ذكرنا في المقالات السابقة التفسير الشائع في الشرق.

يؤكد كبريانوس على أهمية الإفخارستيا الروحية، وأنها هي سلاح الشهداء، ولذلك يجب أن يأكل المؤمنون منها يومياً، ولعل الإشارة إلى الاحتفال بسر الشكر يومياً وردت لأول مرة في كتابات آباء شمال إفريقيا عند كبريانوس (رسالة ٥٣: ٣).

وفي زمان كبريانوس كان جسد الرب يوضع في يد المتناول، حتى وإن كان علمانياً، ولاحظ كيف يصف كبريانوس هذا الأمر:

> "لنسلِّح اليد اليمنى بسيف الروح حتى ما ترفض بشجاعة ذبائح الأوثان المميتة، وعندما نتذكر الإفخارستيا، تمتد اليد التي أخذت جسد الرب إلى الرب نفسه وتأخذ في الدهر الآتي من الرب نفسه مكافأة الأكاليل السمائية" (رسالة ٥٤: ٩) (النص الانجليزي نشر في المجلد الخامس من مجموعة آباء ما قبل نيقية ص ٣٥٠).

وفي مقالته المشهورة عن امتياز الجَلَد أو الصبر يقول:

> "ليكن صبركم قوياً ثابتاً في القلب حتى لا يتدنس الجسد المقدس وهيكل الله بالعبادة الوثنية. كذلك لا تتسخ البراءة النابعة من البر بالغش ولا تتلطخ اليد التي حملت الإفخارستيا بالسيف أو سفك

الدم" (مقالة ٩: ١٤، نفس المرجع ص ٤٨٨).

عندما حوكم كبريانوس قال الوالي:

"قرارنا أن ثاسليوس كبريانوس يقتل بالسيف".

أجاب كبريانوس "Deo Gratlas الشكر لله".

وهذه هي الإفخارستيا والذبيحة الحقيقية.

الفصل الثامن

الذبيحة (٦)[١]

استعمال كلمة "ذبيحة" في كتابات الآباء

القديس أكليمنضس السكندري (من ١٩٢ – ٢١٧)

لا زال أكليمنضس السكندري، مثل كيرلس عمود الدين، يحتاج إلى من ينصفه ويرد له اعتباره الذي خدشه الغرب عليه ... ولكن مما لا شك فيه أنه أول عمالقة الإسكندرية. وهو وإن كان قد درس على بنتينوس *Pantaenus* حسب رواية يوسابيوس القيصري (تاريخ الكنيسة كتاب ٦: ١٣)، إلَّا أنه عندما كتب أهم مؤلفاته اللاهوتية، وهي أقدم ما وصلنا من مدرسة الإسكندرية، لم يكن قد استرشد بكتب أحد من الذين سبقوه أو ألهمته مؤلفات غيره، ليرتفع إلى مستوى أعلى من مستوى مدرسيه. هذه النقطة لا يجب أن تفوتنا بالمرة عندما ندرس الآباء. إن الذين ارتادوا طريق معرفة أسرار الروح، أي الرواد الأوائل، كانوا بمفردهم، وهؤلاء شقوا الطريق لغيرهم. وسيظل دائماً كل رائدٍ عرضةً للأقاويل، ولكنه سيظل كذلك أول من شق الطريق في عالم الفكر غير المحدود.

([١]) مجلة مرقس – ديسمبر ١٩٧٥ ص ١٤ إلى ص ١٧.

الإفخارستيا والتجسد:

اعتبر البعض أكليمنضس السكندري من مؤيدي تفسير زوينجلي[١] *Zwingli* بل حاول القس واطسن في كتابه "أصول الإيمان" أن يدعو الأقباط إلى اعتناق عقيدة الكنيسة البروتستانتية مدعياً أن أكليمنضس السكندري وأوريجينوس قد علَّما بأن الإفخارستيا عشاءٌ رمزي.

ومن بين كل الغربيين، واحدٌ فقط تحدث عن أكليمنضس باعتدال، وقدَّم تعاليمه بدون أن يتجنى عليه[٢].

وفي الواقع إذا عزلنا ما يذكره أكليمنضس عن الإفخارستيا، من باقي الموضوعات والعقائد، وأخذنا هذه النصوص على حدة، فإننا نجد أنفسنا أمام مزيج غريب من الأفكار تكاد تقول لنا بأن أكليمنضس لم يكن له رأي أرثوذكسي إزاء الإفخارستيا. وقد وقع في هذا الخطأ بعض علماء الآباء[٣]. ولكن علينا أن نتذكر دائماً إن الإفخارستيا قائمة على الإيمان بحقيقة التجسد، أي أن للرب جسد حقيقي ودم حقيقي، وهو ما نحصل عليه للاتحاد به.

يقول أكليمنضس:

> "ولكن من الجانب الآخر اسمع المخلص يقول: ".. لقد ولدتك مرةً ثانيةً أنت يا من كنت مريضاً مولوداً في عالم الموت. أنا

---

(١) أحد قادة حركة الإصلاح في أوروبا وله موقف معروف من سر الشكر عارض فيه مارتن لوثر بشدة وكان زوينجلي أكثر تطرفاً من لوثر لأنه أنكر أي قيمة روحية للخبز والخمر وأعتبر هذه العناصر مجرد رموز تذكر الإنسان بالمعنى الروحي لموت المسيح – راجع.R. Seeberg “History of Doctrines” Vol. 2. pp. 319 f

(2) J.N.D. Kelly “Early Christian Doctrines” p. 153 and 213

(3) J. Oulton “Holy Communion and Holy Spirit” London, 1951.

سأريك وجه الله الآب الصالح، لذلك لا تدعو لك أباً على الأرض، بل دع الموتى يدفنون موتاهم. أنا سوف أقودك إلى الراحة وإلى بركات لا يُعبَّر عنها، ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب إنسان، ما تشتهي الملائكة أن تنظره، لترى ما هي الأشياء الصالحة التي أعدها الله لقديسيه الذين يحبونه (١ كورنثوس ٢: ٩ – ١ بطرس ١: ١٢). أنا هو الذي يغذِّيك لأنني أعطي نفسي لك خبزاً، كل مَن يأكله لا يذوق الموت، وأنا الذي أقدم كل يوم شراب عدم الموت. أنا معلِّم الدروس السمائية، لأجلك أنا قبلت الموت، ودفعت عنك موتك الذي كان يملك عليك بسبب خطاياك السابقة وعدم إيمانك بالله" (من هو الغني الذي يخلص ٢٣: ٤ النص الانجليزي ص ٥٩٧ – ٥٩٨).

وتقديم الرب لنفسه واضح جداً، لأنه خبز الحياة الذي نأكله، وكلمة "تقدمة" كاسم للإفخارستيا، تظهر بوضوح عند أكليمنضس عندما يتحدث في الفصل ١٩ من كتاب "المتنوعات" عن عدم كفاية الفلسفة لمعرفة الله، وأن الفلسفة تُعلِّم الهراطقة والشيع كيف يجادلون بكفاية ويبتعدون عن الحق، وهؤلاء الهراطقة هم الذين "يستخدمون الخبز والماء فقط في التقدمة βροσφορα [1] وليس حسب قانون الكنيسة، وهناك من يحتفل بالإفخارستيا بالماء فقط" (المتنوعات ١: ١٩ ص ٣٢٢).

وفي الكتاب الرابع من المتنوعات وفصل ٢٥ يتحدث أكليمنضس عن حياة الفضيلة وعن ضرورة اكتشاف أن الأيام السبعة للتطهير في ولادة الأطفال، هي مرتبطة أصلاً بالأيام السبعة التي تمت فيها الخليقة، ويقول أكليمنضس: "في اليوم السابع احتفل بالراحة، ولكن في اليوم الثامن، يأتي بالمصالحة كما هو مكتوب في حزقيال[2]، لأنه

([1]) ابروسفورا تعني تقدمة – ذبيحة. لأن كل ما يقدم لله هو ذبيحة.

([2]) لم يقتبس أكليمنضس نص حزقيال لكنه كان يعني (حزقيال ٤٤: ٢٦-٢٧) حيث يقول الرب لحزقيال "سبعة أيام

حسب خدمة المصالحة هذه أخذنا العهد .." (المتنوعات ٤: ٢٥). ويمضي بعد ذلك ليشرح في نفس الفصل كيف أن "رفقة" تعني "مجد الله"، ومجد الله هو عدم الموت. وهذا في الواقع هو البر الذي لا نطلب سواه، والذي يتحقق إذا صرنا هيكلاً مقدساً للرب. والبر هو سلام الحياة والانضباط الذي انطلقت إليه رفقة عندما قال لها الرب: "اذهبي في سلام" (مرقس ٥: ٣٤). وسالم تعني السلام الذي وُصِفَ مخلصنا بأنه "ملك السلام"، حسبما يقول موسى. وملكي صادق ملك ساليم كاهن الله العلي الذي قدَّم خبزاً وخمراً كرمز، يخبر بالطعام المقدس، أي الإفخارستيا" (المتنوعات ٤: ٢٥ - ١٦١).

ورغم أن عناصر الإفخارستيا الأساسية تجتمع في هذا الفصل كما هي واضحة لنا: اليوم الثامن - المصالحة - تقدمة ملكي صادق، إلَّا أن أكليمنضس بالذات لا يشرح لنا ماذا يقصد من كل هذا. ومفتاح هذه المشكلة عند أكليمنضس بالذات موجود في كتابات أكليمنضس، ففي هذا الفصل ٢٥ من الكتاب الرابع يقتبس أكليمنضس ستة نصوص من الأدب اليوناني القديم، من هوميروس ويوريبيدوس، وهو يفعل هذا لكي يفتح المجال أمام اليونانيين لدراسة المسيحية، ولذلك السبب وحده أشار بطريقة غامضة للإفخارستيا. ولكن أكليمنضس، المعلم الكنسي الصادق، يعرف أن قانون الكنيسة يجب أن يطاع وأن السكوت عن الحديث عن الأسرار واجب.

الإفخارستيا واللوغوس:

قبل أن نكتب أي شيء عن الإفخارستيا واللوغوس، يلزمنا أن نقرأ هذا النص من الفصل ٢ من الكتاب الثاني المعروف باسم "المؤَدِّب"[1]:

يكفرون عن المذبح ويطهرونه ويملأون يده. فإذا تمت هذه الأيام يكون في اليوم الثامن فصاعداً أن الكهنة يعملون على المذبح محرقاتكم وذبائحكم السلامية فأرضى عنكم.." لكن الإشارة إلى اليوم الثامن أي يوم الرب وهو يوم قيامة الرب واجتماع الإفخارستيا.

[1] الكلمات بين الأقواس ليست موجودة في الأصل وقد أضيفت للإيضاح.

"الخمر المقدس يُعصر في معاصر الأنبياء. وكان علامةً لبني إسرائيل الذين تهذَّبوا وعرفوا الفرق بين التجوال والراحة، وكان عصره يشير إلى اللوغوس الذي جُرِحَ لأجلنا، لأن دم العنب أي اللوغوس، أراد أن يمتزج بالماء لأن دمه مُزِجَ بالخلاص. ودم الرب له معنيان. أي دم جسده الذي به افتُدينا من الفساد، (والدم) الروحي الذي به مُسِحَنا، وشُرْب دم يسوع يعني، أن تصبح مشتركاً في خلود الرب؛ لأن الروح (لاهوت اللوغوس) هو العنصر الفعال مثلما الدم هو حياة الجسد، وكما يُمزج الخمر بالماء كذلك يُمزج "κρασις" الروح بالإنسان، ولكن المزيج الواحد من الخمر والماء يغذِّي الإيمان بينما (مزيج الروح بالإنسان الذي يتناول، يقود إلى الخلود. ومزيج الماء واللوغوس معروف ومشهور باسم الإفخارستيا وهو نعمة مجيدة. والذين يقتربون بالإيمان ويشتركون فيه يتقدسون في الجسد والنفس معاً. الإنسان مخلوق إلهي مركب ولذلك مزجت إرادة الآب (بطريقة) سرية: الروح واللوغوس. وبالحقيقة الروح يتصل بالنفس لأن النفس تأخذ إلهامها منه، أمَّا الجسد فهو يتصل باللوغوس لأن اللوغوس أخذ جسداً".

ومما لا شك فيه أن هذا الشرح السري *Mystical* مبنيٌ على طقس مزج الخمر بالماء في الإفخارستيا، وقد أشار إليه الشهيد يوستينوس في كتاب الدفاع (١: ٦٥) قبل أكليمنضس بحوالي ٦٠ سنة على الأقل. ولكن أكليمنضس لا يقف عند مجرد الحديث عن الطقس، بل يواصل شرحه لعلاقة النفس الإنسانية بالروح القدس الذي يعمل في الإنسان ويلهمه، ثم علاقة التجسد بالابن المتجسد، وهي علاقة قائمة أساساً على التجسد، أي أنه بسبب التجسد يُقدَّس جسد الإنسان من الكلمة (اللوغوس المتجسد) ومزج الخمر بالماء هو مزج عنصرين مثل عنصري الإنسان الواحد: الروح والجسد. وكما صار الخمر والماء واحداً، هكذا الإنسان المركب يصبح واحداً مع الكلمة.

الفصل التاسع

الذبيحة (٧)[١]

القديس أكليمنضس السكندري

(من ١٩٢ – ٢١٧)

الإفخارستيا واللوغوس:

إذا تذكرنا أن مجيء الكلمة – اللوغوس – هو لشفاء الإنسانية، ليس من الخطية والموت فقط، بل من عدم معرفة الإنسانية بالله. هذا الجهل المتأصِّل في الطبيعة الإنسانية هو إحدى النتائج المباشرة لفقدان الإنسان لشركته مع الله.

وعندما فَقَدَ الإنسان معرفته بالله، أصبح عاجزاً تماماً عن إدراك الله أو الوصول إلى معرفةٍ يقينيةٍ عن الله، ولذلك جاء الرب الكلمة لكي يمنح الإنسان معرفةً أكيدةً بالله. ويعود أكليمنضس أكثر من مرة إلى سفر التكوين، لكي يشرح حقيقة العلاقة بين الإنسان والله. ذلك أن الله عندما خلق الإنسان، أعطاه العقل، أي القدرة على النطق –

---

(١) مجلة مرقس – يناير ١٩٧٦ ص ٢٠ إلى ٢٢.

وهي تعني القدرة على التفكير – وهذا بلا شك هو اشتراك الإنسان في اللوغوس الابن الأقنوم الثاني في الثالوث. وفي نص فريد يصعب ترجمته إلى العربية يقول أكليمنضس:

> "الإنسان خُلق على صورة الله (وهذه الصورة الإلهية) ليست هي شكله المادي الظاهر، وإنما كما أن الله خلق كل الأشياء بكلمة، كذلك وهب الإنسان الصالح الذي تربى في ظِل اللوغوس أن يكون على صورة الله، أي أن يعمل كل الأشياء الصالحة بما وُهِبَ من مقدرة على الإدراك والفهم" (المتنوعات ٦: ١٦ – النص الانجليزي ص ٥١٢ غير دقيق).

وهنا علينا أن ندرك أن λογος اللوغوس – الكلمة – إدراك الله، وهذا الإدراك له ما يقابله في الإنسان – العقل أو ***Faculty of reason*** وفي اليونانية λογικω وهو شعاع الكلمة، وعمل الروح القدس في الإنسان (المتنوعات ٥: ٣٠)، وهذه المنحة هي النفخة الإلهية (تكوين ٢: ٧) التي مُنِحت للإنسان.

فإذا كان المسيح الكلمة قد جاء من أجل الخلاص، فهو يبث الحياة والحق للإنسان، وينقذ الإنسان من الضلال بالمعرفة، ولذلك فإن الإفخارستيا هي اختبار معرفة اللوغوس، هي تجديد خلق الإنسان واشتراكه في الحياة الإلهية "لأنني أعطي نفسي لك خبزاً كل من يأكله لا يذوق الموت ..." (راجع الفصل السابق).

التناول هو اختبار معرفة الله، وهذه النقطة بارزة جداً في كتابات أكليمنضس السكندري. إنه ليس طعاماً عادياً ولكنه خبز الخلود، وما النص الغريب الذي أخذناه من الفصل الثاني من الكتاب الثاني المعروف باسم المؤدِّب سوى شرحاً سرياً يوضح علاقة المتناول باللوغوس المتجسد. ليس التناول اتحاداً آلياً أو ميكانيكياً يتم خارج وعي الإنسان وإدراكه، بل هو تعرُّفٌ على اللوغوس المتجسد، وهذا الهدف غير الظاهر بوضوح يُعَقِّد أسلوب أكليمنضس ويجعل فهم النصوص صعباً، لا سيما تلك التي تُنتزع من وسط فصل كامل، ولعل خير مثال على ذلك هو الفصل السادس من الكتاب الأول

المعروف باسم المؤدِّب. في هذا الفصل بالذات يشرح أكليمنضس علاقة المعمودية بالإيمان، ويؤكد على أهمية إزالة ما يحجب مشاهدة الله بوضوح، ويرى في نزول الروح من السماء علامةً على مجيء المعونة الإلهية لتفتح عقل الإنسان لكي يقبل أسرار الله (راجع النص الانجليزي ص ٢١٦). ويعود أكليمنضس إلى هدفه الأساسي، وهو معرفة الله، وهذه المعرفة لا تُقَدَّم بشكلٍ آلي لكل الناس. بعض الناس يحتاجون إلى اللبن فقط، والبعض إلى الطعام الكامل (اللحوم)، والقاعدة التي يستند عليها أكليمنضس هي نص الرسول بولس: "وأنا أيها الأخوة، لم أستطع أن أكلمكم كروحيين.. بل كأطفال في المسيح، لقد غذوتكم باللبن لا بالطعام لأنكم لم تكونوا بعد قادرين على ذلك.." (١ كورنثوس ٣: ١–٢). والأطفال هم الذين لم يَصِلوا إلى معرفة سليمة كاملة عن أمور المسيح وأسراره، هؤلاء يغذيهم الابن اللوغوس، ولنقرأ هذا النص بعناية:

> "لقد دَعَي (الرسول) الذين آمنوا بالروح القدس، روحيين، أمَّا الذين أخذوا التعليم دون أن يتطهروا، دعاهم جسديين، وهؤلاء بالحق وُصِفوا جسديين؛ لأنهم يفكرون مثل الوثنيين ويهتمون بأمور الجسد وهؤلاء (يقول عنهم الرسول) "فإنه إذ فيكم حسد وخصومة ألا تكونوا جسديين، وبحسب البشرية تسلكون" (١ كورنثوس ٣: ٣)؛ لذلك "أنا أعطيتكم لبناً لتشربوا". وهذا يعني، لقد وضعت فيكم المعرفة التي تغذيكم للحياة الأبدية، ولكن التعبير "أنا أعطيتكم شراباً"، وهو رمز لقبول التعليم بالكامل، لأن الأطفال لا يشربون، وإنما يرضعون فقط، والرب يقول: "دمي شراب حقيقي" (يوحنا ٦: ٥٥)[١] (المؤدب ١: ٦ ص ٢١٨).

وبالطبع إن وجود نص عن الإفخارستيا في وسط هذا الكلام، يجب أن نفهمه في الإطار العام الذي يتحدث فيه عن الإنسان وحاجته إلى اللوغوس.

---

(١) أي شراب البالغين لا شراب الرضعان الذين لا يشربون بل يرضعون.

والمشكلة التي يعالجها أكليمنضس هي تأكيده على أن اللوغوس هو "اللبن" ويقول:

"ليس طعاماً لأنكم لا تحتملون الرؤيا الواضحة التي للدهر الآتي، أي وجهاً لوجه (١ كورنثوس ١٣: ١٢)؛ ولذلك أضاف (الرسول) لأنكم لم تكونوا بعد قادرين.. لأنكم بعد جسديون". والطعام الذي نأكله ليس هو طعاماً مادياً، ولذلك الرؤيا الواضحة عن الأمور الإلهية، ليست مجرد شكل تراه النفس، بل الحق الذي يُغرس في النفس، وهذا ما تتغذى عليه النفس البشرية".

ولعل ما كان يخشاه أكليمنضس، هو أن يفهم البسطاء الدم والجسد في الإفخارستيا بمعنى مادي حسي، وهو بالطبع عكس ما يقصده الرب تماماً، وبالذات في حديثه الطويل في يوحنا ص ٦ ولهذا السبب نفسه يقول أكليمنضس:

"الكلمة نفسه سائلٌ مثل اللبن، جامدٌ مثل الطعام، وإذا قَبِلنا هذا التفسير، فإننا نرى أن الكرازة بالإنجيل في العالم، تُقدَّم مثل اللبن، بينما الإيمان وهو أساس الكرازة هو الطعام الجامد، لكن الإيمان يجيء من التعليم الذي هو أساس الإيمان الذي تتغذى عليه النفس، وفي مكان آخر قال الرب في إنجيل يوحنا عندما قال: "كلوا جسدي واشربوا دمي" (يوحنا ٦: ٥٤)، وقد وصف وميَّز في وصفه بطريقة سرية مزايا الإيمان الذي تشربه الكنيسة بوعد (الرب) لأنها مثل إنسان مكون من أعضاء تغتذي وتتصل ببعضها بالإيمان، أي الجسد، وبالرجاء أي النفس، تماماً مثل الرب الذي عندما تجسد، صار له جسد ودم، وفي الواقع أن دم الإيمان هو الرجاء الذي يظل العنصر الفعال في الإيمان، ولكن إذا انتهى الرجاء ينزف الإيمان، أي تنتهي تماماً فاعلية الإيمان" (نفس المرجع ١: ٦ ص ٢١٩).

هنا علينا أن ننتبه إلى أن أكليمنضس يرى الدم، الحياة أو العنصر الفعال أو الإيمان، وهو يؤكد هذا في الفقرة التالية لهذه الفقرة "الدم هو أهم عنصر في الإنسان وقد سماه البعض جوهر النفس".

الإفخارستيا ليست وليمة حِسِّيَّة ينتهي فيها عمل الإيمان، بل وليمة روحية، ولكن أكليمنضس لا يهرب من حقيقة الإفخارستيا إلى خواء الاستعارات، بل يقول بكل وضوح:

> "الذي يأكل، يأكل للرب ويحفظ الإفخارستيا مع الله،
> ولذلك الطعام الذي نأكله بكل تقوى هو ما نسميه الإفخارستيا"(١)
> (المؤدِّب ٢: ٣).

إن أهم ما يقدمه أكليمنضس إلى اختبار الكنيسة هو التناول لتذوق اللوغوس نفسه كغذاء للنفس، هو استمرار عطاء اللوغوس للإنسانية، ذلك العطاء الذي تحمله المحبة الإلهية الدائمة والتي لا تتغير.

إن الذبيحة ليست آلام الرب فقط كما رأينا عند كبريانوس، وليس أثر الذبيحة على حياتنا هو التطهير من الخطايا فقط كما رأينا عند اغناطيوس الأنطاكي وايريناوس، بل الذبيحة هي معرفة الابن الوحيد اللوغوس الذي هو الغذاء الحقيقي للنفس، وكما يقول أكليمنضس:

> "إن اللوغوس صار بسبب التجسد، الغذاء الذي يقدِّمه
> دائماً لكل أصحاب الأجساد" (المربي ٢: ١٠).

ولا يمكن أن يتم تناول اللوغوس بشكل حقيقي، وكهبة إلَّا في الإفخارستيا،

---

(١) لم تتم ترجمة هذا الفصل إلى الانجليزية لصعوبة النص اليوناني.

ويعكس القداس القبطي كل هذه الأبعاد، وإن كان تركيز الكنيسة اليوم على قضية المغفرة قد فاق كل شيء إلَّا أن نص صلاة القسمة للقديس كيرلس السكندري يذكرنا بجوانب أخرى أساسية:

"أنر عقولنا لنعاين سبحك، نق أفكارنا واخلطنا بمجدك..
أظهر في نفوس عبيدك مجد أسرارك الخفية وعند إصعاد الذبيحة على مذبحك تضمحل الخطية من أعضائنا بنعمتك وعند نزول مجدك على أسرارك تُرفع عقولنا لمشاهدة جلالك.. الخ" (قسمة يا حمل الله، راجع الخولاجي المقدس، طبعة دير السيدة العذراء (المحرق)، ص ٦١٠ وما بعدها).

ملحق(٢)

الكنيسة الجسد الواحد،

العقيدة، والاختبار الليتورجي[١]

([١]) مقالة نُشرت في الكتاب السنوي الثاني بعنوان الحياة الليتورجية – إصدار بيت الشمامسة القبطي بالجيزة، أكتوبر ١٩٧٨ ص ٢٣ إلى ٣٨.

الكنيسة الجسد الواحد،

العقيدة، والاختبار الليتورجي

تمهيد:

الكنيسة ليست جماعة، ولا هي مثل الجسد، الكنيسة أرفع من كل هذا؛ لأنها جسد المسيح. والرسول بولس في (١ كورنثوس ١٢: ١٢ – ٢٧) لا يقول إن الكنيسة تشبه جسد المسيح، أو مثل الجسد المؤلَّف من أعضاء، ولكن الرسول كان في غاية الدقة لأن يؤكد: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجَسَدُ الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَاداً" (١ كورنثوس ١٢: ٢٧). ولذلك، الكلام عن الجسد لا يأتي بشكلٍ عام في كتابات القديس بولس، بل بكل دقة يؤكد الرسول أن المسيح والكنيسة جسد واحد، وأننا لكي نفهم هذه الحقيقة علينا أن نقارن بين الجسد كما نراه وبين المسيح لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكل أعضاء الجسد الواحد رغم أنها متعددة هي جسد واحد، كذلك المسيح (١ كورنثوس ١٢: ١٢)، فالمسيح والكنيسة جسد واحد لا يختلف عن الجسد البشري.

نوعِ الوحدة:

الوحدة التي نتحدث عنها هي وحدة طبيعية، قائمة على حقيقة اتحادنا بالمسيح، فهو قد شاركنا اللحم والدم: "فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضاً كَذلِكَ فِيهِمَا" (عبرانيين ٢: ١٤). شركة المسيح في طبيعتنا هي شركة طبيعية لأنه صار

واحداً منّا، مثلنا في كل شيء "يُشْبِهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ" (عبرانيين ٢: ١٧) وأيضاً "لأَنَّ الْمُقَدِّسَ وَالْمُقَدَّسِينَ جَمِيعَهُمْ مِنْ وَاحِدٍ، فَلِهذَا السَّبَبِ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِخْوَةً" (عبرانيين ٢: ١١). هذه الوحدة قائمة على أساس أن الكل واحد في آدم الأول، ومن ثمَّ صارت الوحدة الجديدة على أساس أن الكل واحد في آدم الثاني (رومية ٥: ١٢ – ٢١)، ولذلك المسيح آدم الثاني، يجمع الكل معاً في واحد وهو نفسه لا يتغير "لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ" (يوحنا ١١: ٥٢).

لذلك كما اشتركنا في آدم الأول، نشترك في آدم الثاني، وتصبح وحدتنا في آدم الثاني أقوى بكثير من الوحدة الأولى. هذه الوحدة في آدم الثاني هي الكنيسة، وهي جسد المسيح.

ولكن هذه الوحدة، هي سرية أيضاً؛ لأن الناحية الطبيعية تؤهّلنا لأن نشترك في المسيح بشكل طبيعي مثل اشتراكنا في طبيعة آدم الأول، ولكننا لا نملك هذه الشركة إلّا بالإيمان وبالحياة المسيحية الحقة، إنها قائمة على عمل الروح القدس فينا، لأن الروح وحده هو الذي يجعلنا أعضاء في الجسد الذي هو المسيح "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ" (١ كورنثوس ١٢: ١٣). هذه الوحدة مهيَّأة وجاهزة ولكنها تحتاج إلى الممارسة، وهذه الممارسة تنبع من الحياة ومن الأسرار. كلما أخذنا من الأسرار كلما ازدادت الوحدة، وكلما ازدادت الوحدة ازدادت مفاعيل الأسرار فينا. ولذلك عندما نأخذ جسد المسيح الواحد في القداس نقول: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك (أسرارك) طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً.." (صلاة بعد حلول الروح القدس). ذلك أن المسيح يجمع الكل معاً لكي تتم المحبة.

خطأٌ رهيبٌ ذلك الذي شاع بيننا وجعلنا نفهم الخطية بمعنى قانوني، بمعنى أنها تعدي فقط، دون أن ندرك أن الخطية تُفَرِّق الجماعة وتزرع الانقسام، وهذا هو غاية ومعنى كلمة "جسداني" (١ كورنثوس ٣: ٣)، ولذلك فالخلاص هو خلاص الجماعة، هو الممارسة الواحدة التي تجعل كل المؤمنين حقاً في وحدة. ولذلك لا نفكر اليوم بكل أسف

في معنى السلوك الكنسي السليم، أي السلوك في سبيل الوحدة، وكل ما نتحدث عنه كفضائل وكخطايا يحتاج إلى مراجعة. لأن الإنسان لا يتطهَّر بشكل كامل إن عاش في عزلة، وإنما يتطهر تماماً إن عاش عضواً في جسد المسيح.

في الكتاب المشهور – راعي هرماس – وهو مِنْ مؤلفات القرن الثاني، رأى هرماس الكنيسة مثل برج مبني من حجارة حية وفي أثناء البناء يرفع كل حجرٍ الحجر الذي يعلوه لكي يرتفع البناء ويكمل. ويُلاحِظ هرماس أن كل حجر ينزلق بسهولة فوق الحجر الذي تحته لأن كلاهما قد قُطِعَ ونُحِتَ وليس فيه نتوءات حتى أن البرج عندما بُني لم يعد أحد يلاحظ أن البرج مبنيٌ من عدة أحجار، بل من حجر واحد (الرؤيا الثالثة: ٢ و ٦ – ٨). الحجارة الحية تعبيرٌ مأخوذ من (١ بطرس ٢: ٥)؛ لأن الكنيسة هي بناءٌ حي، ولذلك نرى في بقية الرؤيا حجارة لامعة جيدة مستديرة رفضها البنَّاء؛ لأن استدارتها معناه العزلة، والعزلة هي إحدى جوانب الخطية التي لا نتحدث عنها. عزلة الاكتفاء بالذات، وعزلة الخوف من الموت؛ لأن الخوف من الموت هو مصدر الأنانية عندما يظن الإنسان أن الاحتياط والعزلة يدفع عنه خطر الموت.

الكنيسة كمثال للثالوث على الأرض ولكنها – كمثال – تأخذ وحدتها من الثالوث:

يُعد الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا من النصوص الهامة عن علاقة الكنيسة بالثالوث، حيث يؤكد ربنا أن الكنيسة سوف تصبح واحداً عندما قال: "أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ" (يوحنا ١٧: ١١). ومن المؤكد أن وحدة الثالوث الكاملة والتامة بين الآب والابن والروح القدس هي المثال الذي يتطلع إليه المؤمنون بالمسيح للوصول إلى أعمق درجات الوحدة وكمالها. يعلق القديس كيرلس السكندري على هذا النص بقوله:

"إنه يريد أن يحفظ تلاميذه في اتحاد العقل والهدف كما لو

كانوا قد جُمعوا معاً وصار لهم نفس واحدة وروح واحد هو روح المحبة الأخوية، وأن تربطهم معاً رابطة المحبة القوية التي لا تنكسر لكي يكمل اتحادهم وتصبح رغباتهم موحَّدة مشابهة للوحدة الطبيعية بين الآب والابن، وتبقى غير منقسمة ولا منفصلة ولا يقوى عليها شيء من قوات هذا العالم ولا رغبات الجسد وشهواته التي تقود إلى الاختلافات وتعدد الأهداف، بل يبقى اتحادهم في التقوى والقداسة وبقوة المحبة الكائنة فيهم. وقد قرأنا عن هذا في سفر الأعمال "وكان لجميع الذين آمنوا قلبٌ واحدٌ ونفسٌ واحدة" (أع ٤: ٣٢) وهذا الاتحاد من الروح القدس، وهو ما يعبر عنه الرسول بولس بوضوح عندما قال: "جسد واحد، وروح واحد لأننا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح لأننا جميعاً نتناول من الخبز الواحد" (١ كورنثوس ١٠: ١٧). ونحن الذين أخذنا المسحة من الروح الواحد، أي روح المسيح، نصبح واحداً مثلهم (الرسل) جسد واحد؛ لأننا نشترك في نفس الروح. وهكذا أراد المسيح أن يحفظ الآب تلاميذه في وحدة الروح حتى لا يقدر أحد أن يفرِّقهم، وفي العقل الواحد غير المنقسم unbroken singelness of mind ومن يقول إن التلاميذ اتحدوا وصاروا واحداً مثل الآب والابن في الجوهر، في الإرادة، لان طبيعة الله القدوس لها إرادة واحدة، فهو ليس بعيداً عن الحق؛ لأننا نرى ذات الهدف الواحد عند المسيحيين الحقيقيين، إلَّا أننا لسنا مولودين من ذات الجوهر مثل ولادة الابن من الآب الذي هو منه وفيه" (تفسير يوحنا ١٧: ١١ الكتاب ١١: فصل ٩).

وكأن القديس كيرلس السكندري فيما هو يؤكد وحدة جميع المؤمنين، يُذَكِّرنا أن قوة هذه الوحدة لا تجعلنا سوى مثال، والمثال دائماً لا ينطبق على الحقيقة التي يمثلها تماماً؛ لأن الابن مولود من ذات جوهر الآب منذ الأزل أو قبل كل الدهور، وهذا هو ما

يجعلهما واحداً، أما نحن، فإن وحدتنا تتم في الزمان وتأخذ قوتها من عمل الروح القدس، ومن وحدة الحياة المسيحية، وتماثل الهدف عند المسيحيين الحقيقيين، كما أنه لا يوجد بيننا مَن هو مولود من ذات جوهر الآخر. على أية حال، لقد عالج القديس كيرلس السكندري هذه النقطة بوضوح عندما فسَّر يوحنا ١٧: ٢٠ – ٢٢ "لست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلماتهم (الرسل) ليكون الجميع واحداً، وكما أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك هكذا ليكون الكل واحداً فينا لكي يؤمن العالم أنك أرسلتني". يقول القديس كيرلس السكندري:

> "المسيح هو باكورة ثمار الذين دُعُوا لكي يُبنَوا معاً للحياة الجديدة، وهو الإنسان السمائي الأول لأن بولس يقول عنه: "آدم الثاني الرب من السماء" (١ كورنثوس ١٥: ٤٧) وكما كتب يوحنا: "وليس أحد صعد إلى السماء إلَّا ابن الإنسان" (يوحنا ٣: ١٣). وكل الذين على صلة به، لاسيما الذين اختارهم ليكونوا رسلاً وتابعين له، الذين جمعوا له ثمار نعمته وهم قد شاهدوا مجده وخدموه وصاروا بالنسبة له ثمار الحياة الجديدة التي جاءت بعده؛ لأنه هو رأس الجسد، أي الكنيسة (كولوسي ١: ١٨). ولقد طلب لهم بركة وتقديس الروح الذي سيأتي من عند الآب ولكن بواسطته (المسيح)... ولكن لا أحد من الذين يفحصون الكتب الموحى بها يتخيل أنه طلب أن يحل الروح على الرسل فقط، بل أنه طلب لأجلنا نحن أيضاً الذين نتبعهم ونعيش في بداية عصر المسيحية، لذلك أضاف الوسيط بين الله والبشر ورئيس كهنة نفوسنا هذا النص لكي يكبح الخيالات الغبية: "ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم"، لأنه يبدو غير معقول أن يقع كل البشر تحت عقاب الدينونة بسبب إنسان واحد، أعني آدم الأول، حتى الذين لم يخطئوا في ذلك الزمان عندما تعدَّى مؤسِّس

جنسنا الوصية التي أعطيت له، هؤلاء لبسوا صورة الترابي غير الممجدة، وعندما جاء المسيح في وسطنا، أي الإنسان من السماء، فهؤلاء الذين دُعُوا من خلاله للبر أي البر الذي بالإيمان، يجب أن لا يحول بينهم وبين إعادة تشكيلهم حسب صورته (المسيح). وكما أننا نقول إن صورة الترابي غير المحبوبة، نراها في أمثلة عدة وفي أشكال مختلفة من البشر الذين يحملون دنس الخطية وضعف الموت والفساد وعدم طهارة الشهوات الجسدية والأفكار العالمية، إلَّا أنه على النقيض من هذا، نتأمل صورة السمائي أي المسيح التي تشرق بالنقاء والإخلاص وبكمال عدم الفساد وبالحياة وبالقداسة، ولذلك كان من المستحيل علينا نحن الذين سقطنا من خلال العصيان الأول أن نعود إلى مجدنا القديم، إلَّا إذا حصلنا على اشتراكنا ووحدتنا في الله، لان طبيعة البشر قد أُخضِعَت من البدء للموت، وبذلك لم يعد ممكناً لأي إنسان أن يصل إلى الاتحاد بالله إلَّا بالروح القدس الذي يزرع فينا التقديس الخاص بأقنومه، ومن جديد يعيد تشكيل الطبيعة التي أُخضعت للفساد، يعيدها إلى حياته فيعود الإنسان إلى الله وإلى شبهه وإلى المجد الذي فقده. والابن هو المثال الذي يعبِّر ويعلن عن الآب، وروحه هو المماثلة الطبيعية للابن، لهذا السبب فهو من جديد يخلق نفوس البشر ويختم هذه النفوس بصورة الله ومثال العلي.

لذلك يصلي ربنا يسوع المسيح ليس من أجل الإثنى عشر فقط، بل من أجل كل المختارين في كل عصر الذين يتمسكون ويطيعون كلمات تعليم الرسل، ويأخذون التقديس بالإيمان والتطهير الذي يتم فيهم من خلال الاشتراك في الروح، وهو لم ير أنه من المناسب أن يتركنا في شكٍّ بخصوص صلاته ومعناها، لأنها تُعَلّم أي سلوكٍ يجب أن يكون سلوكنا نحن البشر، وأي طريق للبر يجب أن

نسير فيه لكي نصل إلى ما يسره. فما هو هدف صلاته؟ ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكون الكل واحداً فينا. فهو يطلب رابطة المحبة والاتفاق والسلام لكي يصل إلى الاتحاد الروحي، كل الذين يؤمنون لكي تشبه وحدتهم التي تتم من خلال المحبة الكاملة والاتفاق غير المفترق للنفوس، ملامح وحدة الجوهر التي للآب والابن. لكن رابطة المحبة التي تربطنا كلاً بالآخر، وقوة الاتفاق لا تقوم ولا تدوم من ذاتها، وهي لذلك ليست مثل وحدة الآب والابن غير المتغيرة التي هي قائمة بذاتها لأنهما يحفظان وحدتهما بسبب وحدة الجوهر، وهذه الوحدة طبيعية وحقيقية لأنها قائمة على كل ما في طبيعة الله من صفات. أمَّا وحدتنا نحن البشر، فهي مظهر للوحدة الإلهية، مظهر للحقيقة. وكيف يمكن للشبيه Imitation أن يصبح مثل الحقيقة الواقعية؛ لأن مثال الحق لا يمكن أن يكون في محتواه مثل الحق نفسه، بل هو مجرد شكل، ويظل كذلك شكلاً للحقيقة، ما لم يدخل عليه عنصر غريب يشوهه، وإذا ظن هرطوقي أو تخيل أنه قادر على أن يقلب تعاليم وحدة أقانيم الثالوث، وبالذات الآب والابن، وحاول أن يبرهن على نظريته الجنونية وقدَّمها لنا على هذا النحو (نحن لسنا واحداً لأن شكل جسد كل واحد منا مختلف عن الآخر كما أن أرواحنا لم تنصهر كلٍ في الأخرى، ولكن وحدتنا هي في الطبع وفي محبتنا لله وفي الاتفاق ووحدة الهدف ورغبتنا في إتمام إرادة الله، هكذا الابن وعلى نفس هذا الشرح هو واحد مع الآب أي واحد معه في الإرادة والاتفاق وليس في الجوهر)، فإننا نرفض مثل هذه النظرية كلها، ونعتبر قائلها مذنبٌ بالجهل وعدم الفهم، لماذا؟ لأن الأمور التي هي أعلى وأسمى من الطبيعة الإنسانية، لا يمكن مقارنتها بما للإنسانية، ولا يمكن أن نُخضِع مَن ليس له جسد للقوانين التي خضع لها الذين لهم أجساد.

لا تُشابه الأشياءُ الإلهية، الأشياءَ الإنسانية. ولو انعدمت الفوارق التي بيننا وبين الله، لأمكن لنا أن نُقارن بين ما يخص الله وبين ما يخصنا، ولكن إذا كانت هناك اختلافات بين طبيعة الله والبشر، وهي اختلافات تفوق التصور، فلماذا يحاولون أن يفهموا الطبيعة الإلهية التي لا ترتبط بأي ناموس يخص البشر الضعفاء، ويخطئون بارتكاب ما هو غير معقول، وإذا فعلوا ذلك فهم يبنون الحق من الظلال أو يؤلفون الحق من صورته التي تشبهه فقط، وبذلك يعطون الكرامة للمخلوق ويجعلون ما هو ثانٍ مكان الأول، ويَصِلون إلى فهم سبب كل الأشياء من الأشياء نفسها. ولكن حتى لا نبقى طويلاً في مناقشة هذا الموضوع ونتوه عن معاني النص الإنجيلي نقول إنه عندما يقدِّم المسيح وحدته مع الآب ووحدة الآب معه كمثال وصورة للشركة غير المفترقة والاتفاق والوحدة التي يمنحها هو للنفوس الملتهبة بمحبته، فهو يرغب أن نتآلف معاً بقوة الثالوث الواحد في الجوهر ونصبح واحداً، وتصبح الكنيسة بأسرها جسداً واحداً صاعدة بالمسيح إلى تلك الوحدة التي تجعل الشعبين شعباً واحداً[١] لأن بولس يقول: "هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً وهدم حائط السياج المتوسط ونقض العداوة بجسده وحتى الناموس والفرائض أزالهم لكي يخلق الاثنين في ذاته إنساناً جديداً واحداً صانعاً سلاماً ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به" (أفسس ٢: ١٤ – ١٦). ولقد تم هذا في الذين آمنوا بالمسيح وصاروا نفساً واحدة وأخذوا قلباً واحداً في تماثلهم الكامل في حياة التقوى ومحبة الله وفي طاعة إيمانهم واشتياقهم للفضائل، وما قلته ليس بعيداً عن الحق، بل هو مناسب وضروري، وإذا كان معنى النص يلزمنا بأن

---

(١) اليهود والأمم كما هو واضح من النص.

نغوص وراء ما هو أعمق – خصوصاً – وإن كلمات المخلص تدعونا إلى ذلك "كما أنك أيها الآب فيَّ وأنا فيك هكذا ليكون الكل واحداً فينا"، فإننا يجب أن ننتبه إلى ما معنى هذه الكلمات. لأننا فيما سبق، قد أكدنا وبكل صواب أن تُشبِه وحدة المؤمنين وإتقان قلوبهم ونفوسهم، وحدة الثالوث وتماثل الأقانيم. ولكننا في هذا المجال يجب أن نشير إلى الوحدة الطبيعية التي تشملنا جميعاً وكلنا معاً بالله دون أن نفقد الوحدة المادية Physical القائمة بيننا رغم أن لكل منا جسده الخاص به الذي يملكه والذي يحفظ له فرادته Individuality لأن بطرس لا يمكن أن يُصبح بولس، ولا يمكن أن نتكلم عن بطرس ونحن نقصد بولس، رغم أن كلاهما واحد بسبب وحدتهما في المسيح، فإذا سلَّمنا بالوحدة الجوهرية التي للآب والابن والروح القدس؛ لأننا نؤمن ونمجد الله الواحد في الثالوث القدوس، لنبحث كيف صرنا واحداً كلٍ مع الآخر ومع الله بالمعنى الحسي والروحي لكلمة وحدة: الابن الوحيد المولود من ذات جوهر الله الآب، والذي فيه كل طبيعة الآب الذي ولده هذا صار جسداً حسب الكتب واتحد بطبيعتنا في اتحاد لا يُعَبَّر عنه وصار واحداً من اثنين أي جسده الأرضي ولاهوته، وهو الذي بطبيعته الله، هو الإنسان من السماء، وظل دائماً الله والإنسان بعكس ما يقوله الذين لا يفهمون هذا السر، ولما اتحد فيه العنصران اللذان لا يمكن أن يتحدا، أصبح الإنسان قادراً على أن يشارك ويأخذ من الطبيعة الإلهية، ولهذا حصلنا فيه نحن على شركة وحضور الروح القدس الذي بدأ في المسيح ومن المسيح أولاً عندما صار إنساناً مثلنا ولأجلنا، وأخذ المسحة والتقديس رغم أنه بالطبيعة الله لأنه مولود من الآب نفسه، ولكنه قَدَّس بروحه هيكل جسده، بل كل الخليقة التي تدين له بالوجود والتي يمكن أن يشملها التقديس. هذا السر بدأ أولاً في

المسيح وصار طريقاً يؤهلنا لنوال الروح القدس والاتحاد بالله لأننا فيه تقدسنا كلنا حسبما ذكرت لتوي.

ولكي نتحد كلٌ مع الآخر وبالله، رغم وجود فروق بين كل شخص وآخر، لأن لكل منّا فرادته وروحه وجسده الخاص به، إلَّا أن الابن الوحيد جَهَّز الوسيلة حسب حكمته وحسب مشورة الآب. لأنه بجسدٍ واحدٍ، أي جسده بارك بالوحدة كل الذين يؤمنون به ويأخذونه في سر الإفخارستيا الذي فيه أيضاً (الإفخارستيا) نصبح كلنا جسداً واحداً معه، ومَنْ يمكنه أن يُفرِّق ويُقسِّم الذين اتحدوا بوحدة طبيعية وعُقِدوا Knit معاً في جسده المقدس الذي هو واحد مع المسيح. لأننا إذا اشتركنا في الخبز الواحد، نصبح جسداً واحداً؛ لأن المسيح واحدٌ لا يقبل التقسيم. لذلك، الكنيسة هي جسد المسيح، وكلنا كأفراد أعضائه حسبما قال الحكيم بولس. لأننا كلنا اتحدنا بالمسيح بجسده المقدس حيث أننا أخذناه في أجسادنا، أي الواحد غير المنقسم، تصبح خدمة أعضائنا مملوكة له وليس لأنفسنا. وهنا يصبح المسيح الرأس، ولكن الكنيسة تصبح جسده المكون من المسيحيين، وبولس يبرهن لنا هذا بهذه الكلمات: "لكي لا نكون فيما بعد أطفالاً مضطربين ومحمولين بكل ريح تعليم، بحيلة الناس، بمكر إلى مكيدة الضلال. بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس: المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً، ومقترناً بمؤازرة كل مفصل، حسب عملٍ على قياس كل جزء، يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة" (أفسس ٤: ١٤-١٦). وإن كل الذين يأخذون جسده المقدس يحصلون على هذه الوحدة الحقيقية الحسية في المسيح. يقول بولس مرة أخرى ويشهد مشيراً إلى سر التقوى "الذي في أجيال أُخر لم يُعَرَّف به بنو البشر كما قد أُعلِن الآن

لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال الموعد في المسيح" (أفسس ٣: ٥ – ٦). فإذا كنا كلنا من ذات الجسد واحداً في المسيح، من خلال جسده، ألا يعني هذا أن كلَ واحدٍ منّا هو واحدٌ مع الآخر وفي المسيح؟ وبالإشارة إلى الوحدة في الروح، حيث أننا نسير من ذات الطريق، نقول إننا نأخذ الروح الواحد، وهذا يوحّدنا كل بالآخر وبالله، ولكن الذي يسكن في كل فرد منّا هو الروح الواحد غير المنقسم الذي يحفظنا، ولكنه يجعلنا واحداً، وكما أن قوة جسده المقدس يجعل الذين يأخذون هذا الجسد من ذات الجسد الواحد وواحداً معه وفيه، هكذا الروح غير المنقسم يسكن في الكل، ولكنه يظل الواحد الذي يجمع الكل في وحدة روحية؛ لذلك يخاطبنا بولس الملهَم "محتملين بعضكم بعض في المحبة. مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام. جسد واحد وروح واحد كما دعيتم إلى الرجاء الواحد لدعوتكم. رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة. إله وأب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي الكل" (أفسس ٤: ٢ – ٦) ... وإذا تركنا حياتنا الطبيعية وأسلمنا ذواتنا إلى ناموس الروح القدس، فإنه لا يبقى مجال التساؤل أنه بإنكارنا لأنفسنا وبحصولنا على الحياة العليا التي تشبه حياة الروح القدس، الذي يحل فينا، فإننا نتحول إلى طبيعة أخرى ونصبح ليس بَعدُ بشراً، بل أبناء الله وبشرٌ سمائيون، وبذلك نبرهن على أننا شركاء الطبيعة الإلهية.

لذلك نحن كلنا واحد في الآب والابن والروح القدس. وواحدٌ، وأنا أعني في الهوية Identity أو الفكر وكذلك في الحياة حسب البر وفي شركة جسد المسيح المقدس وشركة الروح القدس الواحد" (هنا انتهى نص القديس كيرلس الكتاب ١١ فصل ١١

تفسير يوحنا (١٧: ٢٠ – ٢١).

والنص لا يحتاج إلى تعليق، لكن على القارئ أن يلاحظ جيداً:

١– إن وحدة الكنيسة مستمدة من الثالوث.

٢– إنها على مثال الثالوث، مع الفوارق التي ذكرها القديس كيرلس.

٣– إنها تتم في شركة جسد المسيح في الإفخارستيا، الذي يجعل المؤمنين واحداً ويجعل كل فرد عضو في جسد المسيح.

٤– إن الوحدة تحتاج إلى إنكار النفس، والتشبُّه باتضاع وعمل المسيح والروح القدس، لأن هذا هو الذي يرفعنا إلى الحياة العليا وكل هذا من الله.

٥– إن وحدة الكنسية توهَب مثل كل العطايا الإلهية، ولا تورَّث، وتحتاج دائماً إلى اليقظة الروحية والنمو.

الاختبار الليتورجي لوحدة الكنيسة:

عندما نقرأ الإصحاح الثالث من (أفسس ١ – ١٠)، ثم الرابع (١ – ٦)، نكتشف أن الرسول بولس يضع أمامنا حقيقة هامة، وهي (الجسد الواحد) الذي صرنا نحن الأمم (شركاء) فيه. وتعبير (الجسد الواحد) في غاية الأهمية لأنه عندما يستخدمه الرسول بولس، فإنه – بكل تأكيد – يعني المسيح والكنيسة. هذه المسألة الدقيقة في غاية الأهمية، لأننا نظن أحياناً أنه توجد ثلاثة أجساد، وهي بالتحديد – جسد المسيح عن يمين الآب – جسد المسيح في الإفخارستيا – ثم جسد المسيح، أي الكنيسة. هذا التقسيم لا نراه مطلقاً في العهد الجديد، بل نرى العكس، نرى أن المسيح الواحد يعطي هذه الوحدة على ثلاثة مستويات.

- وحدةٌ مع الآب عندما جلس عن يمين الآب.

- وحدةٌ معه هو شخصياً، وهي في الواقع قلب الوحدة في الإفخارستيا.

- وحدةٌ مع المؤمنين، وهي وحدة الجسد الواحد.

وطبعاً هذه مظاهر ثلاثة للوحدة، وليست ثلاثة أنواع مختلفة من الوجود. ولأن هذه النقطة هامة جداً. علينا أن ندرس النصوص الخاصة بالجسد في العهد الجديد لسبب واحد وهو أن الاختبار الليتورجي يضعنا في قلب هذه الوحدة بمظاهرها الثلاثة.

أولاً: الرسالة الأولى إلى كورنثوس:

عندما ندرس النصوص ابتداءً من الإصحاح العاشر — لاسيما – الإفخارستيا نجد أننا أمام تعبير الجسد الواحد "الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ، أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ" (١ كورنثوس ١٠: ١٧). ولذلك الوحدة هنا في جانبها الفعَّال والواضح هي وحدة تمارَس وتختبَر في الاتحاد بالمسيح الذي يجعل الكل معاً جسداً واحداً هو المسيح والكنيسة، وهو الجسد الواحد الذي تزرعنا المعمودية فيه كأعضاء "اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ" (١ كورنثوس ١٢: ١٣)، ثم نرى أن الجسد الذي يستخدمه الرسول كمثال للحديث عن الجسد الواحد، يوصف أيضاً بأنه واحد، ولذلك المثال نفسه يؤكد وحدة الجسد (١٢: ٢٠).

ثانياً: الرسالة إلى أفسس:

حيث يظهر بكل وضوح، أن المسيح هو رأس الجسد، وأن هذا الجسد هو الكنيسة (أفسس ١: ٢٢ – ٢٣). ثم يعود الرسول لكي يؤكد أن الخليقة الجديدة التي لا وجود فيها لجنس يسمى اليهود ولجنس آخر يسمى الأمم، هذه الخليقة مصدرها

(الإنسان الواحد الجديد أي آدم الثاني الذي صالح كل الأجناس والشعوب في جسد واحد مع الله بالصليب) (أف ٢: ١٦)، وهنا الجسد الواحد هو ذات الجسد الذي صُلب، هو جسد يسوع، وبالتالي لا مجال بالمرة للحديث هنا عن أجساد ثلاثة، وأنه هو ذات الجسد الواحد الذي نشترك فيه، وهو ذات الجسد الواحد الذي صُلب، لأن الإنسانية كما قلنا تنحدر من آدم الجديد الواحد، وهو ما يتحدث عنه الرسول بعد ذلك ويصفه (بسر المسيح) هذا السر هو بكل يقين اجتماع اليهود والأمم في مصالحة، وهذا الاجتماع جعل الرسول يقول عن الأمم "شُرَكَاءُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْجَسَدِ" (أف ٣: ٦). هذه الشركة في الجسد الواحد، هي الكنيسة، وهي التي يصفها الرسول بعد ذلك "وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ .. جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ" (أف ٤: ٣ – ٤)، ولذلك، وبعد أن يؤكد الرسول هذه الوحدة يُقدِّم على الفور هذه الوحدة بين المسيح والكنيسة كمثال للزواج "وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَداً وَاحِداً. هذَا السِّرُّ عَظِيمٌ، وَلكِنَّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ" (أف ٥: ٣١ – ٣٢).

ثالثاً: الرسالة إلى كولوسي:

منذ بداية الرسالة يقدِّم الرسول ذات المعنى، ويؤكِّد هنا بعبارات أقوى: إن الجسد الذي تصالح فيه الكل هو "جِسْمِ بَشَرِيَّتِهِ" (١: ٢٢)، ولكن جسم بشريته هذا، ليس فكرةً أو مضموناً، إنه هو جسد المسيح وهو "جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ" (١: ٢٤)، ولأن المسيح هو رأس الجسد، يقول الرسول بكل وضوح "الرَّأْسِ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ الْجَسَدِ بِمَفَاصِلَ وَرُبُطٍ، مُتَوَازِراً وَمُقْتَرِناً يَنْمُو نُمُواً مِنَ اللهِ" (٢: ١٩)، وبالتالي علينا أن نفهم بكل دقة إن وحدة الجسد هي التي جعلت الرسول يقول هذه الكلمات "لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ" (أفسس ٥: ٣٠)، وهي صدى لكلمات آدم الأول عندما وصف حواء التي منه أخذت "هذه لحم من لحمي وعظم من عظامي" (تكوين ٢: ٢٣)، وهي طريقة التعبير العبرانية الشائعة والواضحة جداً والتي تعني بكل دقة (هذه مني أي من كياني)، ولذلك وحده، يمكننا أن نقول: الكنيسة جسد المسيح لأنها منه، من كيانه من

حياته ومن لحمه وعظامه، هذا هو سر الاتحاد به الذي لا مثيل له سوى سر الزيجة، الذي من المفروض أن يرفعنا إلى فوق إلى معاينة المسيح والكنيسة.

الممارسة والمعيشة:

في الأسرار نرى بكل وضوح أنه لا يوجد سِّرٌّ واحدٌ يمارسه الفرد كفرد، بل السر تمارسه الجماعة. ولذلك، حتى المعمودية، وحَسَبْ كُتب الكنيسة الطقسية، الشعب حاضرٌ، ولا يمكن أن تتم المعمودية بدون حضور الشعب؛ لأن الشعب يرى (الغرس الجديد) والشعب هو الذي يسلِّمه قانون الإيمان عن طريق الاشبين (العراب). وهذه الحقيقة الفائقة تجعلنا نرى أنه حتى في معمودية البالغين، يجب أن يُلَقِّن الاشبين أو الشماس قانون الإيمان لمن يعتمد، لأن التلقين هنا هو تسليم الإيمان من الجماعة إلى الفرد. وجحد الشيطان يتم أمام الجماعة أيضاً، والدهن بالميرون أمام الجماعة ليس كشهود فقط، بل لأنهم يشاركون مسئولية حياة ونمو العضو الجديد. وبعد ذلك، التناول حيث يتم اتحاده بالكل، أي جماعة المؤمنين. في المعمودية الاتحاد شخصي، لأن الفرد يعتمد وحده. في الإفخارستيا الاتحاد بالجماعة. في المعمودية الاتحاد الشخصي بالمسيح، وهو نفسه، أي المسيح يقود إلى الاتحاد بالجماعة. في الزيجة التي لا تتم إلَّا يوم الأحد حيث يجتمع المؤمنون، ولا تتم إلَّا في القداس حسب قانون وطقس الكنيسة القبطية، من الواضح أن اتحاد الرجل بالمرأة يتم على أساس اتحاد الكنيسة بالمسيح، ولذلك يقف العريس على باب الكنيسة حسب الشهادات القديمة، يقدِّم للعروس صليباً على باب الكنيسة، وتقول الكتب الطقسية؛ لأن المسيح اتحد بالكنيسة بسر الصليب، وتتم صلوات الكليل بعد رفع بخور باكر، ثم يتم تناول العروسين قبل الشعب كله، وبعد خدام المذبح مباشرة، ولا زالت بقايا التناول نراها في فتح ستر الهيكل أثناء قراءة الوصية وتغطية اليدين بلفافة وهي أصلاً لفافة التناول، هذه الوحدة الروحية من الكنيسة هي سبب اختيار الشعب لراعيه من الدياكون حتى البابا البطريرك، وهذه ليست ديمقراطية وحرية أبداً. هذه كلمات بشرية لا تكفي للتعبير عن سر المسيح والكنيسة. هنا الكنيسة ترى في

أحد أعضائها مَن يصلح لأن يكون أباً وراعياً. هنا الجسد يميز عضواً فيه، فإذا كان الجسد لا يميز هذا العضو، ولا يراه كعضوٍ فيه، فكيف يمكن أن تتم رسامة بالإكراه؟!! وكيف يمكن أن نفرض راعياً على ايبارشية؟!! ... كل هذه الممارسات الخاطئة التي في طريقها إلى الزوال هي في الواقع إنكار كامل لمعنى الكنيسة.

الممارسة لا تأتي إلَّا من الحياة السليمة، ولذلك، عندما يهبط مستوى الحياة يهبط مستوى الممارسة. إن العالم القبطي زكريا ابن سباع في القرن الثالث عشر يقول: "الإفخارستيا وحدها هي التي تجعل الرجل والمرأة في الزيجة جسداً واحداً"، وكم مَنْ ارتفع إلى مستوى هذه الممارسة؟ وكم مَنْ يعرف أن كل مرة يتناول فيها، إنما لتجديد كل ما أخذ وما سيأخذ من عطايا إلهية في الزيجة أو البتولية.

الأسرار تمارسها الجماعة من أجل حياة الجماعة، والليتورجية هي معايشة وممارسة سر الوحدة بين المسيح والكنيسة.